

بيوت الله

ساجد ومعاقد

obeykandi.com



وأول مسجد بنى في الإسلام هو مسجد قباء
الذي يقال له مسجد التقوى أيضا ، لقوله تعالى
فيه : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » .
وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله
عليه وسلم سئل عن المسجد الذي أسس على

فلت صلاة الجمعة تؤدي في جامع عمرو
بالفسطاط ، باعتباره أول جامع أنشئ فيها ، الى أن
قدم صالح بن علي بن عبد الله بن عباس من العراق

في طلب مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، عام ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) . فنزل بعسكره في شمالي القسطنطينية ، وبني هناك الأبنية ، فسمى هذا الموضع العسكر . ثم أقيمت صلاة الجمعة في مسجد بنى الفضل بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) ، عرف بجامع العسكر .

استمرت الجمعة تقام في هذين المسجدين حتى بنى أحمد بن طولون مسجده في عام ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) ، فأبطل صلاة الجمعة من جامع العسكر ، وبقيت تقام بجامعه وجامع عمرو ، إلى أن قدم جوهر القائد ، وبني الجامع الأزهر عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م) ، فكانت الجمعة تقام في جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الأزهر .

وفي عام ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنشأت السيدة تغريد ، أم الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، جامع القرافة المعروف بجامع الأولياء . ثم أنشأ العزيز بالله جامع بباب الفتوح في عام ٣٨٠ (٩٩٠ م) ، وجمع فيه في عام ٣٨١ هـ (٩٩١ م) ، وأتمه ابنه الحاكم بأمر الله وصلى فيه الجمعة في شهر رمضان من عام ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) . كما أنشأ الحاكم بأمر الله جامع المقس وراشدة ، فكانت الجمعة تقام في هذه الجوامع كلها إلى أن انتهت الدولة الفاطمية عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وأبطلت الخطبة في الجامع الأزهر ، واستمرت فيما عداه .

والمساجد الجامعة ، وإن كان الهدف الأول من إنشائها هو أداء الفرائض ، إلا أنها ساعدت على التألف والتعارف ، ونشر التعليم وإذاعته ، ونشر أوامر الدولة وقوانينها . وكانت تتخذ كمحاكم لنقض المنازعات الدينية والمدنية ، وأقيم بها بيت المال .

وكانت تعقد فيها الدروس ، كما أقيمت

الكتاتيب لتحفيظ القرآن والتعليم الابتدائي ... فكانت بمثابة جامعة للطلاب ينشأ فيها طفلا ، ويتخرج فيها عالما .

وجامعة عمرو بن العاص أقدم جامعة إسلامية ، وكانت خير ينبوع انتهل منه الطلاب والعلماء . ولما قدم مصر الامام الشافعي ألقى دروسه فيه . وفي النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة (نهاية العاشر للميلاد) بلغت حلقات الدروس فيه عشر حلقات لنحو ٢٣٠٠ طالب ، في الوقت الذي كان في الأزهر ٣٥ طالبا . ووقعنا على أسماء الكثيرين من أجلة العلماء الذين قاموا بالتدريس فيه حتى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر الميلادي) .

ولما أنشأ أحمد بن طولون مسجده عام ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) ، عين فيه القراء والفقهاء للتدريس . وكذلك بعد أن أصلحه السلطان لاجين المنصوري عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ، رتب فيه دروسا للفقهاء على المذاهب الأربعة ، ودروسا للتفسير والحديث والطب ، وأنشأ — بزيادته القبلية — كتابا لاقراء اليتامى كتاب الله .

وكذلك الجامع الأزهر ، أنشئ ليكون مسجدا جامعاً للقاهرة أسوة بجامع عمرو بالقسطنطينية ، والجامع الطولوني بالقطائع . وكان أول درس ألقى فيه في شهر صفر عام ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) . واستمرت به الدروس إلى الآن .

وفي نهاية الدولة الفاطمية كانت السلطة مركزة في وزرائها ، فانتهزوا الفرصة للقضاء على التشيع ، وأنشأوا المدارس للمذاهب السنية بمصر والاسكندرية .

وهذا هو السر في كبر مساحة هذه المساجد ، فقد أعدت لتجمع عددا كبيرا ، بل أمة مجموعة ... ثم كثر إنشاء المساجد والمدارس في أنحاء مصر والقاهرة ، وتعددت الخطبة .

نشأة المدارس في مصر

كانت مصر في القرون الخمسة الأولى للعصر الإسلامي مركزا للعلم ، ومقصدا للطلاب . وكانت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم ودار الحكمة عامرة بالندراسات المختلفة . ومع أن الفاطميين حينما استولوا على مصر ، دعوا فيها لمذهب الشيعة ، وولوا فقهاءهم مناصب القضاء ، لم يستطيعوا التغلب على المذاهب السنية والتمسك بها .

ولما قامت الدولة الأيوبية قضى سلاطينها — وكانوا شافعية — على التشيع ، وأنشأوا المدارس لفقهاء المالكية والشافعية .

وقد شاركت الاسكندرية القاهرة في نهوضها العلمي والثقافي في تلك الحقبة ... الا أن لها فضل سبق في انشاء المدارس للمذاهب السنية . ففي عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) — والدولة الفاطمية قائمة — أنشأ الوزير رضوان بن الولحي ، وزير الخليفة الحافظ لدين الله ، مدرسة في الاسكندرية . كما أنشأ العادل أبو الحسن على بن السلار ، وزير الخليفة الفاطمي الظافر ، المتوفى عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ، مدرسة أخرى بالاسكندرية عام ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) . وقد كان شافعي المذهب .

وكان لملك مصر صلاح الدين يوسف الأيوبي أكبر الفضل في انشاء هذه المدارس وانتشارها في أنحاء مصر ... فانه عمل جاهدا على القضاء على مذهب الشيعة وانعاش مذاهب السنة ببناء المدارس لفقهاءها ، وغير ذلك من الوسائل ، مما جعل لمذهب الشافعي الحظ الأكبر من عنايته ، فخص به القضاء لكونه مذهب الدولة .

وأول مدرسة له ببصر هي المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص . أنشأها عام ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) . وفي السنة نفسها أنشأ المدرسة

القمحية ، بجوار جامع عمرو أيضا : الأولى برسم الفقهاء الشافعية ، والثانية برسم الفقهاء المالكية . وكان وقتئذ وزيرا للخليفة العاضد .

وعندما أصبح سُلطانا لمصر أمر في عام ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) بإنشاء المدرسة الصلاحية بجوار قبر الامام الشافعي . كما أمر بإنشاء مدرسة بجوار المشهد الحسيني . وفي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) أمر بإنشاء المدرسة السيوفية برسم فقهاء الحنفية — وهي أول مدرسة أوقفت عليهم — كما أنشأ في الاسكندرية مدرسة وبيمارستانا ودارا للمعاربة في عام ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) .

ثم اقتدى به أولاده وأمرؤه في بناء المدارس في مصر والقاهرة وغيرها من بلاد القطر ، وحذا حذوهم من ملك مصر بعدهم .

وفي الوقت الذي أعدت فيه المدرسة لتؤدي فيها الشعائر الدينية ، أعدت أيضا لتكون مراكز ثقافية ... فقد عني بها عناية فائقة ، وألحقت بها المكتبات ... كما عني بصحة أساتذتها وطلبتها ، وأغدقت عليهم الحيرات . وكان لها أكبر الأثر في النهضة العلمية ببصر . وزخرت أرجاء مصر بثروة فنية من المساجد والمدارس ودور الحديث تخرج فيها أجلة العلماء في مختلف العلوم ، وكبار موظفي الدولة في شتى شئونها ... فقاموا بأعبائها خير قيام ، وخلفوا لمصر تراثا علميا تتيه به .

وتصميم المسجد الجامع أربعة ايوانات مسقوفة في الغالب ، ومحمولة عقودها على عمد رخامية ، أكبرها ايوان المحراب الذي يشتمل على عدة أروقة ، ويتوسط الايوانات صحن مكشوف تتوسط قبة تحتها فسقية . والى أن ظهرت المدرسة كان المسجد لا يلحق به مدفن ... لا للمنشي ولا لغيره .

وإذا كان تصميم المدرسة قل جدا في العصر
العثماني ، فإن تصميم المسجد ظل قائما في مصر
والأقاليم حتى الآن .

ومن دور العبادة التي خصصت لأغراض
اجتماعية أيضا الخوانق (بيوت الصوفية) .
فهي أولا مساجد توفرت فيها مشتملات المسجد
من منارة ومنبر ، وتؤدي فيها الجمعة والجماعة ،
ألحقت بها مساكن لاقامة المتصوفين ، ورصدت
عليها الأوقاف للصرف عليها .

والربط وهي بمثابة زوايا لأداء الشعائر دون
الجمعة ، حيث لا يوجد بها منبر ولا منارة ، وألحقت
بها مساكن للفقراء المنقطعين . ومنها ما خصص
للنساء ، وكانت بمثابة دور كفاية للمرأة . تقيم بها
البنات حتى يتزوجن ، والمطلقات حتى يردهن
أزواجهن أو يتزوجن .

وكما كانت تلك المعابد معاهد علوم ، فهي
كذلك مدارس فنون ، وخير الهام للمهندس
والصانع بما حوته من مختلف الفنون والصناعات .
وفيها يجد المؤرخ أصدق سجل بما حوته من
نصوص تاريخية تضمنت أسماء الذين شادوها ،
فشادوا مجدنا الخالد وتراثنا الغني المجيد .

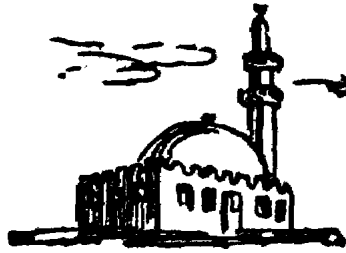
حسن مبد الوهاب

أما تصميم المدرسة فإنه يشتمل على ايوانين ،
أو أربعة ايوانات معقودة متقابلة تكون شكلا
متعامدا ، أكبرها ايوان المحراب ، وأصغرها
الايوانان الجانبيان ، ويتوسطها غالبا صحن
مكشوف به قبة الفسقية ، وألحق بها مدفن
للمنشيء وسبيل يعلوه كتاب ، عدا مساكن للطلبة ،
مثل مدرسة السلطان حسن .

ولما صغر حجمها غطى الصحن ، واستغنى عن
الفسقية وعن قبتها التي كانت تتوسطه . ومع ذلك
فقد وجدت مدارس اشتملت على ايوانين
معقودين ، وآخرين صغيرين تكتنفهما حجرات .

وفي القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر
للميلاد) ، غلب تصميم المدرسة على المسجد .
فأنشئ على مثالها كثير من المساجد ، بصرف
النظر عن كونه خصص لمذهب أو لا . وتارة يكتب
عليها مدرسة ، وأخرى مسجد ، مما يعزز أن هذه
الأسماء ترجع الى وظيفة البناء لا الى البناء نفسه ،
وكان مدلولها الغرض الذي أقيم من أجله لا طراز
بنائه

على أن تصميم المسجد ظل سائدا جنبا الى جنب
مع المدرسة ، وزيد على المسجد الحاق السبيل
والكتاب به ، وأحيانا مدفن للمنشيء .



جامع عمرو بن العاص

البلاد كافة . فلا يصل الى مصر أثرى أو مستشرق أو سائح الا بادر الى زيارة هذا المسجد الجليل . ولم تقتصر مهمة المسجد في الاسلام على الصلاة فحسب ، بل كان دار تعليم وثقيف وتهذيب والدور الذي قام به مسجدا هذا لا يقل عن دور غيره من المساجد الاثرية الخالدة : كابن طولون ، والجامع الأزهر ، وغيرهما .

موقعه ونشأته

في عام ٢١ للهجرة (٦٤١ — ٦٤٢ للميلاد) حينما تم لعمر بن العاص تحرير مصر من الرومان وأسس مدينة القسطنطينية . وبعد تطهير الاسكندرية من فلولهم ، أقام أحد قواده « قيسية بن كلثوم » في حديقة شمال حصن « تراجان » — أو حصن بابليون — الذي كان يسمى بقصر الشمع ، واتخذ عمرو داره على مقربة من هذا المكان من الناحية الشرقية . وكان مجرى النيل آنذاك واقعا شرقي مجراه الحالي ، وكانت ضفته الشرقية تمتد حيث يمتد شارع مار جرجس ، فشارع السد ، فقنطرة الدكة ، فجامع أولاد عنان .

في هذا الوقت بعث الخليفة عمر بن الخطاب ، الى حكام البلاد التي حررها الاسلام — ومنهم عمرو بن العاص — يأمرهم ببناء مساجد لاقامة صلاة الجمعة . وقد اختار عمرو لمسجد القسطنطينية مكانا يشرف على النيل ، هو مكان حديقة قيسية ، وعرض على قيسية أن يعوضه عن ذلك ، فأبى أن يقبل التعويض ، وغلب عليه الكرم فتبرع بأرضه للمسلمين .

المسجد في الأصل الموضع الذي يسجد فيه . قال الزجاج : « كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد » . ولعله أخذ من قوله عليه الصلاة والسلام : « جعلت لى الأرض مسجدا ، وتربتها طهورا » . وأول مسجد في الاسلام هو مسجد « قباء » ، ويقال له : مسجد التقوى ، لقوله تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » .

ولما فتح عمر البلدان ، كتب الى أبي موسى الأشعري والى البصرة أن يتخذ المسجد للجماعة ، وكتب الى سعد بن أبي وقاص والى الكوفة بمثل هذا ... وكذلك الى أمراء الأجناد بالشام ، والى والى مصر : ألا يمتددوا الى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ، ويتخذوا مسجدا واحدا ، ولا يتخذ القبائل مساجد ... فكان الناس يتسكون بأمر الخليفة عمر رضى الله عنه ، فبنيت المساجد في العواصم التي ورثت الحضارة عن الرومان والفرس ، كالقدس والقاهرة ودمشق .

ولم يكن نصيب القاهرة بأقل من العواصم الأخرى ، فبنى فيها عمرو بن العاص مسجده العتيق الذي امتاز عن سواه بأنه المسجد الوحيد الذي عاصر جميع الحكام الذين قاموا على مصر منذ الفتح الاسلامى الى وقتنا الحاضر ، وشهد جميع التطورات التي حدثت خلال ما يقرب من أربعة عشر قرنا ، تغير فيها من حال الى حال ... فلقد نشأ صغيرا متواضعا ، ثم نما وكبر ، وازدهى وازدهر ، وأخيرا شاخ وهرم حتى قارب الفناء .

وشهرة المسجد التاريخية مازالت ذائعة في

روى ابن سعد الجوانى : أن شجرة من هذه الحديقة بقيت قائمة خلف المحراب الكبير .

وقتل أبو سعيد الحميرى : أن مساحة المسجد « خمسون ذراعا طولاً في ثلاثين عرضاً » ، وكانت تحوطه طرقة في نواحيه كلها ، وله بابان تجاه دار عمرو من الجهة الشرقية ، وبابان في الشمال ، وبابان في الغرب .

والمقبل من زقاق القنديل كان يرى الواجهة الشرقية للجامع ، موازية للسور الغربى لدار عمرو ، قبل توسيع المسجد بدخول هذه الدار فيه .

وكان عرض المسجد من القبلة الى الواجهة البحرية مساويا لعرض دار عمرو ، وسقفه منخفضاً ، مكوناً من الجريد والطين ، محمولاً على ساريات من جذوع النخل . ولم يكن له صحن ، ولا أمامه رجة يستنشق المصلون طلق هوائها ، بل كانوا ينتظرون الصلاة في الخارج لشدة الحر .

وكانت المسافة بين سور المسجد وسور دار عمرو سبعة أذرع ، وكانت أرضه مفروشة بالحصباء الملتصقة بالأرض . وبه بئر يقال لها « البستان » في حلقة الفقيه ابن الجيزى المالكى .

وجاء في الخطط للمقريزى أن مكان مسجد عمرو كان كنيسة قبطية هدمها المسلمون . وفي كتاب النجوم الزاهرة : أنه كان بمكان المسجد سوق للبيع والشراء .

يقول الكندى ويزيد بن أبى حبيب : سمعت من مشايخنا الذين شهدوا بناء المسجد ، أنه كان يوجد ثمانون من أصحاب النبى عليه السلام ، وبينهم الزبير بن العوام والمقداد وعبادة بن الصامت وغيرهم ، وقد اشتركوا في تحرير القبلة .

قال الليث : أن عمراً مد الخيط لتحريز القبلة ،

وأشرف على العمل بالارشادات النافعة حتى تمت العمارة .

ويقول داود بن عقبة : أن عمراً عهد ببناء القبلة الى ربيعة بن شرحبيل بن حسنة ، والى علقمة القرشى ، ثم العدوى .

ويقول عبد الله بن جعفر : أن المحراب بناه عبادة ابن الصامت ورافع بن مالك . ولم يكن المحراب مجوفاً كما نراه الآن .

ويقول القضاعى فى كتابه : أن عمراً صنع منبراً ، ولكن عمر بن الخطاب أشار عليه بتكسيه ، إذ قال : « أما يحسن بك أن تقوم قائماً ، والمسلمون جلوس تحت عقبك » ، فصدع عمرو بالأمر ، وأزال المنبر . كانت الحيطان بالآجر غير مطلية بالبياض ، ولم يكن للجامع منذنة ، ولا زخرفة فيه من الداخل أو الخارج .

وكان المسجد فى أول أمره يستخدم مكاناً للاجتماعات العامة ، علاوة على إقامة الشعائر الدينية فيه .

وكان الحاكم يقوم فيه بالوعظ ، ويصلى بالناس صلاة الجمعة ، فكان اجتماع المسلمين فى هذا اليوم فرصة لإعلان الآراء العامة ، وصار المسجد مكاناً لتبادل الآراء فى الصالح العام .

لقد عثر على وعظ ألقاه عمرو يكشف لنا بما لا يقبل الجدل عن الوظيفة التى قام بها المسجد فى أوائل أيام الفتح

انه حديث رسمى لأحد الصحابة ، فهو ذو فائدة خاصة ، إذ نجد فيه أنباء عامة عن الحالة العقلية يخالطها من المعلومات الادارية ما يتسع لاحتوائه وعظ وال يلقى على قومه فى تلك الأيام الأولى .

قال الراوى : « رحت أنا ووالدى الى صلاة الجمعة تهجيراً ، وصلينا فأطلقنا الركوع . ثم أقبل

صلى الله عليه وسلم يقول : « ستفتح عليكم من بعدى » مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لكم فيهم صحرا وذمة ... فكفوا أيديكم ، وغفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم . ولا أعلن ما أتى رجل قد أسمن جسمه ، وأهزل فرسه . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططته من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم ، والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية ...

« حدثنى عمر أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : « ولم يارسول الله ؟ » . قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » . فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ... فاذا بيس العود ، وسحن الماء ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد عن الشجر ، فحى الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يرجع أحد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرتة . أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم » .

الزيادة فى المسجد

أول زيادة فى المسجد حصلت فى عام ٥٣ للهجرة (٦٧٢ - ٦٧٣ للميلاد) على يد مسلمة بن مخلد الأنصارى ، والى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية ، وكانت بعد تأسيس المسجد باثنين وثلاثين عاما .
نقل الكندى . « أن المسلمين شكوا الى مسلمة

رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، قلت : يا أبت من هؤلاء ؟ فقال : يا بنى ، هؤلاء الشرط . فأقام المؤذن الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيت رجلا ربعة قصير القامة ، وافر الهامة ، أدعج ، أبلج ، عليه ثياب موشاة وجبة ... « حمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ووعظ الناس ، وأمرهم ونهاهم . وسعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ، ويأمر بالابتعاد ، وينهى عن الفضول ، وكثرة العيال ، واخفاض الحال فى ذلك فقال :

« يامعشر الناس : اياكم وخلالا أربعا ، فانها تلعب الى التعب بعد الراحة ، والى الضيق بعد السعة ، والى الذلة بعد العزة ... اياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقليل بعد القال فى غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل . ولا يضيع فى فراغه نصيب العلم من نفسه فيحوز من الخير عاطلا ، ومن حلال الله وحرامه غافلا .

« يامعشر الناس : انه قد تدلت الجوزاء ودكت الشعرى ، وأقلعت الساء ، وارتفع الرباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته . فحى لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم تنالوا من خيره ولبنه ، وخرافه ، وصيده . وأريحوا خيلكم وسنوها وصونوها وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مفاتحكم ، ونصركم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، واياكم والمؤسسات المسولات فانهم يفسدون الدين ، ويعصرن الهمم . « حدثنى عمر أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله

الزيادة الثالثة

في عام ٩٠ للهجرة (٧٠٨ — ٧٠٩ للميلاد) ،
قدم مصر الأمير قرّة بن شريك واليا على مصر من
قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فهدم المسجد في
أول عام ٩٣ للهجرة (٧١٠ — ٧١١ م) بأمر من
الخليفة الوليد ، ثم بدى بتعميره في شهر شعبان
من السنة المذكورة ، وتم في رمضان عام ٩٣ للهجرة
(يونيه ٧١٢ م) . وكانت صلاة الجمعة زمن
العمارة تقام بالقيصرية .

وكانت زيادته هذه المرة من الجهة القبلية ، ومن
الجهة الشرقية ، فأدخل في سطحه بقية الطريق
وجزءا من دار عمرو ودار ابنه عبد الله . وكذلك
أنشأ محرابا مجوقا على شاكلة المحراب الذي أحدثه
بالحرم النبوي عمر بن عبد العزيز عام ٨٨ للهجرة
(٧٠٦ — ٧٠٧ م) ، وسمى محراب عمرو .

ثم رأى قرّة بن شريك أن يطلى بالذهب رءوس
الأعمدة الأربعة المحيطة به ، ولم يكن يوجد بأعمدة
المسجد قبل ذلك أى تذهيب ، وكذلك زخرف
معظم الأعمدة . ونصب فيه منبرا خشبيا جديدا عام
٩٤ للهجرة (٧١٢ — ٧١٣ م) ، وأحدث فيه
المقصورة تقليدا لمقصورة معاوية بالجامع الأموي .
أما المحراب الأوسط — ويعرف بمحراب عمرو
ابن مروان — فقد يكون أنشئ بعد محراب قرّة .
وقيل ان قرّة هو الذى أنشأ المحرابين .

وكان لمسجد قرّة أربعة أبواب في الشرق ،
والأخير باب النحاسين ، وكذلك كان له أربعة
أبواب في الغرب ، وثلاثة أبواب في الجهة البحرية .

ثم أقيم منبر جديد من الخشب عام ٩٤ للهجرة
(٧١٢ — ٧١٣ م) بعد إزالة المنبر الأصلي الذى
أقامه عمرو . ويحتل أن يكون ذلك بعد وفاة عمر
ابن الخطاب . ويقال أيضا ان هذا المنبر هو منبر
عبد العزيز بن مروان ، نقل من كنيسة بمصر .

ضيق المسجد بهم ، فأبلغ شكواهم الى الخليفة
معاوية ، فأمر بتوسيع المسجد .

ولقد حصل التوسيع من الناحية الشرقية حيث
كانت دار عمرو ، ومن الجهة البحرية دون الجهتين
الغربية والقبلية . وأنشئت رحبة من الجهة البحرية ،
وزينت الحيطان والسقف بأنواع الزخرفة .

ويقول الكندى أيضا : « ان معاوية كان قد أمر
ببناء صومعة للأذان ، وأن مسلمة شيد أربع صوامع
في كل ناحية من نواصى الجامع ، ولم يكن يوجد
منها شئ قبل ذلك » . وهذه الصوامع كانت نواة
للمآذن في مصر ، ترقى وتطورت حتى بلغت الهيئة
التي تشاهد عليها الآن .

ويقول السيوطى : « ان مسلمة نقش اسمه
عليها ، وهو كذلك أول من غطى المسجد بالحصر ،
ولم يكن يغطيها الى ذلك الحين الا الحصباء .
وكان سلم الصومعة في الطريق فنقله خالد بن
سعيد الى داخل المسجد » .

الزيادة الثانية

احتفظ المسجد بالصورة التى تركه عليها مسلمة
الى أن ولى مصر عبد العزيز بن مروان ، من قبل
أخيه الخليفة عبد الملك ، فهدمه عام ٧٩ للهجرة
(٦٩٨ م) لتجديده وتوسيعه من الجهة الغربية ،
وأنشأ فيه رحبة . ولكنه لم يجد في جهته الشرقية
مكانا يكفى لتوسيعه لضيق الطريق .

وبعد عشرة أعوام ، أى في عام ٨٩ هـ (٧٠٧ —
٧٠٨ م) ، أمر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ،
الوالى عبد العزيز بتعليق سقف المسجد ، وكان
منخفضا جدا .

ويقول الكندى : « ان عبد العزيز زاد فيه من
جوانبه كلها ، ثم سقف بعد ذلك » .

كتابه «معجم البلدان» ، عن أعمال قرّة بن شريك في جامع عمرو ، قال : « ثم لما ولي مصر قرّة بن شريك في سنة ٩٣ هـ (٧١١ - ٧١٢ م) ، هدمه بأمر الوليد بن عبد الملك ، فزاد فيه ، ونمقه وحسنه على عادة الوليد بن عبد الملك في بناء الجوامع » .

الزيادة الرابعة

في عام ١٣٣ للهجرة (٧٥٠ - ٧٥١ م) ، جاء صالح بن علي بن عبد الله واليا على مصر من قبل الدولة العباسية ، فأسس «العسكر» وجامعها ، ودار امارة ثالية بدلا من دار الامارة الأموية التي كانت بالقسطاط .

ثم نظر في زيادة مسجد عمرو ، فوسعه من الجهة البحرية ، وأدخل فيه دار الزبير بن العوام . وبهذا أزال النتوء الذي نتج عن ادخال دارى عمرو وابنه عبد الله في المسجد . وأنشأ لذلك بابا خامسا في الجهة الشرقية - سمي فيما بعد «باب الكحل» لمقابلته لزقاق الكحل - وأضاف أربع دعائم خلف المسجد بجانب الباب الأول حيث يوجد لوح أحمر .

وفي عام ١٧٥ هـ (٧٩١ م) زاد في المسجد موسى ابن عيسى الهاشمي ، الوالى على مصر من قبل هرون الرشيد ، من الناحية البحرية ، فأدخل فيه نصف رحبة أبى أيوب .

ولما انتقص الطريق ، بسبب امتداد المسجد ، وسع موسى بن عيسى الهاشمي الطريق بجزء من دار الربيع بن سليمان .

الزيادة الخامسة

في عام ٢١٢ للهجرة (٨٢٧ م) ولي مصر عبد الله ابن طاهر ، من قبل الخليفة المأمون . وفي جمادى

وفي رواية أخرى : ان زكريا ، الوالى على النبوة ، أهدى هذا المنبر الى عبد الله بن سعد خليفة عمرو ، اذ أرسل اليه نجارا اسمه بقطر ، فركب هذا المنبر .

ومهما يكن من الأمر فان هذا المنبر كان باقيا في المسجد الى وقت قيام قرّة بن شريك بما أحدثه من الزيادات ، فأنشأ معها منبرا آخر .

وأعقب ذلك أن أصدر عبد الملك بن موسى بن نصير الوالى من قبل مروان بن محمد ، عام ١٣٢ للهجرة (٧٤٩ - ٧٥٠ م) ، أمره باقامة المنابر في كافة المساجد الى جانب القبلة بدلا من الخطابة على العصى ، وبعدها بقليل كان يقال ان الناس لا يعرفون منبرا أقدم من منبر جامع عمرو - أى منبر قرّة بن شريك - وأن هذا المنبر كان يلى في الأقدمية منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبقى هذا المنبر على هذه الحال الى زمن العزيز بالله ، ففك تركيبه في عام ٣٩٦ للهجرة ، وأرسله الى الاسكندرية ، واستعاض عنه بمنبر مذهب .

وفي عام ٩٧ للهجرة (٧١٥ - ٧١٦ م) بنى بيت المال . ويقول ابن دقماق : ان الذى بنى هذا البيت هو قرّة بن شريك ... كما ذكر أيضا أن الذى بناه هو أسامة بن زيد المتوفى عام ٩٩ للهجرة (٧١٧ - ٧١٨ م) ، وهو متولى الخراج بمصر من قبل سليمان بن عبد الملك الأموى .

وانتهى بعمارة ابن شريك توسيع المسجد نحو الجهتين القبليّة والشرقية ، فلم نسمع بعد ذلك عن عمل عمارى آخر تم أو أنشئ في الجامع في عهد الدولة الأموية .

أما علة تجويف المحراب ، وتذهيب الأعمدة وترخيمها ، وما جد من محدثات في المسجد ، فيمكن أن تستنتج مما ذكره ياقوت الحموى ، في

زيادات اخرى

روى الكندى فى كتاب الموالى : أن القاضى أباعمر بن الحارث بنى فى عام ٢٢٧ للهجرة رجة ، ونقل سلم المئذنة الى جهة الغرب من المسجد ، وفرش بالبلاط الجزء الذى وسعه ابن طاهر ، ورسم السقف ، وأنشأ « سقاية » فى المكان المعروف بالحذائين . أما رجة الحارث فقد بنيت لصق « دار الضرب » ، على مقربة من رجة أبى أيوب .

وفى عام ٢٥٨ للهجرة - وكان أحمد بن طولون واليا على مصر - أنشأ أبو أيوب الرجة المسماة باسمه بعد حريق اشتعل فى مؤخرة المسجد ، وأنشأ معها المحراب المعروف باسمه أيضا ، وهو الذى كان موجودا غربى هذه الرجة بجوار الشباك المسمى « الحذائين » . وقد توفى أبو أيوب ، رحمه الله ، عام ٢٦٦ للهجرة فى سجون ابن طولون .

حريق المسجد

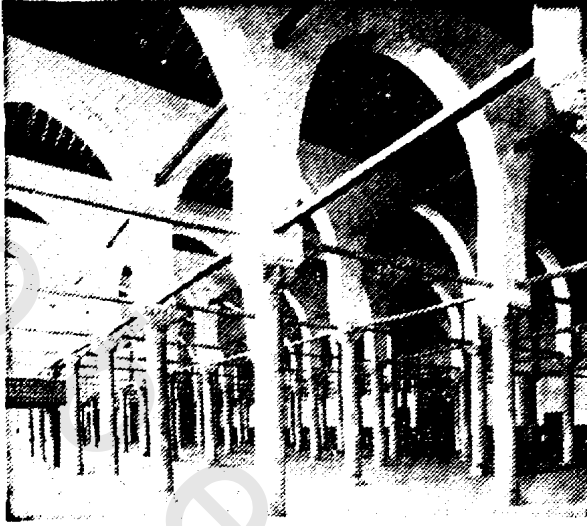
فى عام ٢٧٥ للهجرة (٨٨٨ م) وفى يوم جمعة اشتعلت نيران شديدة فى المسجد ، وقد بدأ اشتعالها فى أحد الأبواب ، وامتد اللهب الى رجة الحارث ، ونشأ عن هذا الحريق تلف معظم الاضافات التى أنشأها ابن طاهر ، والرواق الذى كان فيه « اللوح الأخضر » ، فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بتجديد بناء هذا الجزء من المسجد بإشراف أحمد بن محمد . ويقول المقرئى : أن هذا التجديد حصل مع مراعاة المشابهة التامة لما كان يوجد من قبل . وبلغت تكاليف ذلك ٦٤٠٠ دينار ، أى نحو ٣٨٤٠ جنيها . وقد نقش اسم خمارويه فى لوح أخضر ، وعلق فى الرواق . وما يستحق الإشارة أن أحد الولاة أمر ، فى

الآخرة من العام ذاته ، أمر بتوسيع المسجد ، فأضيف الى مساحته من الجهة الغربية مثلها ، فاستوعب ذلك النصف الغربى من رجة أبى أيوب . وفى أواخر رجب من العام المذكور عاد ابن طاهر الى بغداد ، وعهد الى عيسى بن يزيد الجلودى اتمام زيادته .

يقول مدير ادارة حفظ الآثار : « يمكن تصور زيادة ابن طاهر برسم خط مار بمرکز دوران المحراب الكبير الحالى ، وبمنتصف فتحة الباب الأوسط المقابل له بالواجهة البحرية ، فهذا الخط يقسم الجامع الى قسمين : الشرقى منها يعادل بالتقريب مسطح الجامع الى عهد موسى بن عيسى ، والغربى هو زيادة ابن طاهر التى كانت حاتمة الزيادات بحيث لرجح أن مساحة أرض المسجد لم تتغير من وقتها الى الآن » .

وكانت مساحة المسجد فى ذلك العهد ١٦٠ ذراعا معياريا فى ١٥٠ ذراعا ، أى مثل مساحة جامع ابن طولون ، باستثناء الرواق الذى يحوطه من ثلاث نواح . وقد علق عبد الله بن طاهر لوحا أخضر حرق حينما اشتعل الحريق فى المسجد ، فعلق أحمد ابن محمد لوحا آخر مثله فى الرجة بالجهة البحرية . وزيادة ابن الطاهر أهم الأعمال التى أجريت بالمسجد من الناحيتين الأثرية والمعمارية ... وأهميتها تتجلى فى زيادة مساحة المسجد الى الضعف ، وهدم الجدار الفاصل بينه وبين الجزء القديم ، وزيادة عدد الأعمدة ، ووصل العقود . وقد يتسع العمل أكثر من هذا لو كان للجامع القديم صحن ... لأن الحالة الجديدة تستدعى تخطيط صحن جديد ، وتعديل تخطيط الأروقة المحيطة بالصحن وبنائها .

ومعظم زيادة ابن طاهر قد احترقت ، ويصعب القول بوجود أبنية باقية من ذلك العهد .



الايوان الغربى لجامع مبرو

وخلع كثيرا من فسيفساء الجدران ، وبيض موضعها ، ونقشت خمسة ألواح وذهبت ، ثم نصبت على أبوابه الخمسة الشرقيه وعليها اسم « برجوان » ، فلما قتل خلعت هذه الألواح .

وفي عام ٤٠٣ للهجرة (مارس عام ١٠١٣ م) أرسل الخليفة الحاكم بأمر الله الى المسجد ١٣٠٠ نسخة من المصحف الشريف كاملا ، ومن بعض أجزائه — بعضها كان مكتوبا بحروف ذهبية — لينتفع المسلمون بالمطالعة والقراءة فيها ، وأنشأ للمسجد « شمعدانا » كبيرا صرف عليه ما يقرب من مائة ألف دينار فضة ... ولعظم حجم هذا « الشمعدان » استدعى الحال توسيع أحد الأبواب للتمكن من توصيله لداخل المسجد .

وفي شعبان عام ٤٠٦ للهجرة (يناير عام ١٠١٦ للميلاد) أصدر الحاكم أمره بإنشاء رواقين في صحن المسجد ، وأزال الأعمدة الخشبية التي وضعها أبو أيوب في عام ٢٥٧ هـ (٨٧٠ — ٨٧١ م) .

وفي عام ٤٣٨ للهجرة (١٠٤٦ م) ، أمر الخليفة المستنصر بعمل منطقة من فضاء في صدر المحراب الكبير ، وجعل لعمود المحراب أطواقا من الفضة .

عام ٢٩٤ للهجرة ، باغلاق المسجد بين أوقات الصلاة ، فاعترض الناس على هذا الامر ، فعادت الحال الى ما كانت عليه .

تحسينات مختلفة

أدخل على المسجد بعد الحريق اصلاحات كثيرة . وفي عام ٣٣٦ للهجرة (٩٤٧ — ٩٤٨ م) أنشأ أبو حفص عمر ، القاضي العباسي ، غرفة للمؤذنين فوق السطح . وكان اماما لمصر والحرمين الشريفين ، فعهد اليه بمأمورية الحجاج ، وتوفاه الله بعد عودته من هذه المأمورية .

وفي عام ٣٥٧ هـ جاء أبو بكر محمد بن عبد الله ، فأضاف في دار العرب ، رواقا مساحته تسعة أذرع ، وبه نافذتان تطلان على رجة الحارث . ومات أبو بكر قبل تمام العمل ، فتولاه ابنه على ابن محمد ، وانتهى منه في الأيام العشرة الأواخر من شهر رمضان المعظم عام ٣٥٨ للهجرة .

ثم أنشأ أبو الفرج يعقوب بن يوسف تحت بيت المال في المسجد « فوارة » يدور حولها سقف من خشب . وتمت هذه الأعمال بأشراف معروف الأطرى أمين مسجد القدس الشريف .

وفي عام ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) غطيت هذه « الفوارة » ببلاط الرخام .

وفي عام ٣٨٧ للهجرة (٩٩٧ م) أعيد طلاء المسجد بالجص ، وجود نقشه ، وشرع في تنظيفه تنظيفا تاما . وقد علق بأعلى أبواب الواجهة الشرقية خمسة ألواح مزخرفة ومذهبة ، منقوشا عليها اسم من قام بهذه الأعمال ، الا أن الألواح رفعت بعد وفاته .

ويقال : « ان الحاكم بأمر الله أمر وزيره « برجوان » — صاحب الحارة المعروفة باسمه بحي الجمالية — باصلاح الجامع ، فجدد بياضه ،

يترك به أحد ، ثم تغلق أبواب الجامع وهذا لحال بيت المال .

وفي عام ٤٤٤ للهجرة أضيف مجلس بين باب الدرب وممر المستحم ، وزخرف هذا المكان ، ووضع فيه محراب ذو بلاط من الرخام أصله من المحراب الكبير .

ونقل القضاء : أنه في عام ٤٥٠ للهجرة (١٠٥٨ م) بنيت المنارة الموجودة بين منارة عرفة والمنارة الكبرى .

الحريق الثاني

وفي عام ٥٦٤ للهجرة (١١٦٨-١١٦٩ م) أغار « أموري » - ملك أورشليم (بيت المقدس) - على مصر ، وعسكر جنوب القسطنطينية ، وصدرت أوامر « شاور » - وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين - بإشعال النار في المدينة اجتنابا لها من الوقوع في أيدي الفريجة ، فأحرق المسجد ، ويظن أنه لم يبق منه سوى الحيطان وبعض العقود ... فلقد استمرت النار مشتعلة ما يقرب من أربعة وخمسين يوما .

تجديد بناء المسجد

في عام ٥٦٨ للهجرة (١١٧٢ - ١١٧٣ م) - بعد وفاة العاضد - جدد صلاح الدين الجامع بأكمله ، وجدد واجهة القبلة كلها هي والمحراب الكبير ، ورخمه ونقش عليه اسمه ، ثم أحدث بعض التعديلات الجزئية ، فأعاد نقش المسجد ، وزخرفة الأعمدة ، وأكمل تبييطه تحت الحصر بالرخام ، وعمر « المنطرة » التي تحت المئذنة الكبيرة .

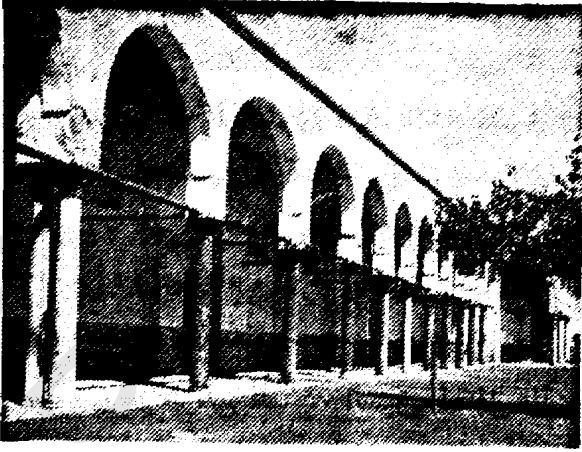
وليس لدينا ما نستدل به على أعمال تمت في السنين التالية : لا عن التوسيع ، ولا عن الزخرفة ،

وفي رمضان من هذه السنة أمر بأن يظهر المؤذنون خارج المقصورة ، وكانوا قبلا يؤذنون داخلها ، ثم نقش بالفضة المحراب الكبير ، وكتب عليه اسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وزخرف أعمدة هذا المحراب بأطواق من فضة .

وفي عام ٤٤١ للهجرة (١٠٤٩ م) جدد بناء حائط القبلة من المنبر الى زيادة « الحازن » بأشراف القاضي أبي عبد الله ، كما أمر الخليفة بتذهيب بقية الجدار القبلي . وبعد ذلك بعام صنعت مقصورة للامام من خشب ، ومحراب من ساج بعمودين من الصندل

وفي عام ٤٤٢ للهجرة (١٠٥٠ م) أصلح القاضي أبو عبد الله أحمد بن محمد بن زكريا غرفة المؤذنين الموجودة على السطح وزخرفها ، وأنشأ للنزول ممرا الى بيت المال ، وللصعود الى السطح أنشأ سلما من الخزانة المستجدة خلف المحراب الكبير ... يقول مدير لجنة حفظ الآثار : « والراجح أن بابها هو الذي اكتشفناه أخيرا على يمين المحراب الأوسط ، وهذا مما يجعل بيت المال قريبا من هذا المحراب » .

يؤيد ذلك ما كتبه ابن رسته تحت عنوان « صفة مصر » حيث قال : « وإن بيت مال مصر في المسجد الجامع قدام المنبر ، وهو منفصل من سطوح المسجد ، ولا يتصل بشيء منها ، وهذا مرفوع بأساطين من حجارة ، وهو « بيت المال » شبه قبة مرتفعة ، يجلس الناس تحت البيت ويمرون تحته . وهناك قنطرة من خشب : إذا أرادوا دخول هذا البيت جروا تلك القنطرة بالجمال حتى يستقر طرفها على سطح المسجد ، وإذا خرجوا ردوا القنطرة وعليها باب حديد باققال ، وإذا صلوا العشاء الآخرة أخرج الناس كلهم من المسجد ولم



الايوان الشرقى لجامع عمرو

مظهر فيه بعض من الفخامة يؤثر في نفس الناظر اليه ، وهذا التأثير لم يكن يحصل قط لمن يرى جامع اشبيلية ، مع ما فيه من الزخرفة الفخمة ، وحديقته القائمة في وسطه . وقد حدث في نفسى شعور هدوء وعزاء دون أن يخيل الى وجود شيء يوصل الى مثل هذا الشعور ...

« ولقد علمت أن هذا التأثير الباطن سببه أن أحد الصحابة رضى الله عنهم أشرف على بناءه . والذي انشرح له صدرى ، وصر منه خاطرى ، هو وجود جماعات من الطلبة جالسين حلقات حول اثنين من علماء القراءة والتفسير والتوحيد ، فسألت عن مصدر معيشتهم ، فعرفت أنهم يعيشون مما يحملون من الأعشار الشرعية ، وعلمت أيضا أنهم يتكبدون صعوبات في تحصيل هذه الأعشار وبعد ذلك زائلت المسجد ورجعت الى ضفة النيل . »

هذه القصة تدل دلالة واضحة على حالة الإهمال التي كان عليها المسجد في أواخر عهد دولة صلاح الدين . على أن هذا قد تجاوز الحد في النقد ، وغالى في تحقير المسجد ، شأنه في الكلام على القاهرة ، مما جعل المقرئ يحمل عليه ، ويصفه بالمعالة .

ولا عن الحفظ والصيانة . وكل ما وقفنا عليه وصف زيارة على بن موسى بن سعيد المغربي ، أحد الساتحين ، في عام ٦٤٥ للهجرة . وقد توفي بدمشق عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) ، وكانت زيارته على الترجيح في أيام حكم الصالح نجم الدين أيوب . وهذا الوصف ورد بالمقرئ عند الكلام على مدينة القسطنطينية يصف المسجد العمري . يقول ابن سعيد المغربي :

« تابعت السير في طريقي في أسواق ضيقة بحيث تكدرت من الأوساخ ، ومن تراحم ما لديهم من البضائع والابل المثقلة بالأحمال ، التي لا يدرك شدتها الا الذين كابدوها قبلى ، ووصلت في نهاية الأمر الى الجامع ، فرأيت من ضيق الطريق المحيطة به ما لم أره في جامع مراکش ، فدخلته فإذا هو مسجد بناؤه قديم ، ليس به شيء من الزخارف والزينة ، ولا تزويق في الحصر المعلقة في دوائر الحيطان والمفروشة في أرضه ...

« ووجدت المسلمين من كافة الطبقات يتخذون منه طريقا في الذهاب والاياب من باب الى باب ، اجتنابا للفتن في طرق ملتوية ، والباعة تبيع فيه كل أنواع البندق والفواكه والفطير ، فيستنفدها المسلمون أكلا هناك دون مراعاة حرمة المسجد كما كانت تقضى به العادة في ذلك الوقت ...

« وكان هناك بضعة أطفال في غدو ورواح يسقون الآكلين ، ويعيشون من فضل ما يعطونهم من الصدقات ، وكانت فضلات هذه المأكلة في صحن الجامع وجميع أركانه ، وكان سطح المسجد وزواياه مغطاة بنسيج العنكبوت ، والصبية يلعبون ويمرحون في الأبنية ، وغطيت الحيطان بأنواع الكتابات المختلفة بأقلام الفحم والبوية الحمراء ...

« وبالرغم من ذلك ، فقد كان بناء المسجد ذا

وعلى كل فإن عمارة صلاح الدين كانت آثارها باقية الى حوالى منتصف القرن الثامن للهجرة ... فقد ورد في رحلة « البلوى » في « تاج الفرق في تحلية علماء المشرق » لخالد بن عيسى بن أحمد المغربي ، التي بداها عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ - ١٣٣٦ م) ، وأتمها عام ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ - ١٣٤٠ م) أنه زار مصر ، ووصف مسجد عمرو بقوله :

« كنت أتردد الى المسجد العتيق الحافل الذي بناه عمرو بن العاص رضى الله عنه ، واليه ينسب اليوم ، فأرى جامعا منيرا ، ومسجدا كبيرا له صحن فسيح ، وأسوار حافلة ، ومقاصير من العود عجيبة ، وتواريخ مكتوبة بالخط الحافل المذهب كثيرة ... فمنها ما كان مكتوبا على المحراب ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . النصر والفتح المبين لسيدنا ومولانا الامام المستضى بنور الله : أبى محمد الحسن أمير المؤمنين . أمر بتجديده الملك الزاهر الناصر المجاهد ، صلاح الدنيا والدين ، أبو المظفر يوسف ، وفقه الله تعالى لطاعته . »

وكانت عمارة صلاح الدين في عام ٥٦٨ للهجرة ، وهى الأولى والأخيرة في عهد الدولة الايوبية التي خلفتها دولة المماليك البحرية .

وفي عام ٦٤٨ للهجرة قام السلطان عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك ، بترميمات في حيطان المسجد ، ودهنها من جديد ، وأصلح الأعمدة ، ورمم الأرض بالرخام مع الزيادة عليها ... حتى انه لم يترك جزءا من تلك الأرض بغير ترميم ولا حصير .

وفي عهد بيبرس ، عام ٦٦٦ للهجرة (١٢٦٨ م) ، رُمي أن الحائط البحرى غير متماسك ، ومهدد بالسقوط ، ففحصه القاضى الأكبر تاج الدين عبد الوهاب بنفسه ، واستشار مهندس المعماري ،

وأوقف المياه التي كانت تجرى من « الفوارة » بسبب ما أصابها من تلف ، وأنشأ سفادات للحائط البحرى ، وأزال في الوقت ذاته معظم العرف المتراكمة فوق السطح .

وهذه الاصلاحات صرف عليها من ريع المسجد ، ومع هذا فقد لوحظ بعد ذلك بقليل أن البناء كان بصفة عامة قليل المتانة ، فأصدر السلطان نداء استندى به أكف الجمهور ، فكانت النتيجة اصلاح الحائط البحرى اصلاحا تاما ، مع ثقل بعض الأعمدة واستبدالها ، وتجديد العقود التي كانت مقامة عليه ، واتهمزت هذه الفرصة لجلاء الأعمدة ، وغطيت كافة الحيطان بغطاء جديد من المصيص ، وسدت نافذتا الحائط البحرى بقصد تقويته .

وبعد ذلك بنحو عشرين عاما ، في عهد السلطان قلاوون عام ٦٨٧ للهجرة (١٢٨٨ للميلاد) ، قام عز الدين الاقصرم ببعض الترميمات . وتدل حالة الاهمال التي كان عليها الجامع على أنه اضطر لنقل الردم الذي كان متراكما بسبب الزيادات ، ثم جدد الدهان ، وجلا الأعمدة الى نصف ارتفاعها ، وأوصل الماء الى « ميساة » المسجد من بئر كانت موجودة في « زقاق الأتقال » .

وفي زمن علاء الدين بن مروان سقفت الزيادات البحرية والشرقية التي كانت من قبل مستودعا للحصر ، وأقيم حاجز « دربين » بين البابين لمنع المارة من الدخول في الملحقات ، بين باب المسجد وباب الزيادات الموصل الى سوق النحاسين ، ورصف هذا الجزء من الزيادات بالبلاط ، وفك رخام الصحن ، وبلط الحارات في دائرة المسجد .

وفي عام ٦٩٦ للهجرة ابتاع صاحب تاج الدين دارا بجوار المسجد وهدمها ، وأنشأ مكانها سقاية كبيرة ، وكانت تصل الى مستوى أرض المسجد ،

دائما على هذا الرجل الذى وفقه الله لتعمير مسجده .

وفى عصر السلطان قايتباى عام ٨٧٦ للهجرة (١٤٧١ م) ، أجريت بعض الاصلاحات فى الحيطان والأسقف ، وبنيت من ماله الخاص .

وبعد هذه العمارة لم يرد ذكر لاصلاحات أخرى بالمسجد الى أن دالت دولة المماليك الشراكسة ، ودخلت مصر فى حيازة العثمانيين الذين لم يرد لهم ذكر فى تاريخ اصلاحات المسجد الى عام ١٢١١ للهجرة (١٧٩٦ م) ، وكان قد تخرب بخراب ما حوله من الأبنية بالفسطاط ، وهجره المصلون لبعده عن العمران .

يقول الجبرتي : « ان الجامع قد مضى عليه الزمن الطويل وهو فى حالة تخريب تام ، وكان الجامع من وقت حريق الفسطاط محاطا بقمامات من كل نوع ، والمنازل القليلة التى لا تزال موجودة قائمة على ضفتى النيل فى الجهة البحرية قرب التربة . وكان الأهالى يصلون بمساجد أخرى صغيرة بالقرب من الجامع ، ولم يكونوا يترددون قط على الجامع العتيق » .

ثم قال : « وقد وقع لى أن شأهت الوقت الذى كان المسلمون يختفون الى الجامع لأداء جمعة رمضان ، وكان الشعب يجتمع وقتئذ قاءما من القاهرة ومصر وبولاى للتسلى والرياضة ، وكان يقصد اليه أيضا الحكام ، وفى وجودهم يقوم كثير من المشعوذين ، واللاعبين بالقروء والراقصات ، فيجتمع هؤلاء كلهم فى صحن الجامع » .

وهذه الأحوال انقطعت بعد ذلك بزمن ، لما كان عليه الجامع ، وما يحيط به من حالة التخريب والاضمحلال ... فان السطح والأعمدة قد تساقطت ، وتبعها فى السقوط جزء من الحائط الشرقى .

ولها مر عليها الى السطح ، ثم هدم بعد ذلك الحجرة التى كانت بأسفل منارة المنطرة .

حدث الزلزال

فى عام ٧٠٢ للهجرة (١٣٠٢ - ١٣٠٣ م) حدث زلزال ألحق ببناء المسجد ضررا بالغا ، فعهد الأمير « سار » ، فى زمن السلطان الناصر « محمد بن قلاوون » ، بتجديد بنائه الى بدر الدين بن خطاب ، فقام بهدم الحائط البحرى من أول السلم الصاعد الى السطح حتى باب الزيادة البحرية الشرقية ، وأعاد بناء ما هدم كأصله ، وأنشأ بابين جديدين فى الزيادات البحرية الغربية ، وأقام أمام الأعمدة المربعة صفا آخر من الأعمدة بقصد تقوية البناء ، ثم أعاد دهان المسجد ، وسقف الزيادات البحرية الشرقية محافظة على الحصر ، ووضع حاجزا « درابزينا » بين باب المسجد وباب الزيادات تنظيما لمرور الناس ، وأضاف سقفا فى الزيادات الغربية ليقيم عليه رواقين ، وفرش أرضه ببلاط من الرخام . وهدم عدة مساجد شرقى الفسطاط للانتفاع بأعبدتها ، ورفع معظم البلاط من أرضية المسجد المغطاة بالحصر ، وركبه قرب باب الشرايين .

وبعد ذلك بقليل تقوضت الزيادات البحرية والشرقية ، وآل المسجد الى السقوط ، وتزعزعت أقواس العقود ، وتهيأت للسقوط ... فمنذ وفاة السلطان الظاهر برقوق ، لم يفكر أحد من السلاطين فى تعمير المسجد .

وفى عام ٨٠٤ للهجرة (١٤٠١ - ١٤٠٢ م) طلب برهان الدين ابراهيم بن عمر بن على التاجر ، أن يعمر الجامع ، فهدم الجزء القبلى بين المحراب الكبير والصحن كله طولا وعرضا ، ورفع اللوح الأخضر ، ثم أعاد البناء سيرته الأولى مع بلاط الرخام ، وجدد جلاء الأعمدة ، وجدد السقوف التى كانت ساقطة ، فصار الجامع بأكمله مجددا ... فكان الناس يشنون

وفي عام ١٢١٢ للهجرة (١٧٩٨ م) هدمه الأمير مراد بك محمد لسقوط سقفه وأعمدته ، وميل إيوانه الغربى وسقوط بعضه . ثم أقام الأعمدة من جديد ، وحسن الزخارف ، وبنى منارتين ، ورخم السطوح ، وقواها بأخشاب متينة ، ثم أعاد النقوش وفرش الأرضية بالحصى ، وعلق قناديل الزيت بالسقوف ... وتم ذلك جميعه لاقامة صلاة الجمعة اليتيمة في شهر رمضان سنة ١٢١٣ للهجرة .

وفي هذه السنة نفسها خرب الجامع ، ونهب ما فيه ، وأخذ جميع ما كان يحتويه من تحف وزخرف وغير ذلك حتى صار أسوأ مما كان فيه قبل العمارة .

ظل المسجد على هذه الحال الى أن تولى محمد على ، فقام ببعض الإصلاحات ، وأعاد صلاة الجمعة فيه ، ووقف عليه من الأعيان ما يكفى للصرف عليه . واستمر ولاية مصر يصلون فيه الجمعة الأخيرة من رمضان ، وإن لم يقوموا بإصلاحات تذكر ، اذ بقى المسجد كما تركه مراد بك يعد تخريب الفرنسيين له .

اضمحل المسجد ، وسقط إيوانه الشرقى والغربى عام ١٣٠٠ للهجرة (١٨٨٢ - ١٨٨٣ م) ، وما زال على حالهما الى الآن .

وفي عام ١٣١٧ للهجرة (١٨٩٩ م) ، أجرى به ديوان الأوقاف عمارة جدد بها سقف الايوان القبلى ، وبعض الايوان البحرى ، وأقيمت جدرانها ، وفرشت أرضه بالبلاط .

لجنة حفظ الآثار العربية

في آخر عام ١٣٢٣ للهجرة (١٩٠٦ م) كوت لجنة مهمتها حفظ الآثار العربية ، وعينت بمساجد القاهرة الأثرية ، وفي مقدمتها مسجد عمرو العتيق ، وعهدت الى قسمها الفنى بفحصه فحصى دقيقا ،

وتقديم تقرير شامل بما يلزمه من اصلاحات ، ومقدار تكاليفها .

قام هذا القسم بعمله في ٢ من المحرم عام ١٣٢٤ للهجرة (٢٣ من فبراير عام ١٩٠٦ للميلاد) ، ورأى قبل كل شئ وجوب البحث في أرض المسجد عن آثار الأسس التى زالت جدرانها ، لكى يتمكن بواسطتها من وضع خطة تفصيلية للأعمال التى يستقر رأى على اجرائها به ... على أن تشمل هذه الخطة اعادة الايوانين القديمين الى ما كانا عليه ، واصلاح الايوانين الموجودين ، وتعيين صحن الجامع .

ولما تمت عملية الكشف في صفر عام ١٣٣٤ للهجرة (مارس عام ١٩٠٦ للميلاد) عرض القسم نتيجة البحث ، وبين أن الحفر كان في عدة مواضع من المسجد كشف فيها عن جدران من عصور مختلفة . واستصوبت اللجنة الاستمرار في أعمال الحفر ، حتى تنكشف جميع الحيطان المماثلة للتي كشفت ، وبعد كشفها يمكن الحكم على أهميتها . ووافق القسم على اقتراح اللجنة وطلب أن يكون الحفر شيئا فشيئا حتى لا يزدحم المسجد بالأتربة ، فتحول دون اقامة الشعائر الدينية .

وفي ربيع الأول عام ١٣٢٥ للهجرة (ابريل عام ١٩٠٧ م) زار القسم الفنى من اللجنة المسجد مرة ثانية . ورأت اللجنة كشف جوانب المسجد لأن أرضه منخفضة عن أرض الشارع ، وطلبت توجيه نظر « ديوان الأوقاف » الى ازالة بعض المنازل المجاورة له .

ولما كان صلاح المسجد يتطلب نفقات طائلة ، والريع لا يكفى ، وجهت دعوة لحث المسلمين الراغبين في احياء التراث الاسلامى على المساهمة بالتبرع لمشروع تجديد « مسجد عمرو » . أعلنت الدعوة في آخر جمعة من شهر رمضان



منظر عام لصحن جامع عمرو

وقيل بمصر ودفن في داره . وهذه الرواية موافقة للوضع الحالى .

وفى « أسد الغابة » يشك ابن الأثير فى موته وفى تاريخه ، فلا يجزم برأى . أما « النجوم الزاهرة » فانها توافق من يقول بموته فى البيت ، ثم أدخل فى المسجد ، وهذا هو الراجح من الأقوال .

وأمام القبلة أحد أعمدة « البواكى » وقد سور بسور حديدى ليمنع الناس من تقيله والدوران حوله وملأه ، ويفسر ذلك تفسيرات شتى ، وأصحها أن هذا « العمود » أتى به من المدينة ، فأخذ الناس يتبركون به بوسائل مختلفة ، فأرادت وزارة الأوقاف أن تقضى على هذا الاعتقاد .

والمسجد مظلم بالليل ، ولم ينور سوى المصلى القائم بالجزء الشمالى الغربى ليصلى فيه الناس الصلوات الخمس . وقد اجتمع أهل حى المسجد ، وجمعوا من تلقاء أنفسهم مبلغا من المال ، وأوصلوا الكهرباء الى أركان المسجد كلها ، فأضىء وفرح أهل الحى بذلك ، ولكنه لم يدم طويلا ، فلقد أمرت وزارة الأوقاف بتقطيع الأسلاك خوفا على المسجد الأثرى من الحريق ... وتم ذلك كله فى عام ١٣٧٨ للهجرة (١٩٥٨ م) .

عام ١٣٣٩ للهجرة (أغسطس عام ١٩١١ م) ، ووضع مهندس الأوقاف فى ذلك الحين مشروع التجديد . وكان المشروع للأسف جبرا على ورق فوقف عند هذا الحد .

وفى عام ١٩٢٦ للميلاد أعلنت مسابقة عامة لوضع تصميم للمسجد يطابق ما كان عليه أيام مجده وفخامته ، فقدم المتسابقون سبعة مشروعات فصل فيها فى عام ١٩٢٧ م ، واعتمدت اللجنة أحدها .

وفى عام ١٩٣٠ تفذت لجنة حفظ الآثار العربية بعض مشروعاتها ، فأصلحت الأيوان الكبير اصلاحا شاملا ، وقوت جدران الأجزاء الأخرى من المسجد . ولكن ذلك لم يصف لما أقامه مراد بك محمد شيئا ، ثم لم يعد للجنة حفظ الآثار صوت ، فلم تعمل شيئا .

والمسجد فى جملة بحسب ما يراه الانسان فى هذه الأيام ، كأنه شيخ هرم تبدو عليه مسحة من الجلال والعظمة ، فأثر ترميم مراد بك لا يزال موجودا تشهد به اللوحة التاريخية الموضوعة بجوار القبلة الكبيرة ، فلقد أرخ لاصلاح المسجد وترميمه بأبيات شعر فى عام ١٢١١ للهجرة .

وبالجهة القبلىة الشرقية المقبرة التى دفن فيها « عبد الله بن عمرو بن العاص » ... فحين سار مروان بن الحكم الى مصر ، وحارب المصريين ، كان عبد الله من قتلى هذه المعركة ، فدفن فى داره . ولما وسع المسجد قرة بن شريك أدخل به ذلك الجزء من الدار الذى دفن فيه عبد الله ، فصار من ذلك الحين ضريحا له .

وموت عبد الله ، ودفنه فى داره ، وردت فيهما روايات كثيرة وأقوال مختلفة ... فالواقدي يروى أن عبد الله بن عمرو مات بالشام عام ٦٥ للهجرة ، والبرقى يرى أن موته كان بمكة ، وقيل بالطائف ،

وما كتبه المقرئى وابن دقماق يفيد أيضا انه كان للمسجد ١٣ بابا : خمسة منها فى الجهة الشرقية ، وواحد بالجهة القبلىة مخصص للخطيب ، وأربعة بالواجهة الغربية ، وثلاثة بالواجهة البحرية . وقد سدت كلها ، ما عدا الثلاثة الموجودة الآن بالجهة البحرية ، وبابا חדشا رابعا فتح بالجدار المذكور ليصل المسجد بدورة المياه الحديثة التى أنشأها ديوان الأوقاف عام ١٨٩٩ للميلاد فى غير الموضع القديم الذى كان خارج المسجد من الجهة الغربية القبلىة . وكانت الأبواب من خشب الأرز منقوشة مذهبة ومزخرفة بالألوان .

وكان للمسجد ثلاثة محاريب فى جداره القبلى ، هى : المحراب الكبير المجاور للمنبر ، والمحراب الأوسط ، ومحراب الصلوات الخمس . وكان فى صدرها منطقة من الفضة مكتوب فيها اسم النبى صلى الله عليه وسلم ، وحول الأعمدة أطواق من الفضة . وكان الجزء السفلى من المحراب مزينا بالرخام المختلف الألوان .

وهناك محراب رابع فى الايوان القبلى من الجهة الشرقية ، يزعم البعض أنه للسيدة فاطمة الزهراء ، وآخرون يظنونه محراب معبد للسيدة نفيسة . ولا أساس لذلك ... لأن السيدة فاطمة الزهراء دفنت بالمدينة ، والسيدة نفيسة ضريحها بالقاهرة معروف . ويقال « ربما كان لفاطمة ابنة عفان » . وأقدم المئذنتين الموجودتين مئذنة الواجهة البحرية ، لأن مئذنة الزاوية القبلىة الغربية جددتها مراد بك محمد . وقد بنيت هاتان المئذنتان فى أثناء حكم الاتراك ، ويدل على ذلك نسقهما فهما على التأكيد متأخرتان .

ولقد ذكر القلقشندي وغيره أنه كان للمسجد خمس مآذن : اثنتان منها فوق الجدار القبلى ،

وتقام بالمسجد صلاة الجمعة من كل أسبوع ، ويصلى به آلاف المسلمين من جميع جهات القاهرة . وقد اشترك الأهالى أيضا فى شراء آلة لتكبير الصوت تستعمل كل جمعة ليصل الأذان والخطبة الى أجزاء المسجد جميعها

ومسجدنا الكبير تحوطه الآن من الجهة الغربية مقابر المسلمين ، ومن الجهة الشرقية مواقد « الفواخير » لعمل الأوانى الفخارية ، ومن الجهة القبلىة مدابغ بدائية وفواخير أيضا ، أما الجهة البحرية فميدان فسيح كان يستخدم فيما مضى موقعا للسيارات ، ثم أمرت « بلدية القاهرة » بتغيير المكان احتراماً للمسجد العتيق .

العصر الذهبى فى تاريخ المسجد

ان ما كتبه المؤرخون عن هذا المسجد ، والتفصيلات الكثيرة التى دونوها عنه تجلو صورة واضحة لتخطيطه فى أوج عزه ومجده . ولعل ابن دقماق ، المتوفى عام ٩٠٨ هـ (١٤٠٦ م) ، قد ترك لنا معلومات كثيرة عن تخطيط المسجد ، اعتمد فيها على ابن المتوج المتوفى عام ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ - ١٣٣٠ م) .

وتخطيط المسجد فى القرن السابع للهجرة كان كتخطيطه فى أواخر القرن الثامن ... فقد دلت البحوث التى قام بها المؤرخون المحدثون على صدق ما رواه المؤرخون فى القرنين السابقين اللذين وصل المسجد فيهما الى كماله وروعته .

بلغت مساحة سطح المسجد ١٦٠ ذراعا معماريا فى ١٥٠ ذراعا . وهذه المساحة هى التى اهتمدى اليها مدير ادارة حفظ الآثار فى كتابه « جامع عمرو بن العاص » ، فتكون مساحته ٢٤٠٠٠ ذراع معمارى . وهذه المساحة موافقة تقريبا لما كتبه المقرئى ، وابن دقماق ، وأيده المؤرخ « كوريت بك » .

هما « عرفة » و « الكبيرة » ، وثلاث على الواجهة البحرية ، وهى « الجديدة » و « السعيدية » و « المستجدة » . وأولى هذه الثلاث الأخيرة كانت قائمة فوق الطرف الشرقى للواجهة البحرية ، والثالثة فوق طرفها الغربى .

وجدار المسجد القبلى — على ما به من آثار الترميم القريبة العهد نسبيا — هو على التأكيد أحد جدران المسجد القديمة . وقد بناء فى موضعه الحالى « فرة بن شريك » فى عام ٩٣ هـ الهجرة (٧١١ — ٧١٢ للميلاد) ، وطراً عليه منذ ذلك الحين عدة ترميمات ، ولكن أساسه بقى مكانه والجزء القائم بين المحراب الأوسط والجدار الغربى جدد بناؤه فى عام ٤١١ للهجرة (١٠٤٩ م) ، وأزيلت بقيته بمعرفة القاضى ابن عبد الله ، عن أمر الخليفة المستنصر ، وقوى الجدار كله فى عهد الرئيس برهام الدين عام ٨٠٤ للهجرة (١٠٤١ — ١٠٤٢ م) ، اذ هدم الجامع كله فيما بين المحراب والصحن طولاً وعرضاً .

وحائطه الشرقى حديث العهد ، وإن بقى منه — فى الجهة البحرية للكشف البحرى من الركن القبلى — جزء ينبىء عن آثار قديمة جدا . ومن المؤكد أن الجزء البحرى من هذا المكان جدد كله بمعرفة مراد بك عام ١٢١٢ للهجرة .

والحائط البحرى حصل فيه ترميم فى عام ٦٦٦ للهجرة (١٢٦٨ م) ، وأعيد تجديد جزء منه فى عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ — ١٣٠٣ م) ، ونم يتغير مكانه الحالى ، وأقدم جزء فيه يوجد بين الباب القائم تحت المنارة الحالية والمحراب بجوار الباب الأسمى .

أما الحائط الغربى فليس فى النصوص المكتوبة ما يدل على أنه جدد تجديدا تاما بعد التوسيع الأخير للمسجد . ويحتمل أن يكون الجزء البحرى

منه قد أعيد بناؤه فى عام ٦٦٦ هـ أيضا فى عهد تاج الدين . ويعد الجزء الذى يجاور الجزء البحرى مباشرة أقدم جزء فى المسجد . ويفترض المؤرخ « كوريت » أنه كان يوجد فى هذه الناحية أربعة صفوف من الأعمدة ، ولكنه لم يوضح لماذا بنى الحائط فى مكانه الحالى ، وفى أى عصر جدد ذلك ... وعلى هذا لا يمكننا التسليم بنظريته ، والمرجح عكس ذلك .

وأعمدة المسجد كما ذكر ابن دقماق ، ووافقه « كوريت » أنه كان يوجد فى هذه الناحية أربعة بالايوان القبلى ، ومثل هذا العدد بالايوان البحرى ، وبالايوان الشرقى ستة صفوف فى كل صف منها سبعة أعمدة ، فبكون مجموعها اثنين وأربعين ، وبالايوان الغربى مثل ما بالايوان الشرقى .

وكان فى الزيادات التى أضيفت الى جهات المسجد الثلاث عدة مرافق ، ففى الجهة البحرية كانت رحبة كبيرة يتسع منها المدخل الأسمى للجامع . والمحراب على يمين الباب الأسمى يدل على أن هذا المكان كانت تصلى فيه الجماهير التى ضاق بها داخل المسجد .

وكان يوجد فى الزيادات البحرية الشرقية مجلس قاضى القضاة الذى كان يجلس للحكم يومين فى الأسبوع ، ومخازن الحصر وغيرها من الأشياء المستعملة فى الجامع ، ودكاكين لتجار السبح والمصاحف والكتب .

وكان بالقرب منه مدرسة لتحفيظ القرآن الشريف ، ورواق أبى بكر ، وبقية منازل الدرب وكافة المرافق المعتاد الحاقها بالمسجد ، كالأماكن المخصصة للوضوء والخلاوى والميضة .

وحيطان المسجد كانت مبنية بالطوب ، ممونة بالجير ، وكانت مكسوة بالجص من الداخل

بالصحن ثلاثة قناديل توقد بالزيت ، وقنديل من النحاس المحلى بزجاج مختلف ألوانه .

وكان بالرواق المقابل للمحراب — زيادة عن القناديل — مصباح كبير الحجم فى وسط كل منطقة من المناطق المحصورة بين « الطيات » والمربعات الكبيرة .

مسجد هذا مجده ، وهذا عزه ، جدير بأن يعود سيرته الأولى .

أثر المسجد الثقافى

لم تكن مهمة المسجد أداء الصلاة فيه فحسب ، بل كان منتدى يجتمع فيه المسلمون يتدارسون ، ويتناقشون فى أمور دينهم ودنياهم ... وخطبة عمرو السابقة أكبر دليل على ذلك .

كان المسجد مدرسة كبرى ، يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث ، والعلوم اللغوية من نحو وبلاغة وأدب وتاريخ اسلامى وغير ذلك من العلوم المفيدة .

وكان مجلسا للقضاء والحكم بين الناس ، وكانت الزيادة البحرية الشرقية مجلسا لقاضى القضاة يجلس فيها يومين فى الأسبوع ليحكم بين الناس .

وفى عام ٣٨ للهجرة جلس فيه سليمان بن عتر ليعظ الناس بالقصص الدينية ، وكان قد جمع له القصص والقصص ، ثم عزل عن القضاء ومنذ ذلك التاريخ ظل المسجد مركزا ثقافيا ومحكمة للقضاء .

وكان بالمسجد زوايا لتدريس العلم ، وقف الخيرون عليها أموالا كثيرة ، فكثرت المناظرات العلمية ، ومطارحة الشعر . وظهر التنافس بين العلماء والتلاميذ ، وخاصة بين المذاهب الفقهية .

وقد سجل المقرئى بعض حالة المسجد العلمية فقال :

والخارج . والأعمدة كانت من الرخام المصقول ذى الألوان المختلفة ، والأروقة كالحيطان مبنية بالطوب المطلى بالمصيص . وكانت مشدودة فى أولها بأخشاب من خشب الأرز ، داخله فى البناء تمنع عنها دفع العقود .

وكانت الأوتار منقوشة ومزخرفة ، تعلق فيها المصابيح بسلاسل من النحاس . وكانت تيجان الأعمدة وقواعدها من الرخام الأبيض ، والأعمدة الأربعة التى كانت عند قبلة المسجد القديم الذى بناه عمرو ، كانت تيجانها مذهبة .

وكان سقف المسجد من الداخل مؤزرا بالرخام ، وفوق هذه الوزر طبقة من الجص المزخرف كتب فيه بعض السور الشريفة بحروف بارزة مذهبة ، على أرضية زرقاء . وبالجزة العلوى من البوائك والجدران زخرفة تحت السقف ، وبدائر المحراب زخرفة مثلها . وكانت المبادئ والعنايا مزخرفة أيضا ، وسقوف المسجد مكوكة من « براطيم » خشبية مدهونة ومنقوشة ، تتخللها مربعات خشبية ملونة ، وبعض الأجزاء فضية أو مذهبة .

ولوقاية السقف من حرارة الشمس والمطر والتلف ، بلط سطحه بالبلاط . وكان الزوار يطوفون بالسطح سبع مرات ، وهم يتلون الأدعية فى مواضع خاصة منه .

وكانت أرض المسجد مفروشة بترابيع الرخام ، وأرض الصحن مكشوفة ، وبها زخرفة كثيرة بالسيفساء والرخام الملون .

وكان بالميضأة التى تتوسط الصحن أعمدة كأعمدة الجامع ، وأرضيتها مفروشة كلها بالرخام الملون .

وكان المنبر من خشب الصندل المذهب ، وفى كل « بائكة » من « البوائك » التى تحيط

رتبها تاج الدين السطحي ، وجعل عليها دورا بمصر
موقوفا عليها ...

« والزاوية الزينية : رتبها زين الدين للقراءة .
ذكر ذلك ابن المتوج ...

« وقد أدرك بالمسجد محمد بن عبد الرحمن
الحنفى قبل وباء عام ٧٤٩ للهجرة بضعا وأربعين
حلقة لاقراء العلم ، لاتكاد تبرح منه » .

ويقول ابن المأمون قاضى المالكية : « ان من
جملة الخدم ما كان يصنع ثمانية عشر ألف فتيلة
للإضاءة ، وكان الوقود أحد عشر قنطارا ونصفا
زيتا طيبا ...

« ولما وفد محمد بن جرير الطبرى على مصر ،
بان فضله فى القرآن والفقه والحديث واللغة
والنحو والشعر ، فلقبه أبو الحسن بن سراج ،
فوجده فاضلا بارعا فى كل ما يذاكره من العلم ،
ويجب عنه ، حتى سأل عن الشعر فرآه فاضلا
بارعا فيه ، يحفظ الكثير منه ، فسئل أن يمليه ،
فاستجاب وجلس بجامع عمرو لاملأه » .

لقد كان المسجد آنذاك منتعشا عامرا بالمعلمين
والعلماء وغيرهم وبعد أن توسعت مدينة
الماهرة ، وبُنيت فيها المساجد الكثيرة ، انتقل
اليها المشتغلون بالدرس والتحصيل ، وترك الناس
الفسطاط ومسجدها العتيق .

ابراهيم محمد الجمل

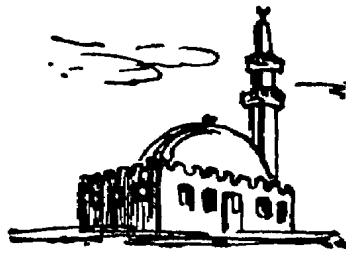
« كانت هناك زاوية الشافعى يدرس بها الامام
رضى الله عنه فعرفت به ، وعليها أرض بناحية
« سنديس » وقفها السلطان العزيز بالله عثمان
ابن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب
وقد تولى التدريس بها أعيان الفقهاء وجلة
العلماء ...

« والزاوية المجددة — بصدر المسجد بين
المحراب الكبير ومحراب الخمس ، داخل المقصورة
الوسطى — رتبها مجد الدين بن أبى الأشبال
الحارث بن مذهب الدين أبى المحاسن وزير
الأشراف ، وقرر التدريس بها قريبه قاضى القضاة
وجيه الدين عبد الوهاب البهنس ، وعمل على
هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة . ويعد
تدريسها من المناصب الجليلة ...

« والزاوية الصحابية ، حول « عرفة » ، رتبها
الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد
ابن بهاء الدين ، وجعل لها مدرسين : أحدهما
مالكى ، والآخر شافعى ، وجعل عليها وقفا بظاهر
القاهرة بخط البرادعين ...

« والزاوية الكمالية — بالمقصورة المجاورة
لباب الجامع الذى يدخل اليه من سوق الغزل —
رتبها كمال الدين السنودى ، وعليها فندق بمصر
موقوف عليها ...

« والزاوية التاجية — أمام المحراب الخشب —



الجامع الأزهر

جامع ابن طولون في مكان القلب منها أو حجر الأساس فيها ... ثم كان انشاء القاهرة بعد ذلك ، فكان الجامع الأزهر كذلك .

من بعيد

وهذه الخطة سنة كانت متبعة في كثير من المدن التي قام بإنشائها الخلفاء والولاة والقواد المسلمون . فأننا نجد في البصرة والكوفة وفي كثير من مدن الشام . ويرى بعض المؤرخين أن هذه السياسة أو الخطة ترجع الى عهد عمر رضى الله عنه ، بدليل ما كان يكتبه الى الولاة — ومنهم عمرو بن العاص — في هذا الشأن .

ولكن مد النظر الى ما قبل عهد عمر يرينا أن هذه الخطة ترجع الى أبعد من هذا العهد قرونا وأجيالا ... فقد كان أول بناء أنشئ في مكة هو بيت الله الحرام ، كما يقول سبحانه : « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين » . ثم كانت أول قبيلة نزحت اليه ، واستقرت عنده ، هي « جرهم » ، ثم تبعها ولحقت بها قبائل أخرى ، فأقامت حول هذا البيت العتيق ، وأقامت حوله منازلها ومتاجرها ... فكانت مكة ، وكان بيت الله في مكان القلب منها ، يحج اليه الناس من كل صوب وحذب « رجالا وعلى كل ضامر ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم » .

فليس من البعيد — بل من المحتمل القريب — أن يرى المسلمون في هذه المدينة

أنشئ أول ما أنشئ ليكون مسجدا جامعاً ، ثم بدأت فيه الدراسة بعد انشائه بعدة أعوام ، فصار مسجدا ومعهدا معا ، ثم أقبل عليه العلماء وطلاب العلم من شتى أنحاء العالم الاسلامي ، فصار جامعة تدرس فيها علوم الدين والدنيا . ثم امتحن العرب والمسلمون بالغزو التتري والاستعمار الأوربي ، فكان منبر ثورة ، وحصن مقاومة ، ومقر قيادة ... ثم هو من قبل ومن بعد القلعة التي قامت على حراسة علوم الدين واللغة حتى الآن ، وبعد أن عمرت أكثر من ألف عام .

ذلكم هو الأزهر الذي أنشأه جوهر الصقلي عام ٣٥٩ للهجرة (٩٧٠ م) ، بأمر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي . ولم يكن انشاؤه في قلب القاهرة استجابة لرغبة طارئة أو فكرة عابرة ، ولما كان تنفيذا لخطة مرسومة وسياسة موضوعة جرى عليها الخلفاء والولاة والقواد المسلمون فيما كانوا ينشئون من مدائن وأمصار ... فحيث كان يراد انشاء مدينة كان المسجد الجامع يحتل مكان القلب منها .

كذلك أنشئت مدينة الفسطاط ، فكان جامع عمرو حجر الأساس فيها ، ثم كان ما يحيط به خططا للقبائل المختلفة ، تقيم كل قبيلة في الخطة المخصصة لها مساكنها ومتاجرها . وكذلك أنشئت مدينة العسكر — بعد أن دالت دولة الأمويين وقامت دولة العباسيين — فكان جامع العسكر كذلك حجر الأساس فيها . وكذلك أنشئت مدينة القطائع في عهد الدولة الطولونية ، فكان

نموذجاً لما ينشئون من مدن وأمصار . ولعل ما يرجح ذلك أو يؤكد ما نجده في الفقه الاسلامى ... فان مذهب الامام مالك يشترط لصحة الجمعة أن تكون في المسجد الجامع ، ويشترط في المسجد الجامع أن يكون داخل البلدة أو قريباً منها بحيث يمكن أن يصل اليه دحانها ، كما يشترط لصحة الجمعة فيه أن يكون مبنياً ، وأن يكون بناؤه على الأقل مساوياً للبناء المعتاد لأهل البلد .

وهذا التفكير يلقي الضوء على هذه الخطة ، ويمكن أن نرى فيه التفسير لهذا النظام المعمارى ، ومدى أهمية المسجد الجامع في كل مدينة اسلامية ... ولا يقلل من أهمية هذا الاتجاه أن بعض المذاهب الأخرى لم تشترط المسجد الجامع ، فأنها مع ذلك تشترط لصحة صلاة الجمعة ، أن تكون في المصر أو في الأبنية المجتمعة أو قريباً منها . ولا شك أن الأمثل والأفضل ، مع هذا ، أن تكون في المسجد الجامع .

ونخلص من هذه الاعتبارات والظواهر كلها بأن الأزهر أنشئ ، أول ما أنشئ ، ليكون مسجداً جامعاً . ولم يكن أساس التفكير في انشائه أن يكون معهداً لدراسة المذهب الشيعى كما اشتهر وشاع وذاع ... ذلك لأن الدراسة فيه لم تبدأ الا بعد انشائه بثلاثة أعوام ووصف العام تقريباً ، وأنها بدأت بداية متواضعة لا تدل على أن هذه المؤسسة أنشئت لتكون مدرسة ... فقد كان عدد الفقهاء الذين يحضرون الدروس فيه لا يبلغ أربعين ، بل كان على التحديد سبعة وثلاثين ، ثم ان هؤلاء مع هذا لم يكونوا تلقون الدروس كل أيام الأسبوع ، بل كان دروسهم يبدأ بعد صلاة الجمعة الى صلاة العصر من كل أسبوع .

فاذا أضفنا الى هذا كله أن الحاكم بأمر الله أنشأ جامعة أخرى عام ٣٩٥ للهجرة (١٠٠٥ م) وأنفق عليها وأغدق بسخاء ، وعين للإشراف عليها داعى الدعاة ، لينظم دراسة المذهب الفاطمى فيها ، وبوجه نشاطها السرى ... وإذا وضعنا في اعتبارنا وتقديرنا أن هذه الجامعة التى عرفت باسم « دار الحكمة » قد ظفرت من العناية والاهتمام بما لم يظفر به الأزهر وطلابه وعلمائه وقتذاك ، وأنها زودت بمكتبة لم تعرف مصر — بعد مكتبة الاسكندرية — أضخم منها ، كما يذكر المؤرخون ، وأنه رحل اليها وتخرج فيها كثير من علماء الشيعة ، ومنهم الحسن بن الصباح مؤسس طائفة الاسماعيلية ، وناصرى خسرو الرحالة الفارسى المشهور ... كان من المجازفة الحكم بأن الأزهر أنشئ أول ما أنشئ ليكون معهداً شيعياً ، وبأن الفكرة الأولى في انشائه هي تنظيم الدعوة لمذهب هذه الدولة .

صحيح أن الأزهر كان موضع العناية والحفاوة من الحلفاء الفاطميين كما سنرى ، وأنه لم يدرس فيه بادئ الأمر غير الفقه الشيعى ، بل لقد حظرت دراسة غيره من الفقه السنى ، حتى لقد جلد رجل عام ٣٨١ للهجرة لمجرد أنه وجد معه كتاب « الموطأ » للإمام مالك ... الا أن هذا كله لا يعنى أنه أسس ليكون من أول أمره مدرسة ، وان صار فيما بعد أعظم من مدرسة .

جامع القاهرة

لقد تم بناء القاهرة في منتصف عام ٣٦٠ للهجرة . وبعد ذلك بعام تم بناء مسجدها الجامع ، واقتتح للصلاة في اليوم السابع من شهر رمضان عام ٣٦١ للهجرة (٩٧٢ م) . وكانت القاهرة حينذاك تتكون من قصرين ألحقت بهما عدة قصور : أحدهما يعرف بالقصر الشرقى

ثم يقول :
ما ضرني أن ليس أفتك مطلعي
وعلى كواكبه تعلمت السرى

عناية الخلفاء

لقد كان هذا المسجد موضع عناية الخلفاء
الفاطميين واهتمامهم . فكانت تلقى فيه الخطب
الرسمية الثلاث في جمع رمضان ، ثم بعد انشاء
الجامع الحاكمي كانت تلقى فيه الخطبة الثانية ،
ثم تلقى الثالثة في جامع عمرو . ويصف المؤرخون
موكب الخليفة ، في طريقه الى الصلاة فيه وعودته
منها ، وصفا يستشف منه مدى البذخ والرخاء
والثراء الذي كانت تتمتع به هذه الدولة ، فليرجع
اليه من شاء في خطط المقرئى .

وكان الأزهر المركز الرئيسى أو الأساسى
للمحتسب ، وعمله هو الأمر بالمعروف والنهى
عن المنكر ، ويعاونه في ذلك نواب ينشئون في
أثناء البلاد ، فيتلقون أوامره ويعملون بتوجيهه ،
ويرجعون اليه فيما يعضل أو يشكل عليهم من أمور .
ثم كان الاحتفال بالمولد النبوى بقم فيه ،
فكان القاضى يركب في الثانى عشر من شهر ربيع
الأول ومعه الشهود الى الجامع الأزهر ، ومعهم
— كما جاء في صبح الأعشى — أرباب تفرقة
صوانى الحلوى التى أعدت بالقصر لتفرق في
أرباب الرسوم : كقاضى القضاة ، وداعى
الدعاة ، وقراء الحضرة ، والخطباء ، وغيرهم .
ثم يأخذون مجلسهم في الجامع ، ويمكثون هناك
مقدار قراءة الختمة ، وبعد ذلك يعودون في
موكبهم الى القصر ، وينتظرون تحت المنطرة التى
يجلس الخليفة فيها — وكانت تجاه الأزهر — ثم
تفتح إحدى طاقات المنطرة ، ويبدو فيها وجه
الخليفة . ثم يخرج أحد الأستاذين المحكيين

الفاطمى الكبير ، والثانى في الجهة المقابلة له ويعرف
بالقصر الصغير ، وبينهما ميدان واسع يتصل به
جامع القاهرة ويطل عليه .

وقد أقيم في هذا الميدان بعد ذلك المشهد
الحسينى . ثم كانت الخطط المخصصة للقبائل
وأشباع الدولة تقع خلف هذه الأبنية في الأماكن
التي تعرف الآن بالباطنية ، والحسينية ، وباب
الشعرية ، والموسكى حتى شارع الخليج ،
والسكة الجديدة والغورية ، وحارة الروم وما
يتصل بها ، ودرب سعادة حتى باب الخلق
(ميدان أحمد ماهر) ، ثم يحيط بهذه المدينة
وملحقاتها سور جعل منها قلعة منيعة وحصنا
حصينا ، فلا يمكن الدخول اليها والخروج
منها الا من أبواب ضخمة : باب زويلة (بوابة
المتولى) من الجنوب ، وباب الفتوح وباب النصر
من الشمال ، وباب البرقية والباب المحروق من
الشرق ، وباب سعادة من الغرب .

وكان اسم هذا المسجد « جامع القاهرة » ،
ثم عرفت القصور الفاطمية باسم القصور الزاهرة ،
تيما بلقب فاطمة الزهراء ، فأطلق عليه هو
الآخر اسم الأزهر تبعا لذلك ، أو تيما بأن أيامه
مستكون مضيئة زاهرة كما قيل . وقد اندرس
كثير من آثار تلك القصور ، وانطمست معالمها ،
وبقى الأزهر كما كان ، وأضحى مما كان ، يطوى
الليالى والأيام ، ويفنى القرون والعصور حتى
قال فيه شوقى :

يا معهدا أفنى القرون جداره
وطوى الليالى ركنه والأعصر
ومشى على ييس المشارق نوره
وأضاء أبيض لجها والأخمر
وأنى الزمان عليه يحى سنة
ويذود عن نسك ويمنع مشعرا

ثم تفتح الأسواق ، وتسترد القاهرة شيئاً من نشاطها ومظهرها العادي^١ .

ليالى الوقود

وكانت ليالى الوقود — وهى ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه — من أبهج ليالى القاهرة فى عهد الفاطميين . فكان الأزهر يبدو فيها أبعد ما يكون زينة ومظهراً ، إذ تتألق الشموع والمشاعل فى جوانبه وعلى حافات جدرانه ، وتوقد فيه التناير ، فيظهر كأنه شعلة من نور . وبعد صلاة المغرب تبدأ المواكب سيرها اليه من كل صوب وحذب ، ثم تلتقى مع الموكب الرسمى فى الميدان الذى كان يفصل بين القصرين وما ألحق بهما من قصور .

وهناك ينتظر الجميع أمام باب « الزمرد » ريثما يطل عليهم الخليفة من إحدى طاقات المنظرة الخلفية . فإذا رأوا طلعتة ، وتلقوا تحيته ، تحركوا خلف الموكب الرسمى بتقدمه القاضى محاطاً بالقراء والمؤذنين . وتمضى هذه الجموع ، تحف بهما المشاعل والشموع ، حتى تنتهى الى الأزهر . وهناك يتعقد فى صحنه مجلس مؤلف من القضاة والعلماء والوجهاء برياسة قاضى القضاة ، ويجلس بين يديه القراء والمنشدون والناحية حتى منتصف الليل . وفى خلال ذلك أو بعده توزع الحلوى والأطعمة على الحاضرين ، وتعقب رائحة البحور فى جو المجلس وأنحاء الأزهر ... فان الخليفة يبعث فى هذه المناسبة بسلال كثيرة مملوءة بهذه الألوان من الحلوى والطعام . ثم ينفض الاجتماع ، وتكرر هذه الصورة تقريباً فى كل ليلة من ليالى الوقود^٢ .

(١) « الأزهر فى الف عام » تأليف الاستاذ محمد عبد النعم خفاجى ، نقلاً من المقربرى .
(٢) خطط المقربرى والنجوم الزاهرة بتصرف .

يده ، ويشير بكمه بأن الخليفة يرد عليكم السلام ، فيقرأ القراء الفاتحة ، ويخطب الخطباء بترتيب معلوم .. فاذا انتهى الحفل أخرج الأستاذ يده مشيراً برد السلام كما تقدم ، ثم تغلق الطاقة ، وينصرف الناس .

يوم عاشوراء

وكان ليوم عاشوراء كذلك احتفال رهيب يشترك الأزهر بنصيب كبير فيه . فاذا كان يوم العاشر من المحرم ركب قاضى القضاة والشهود الى الجامع الأزهر ، وهم يرتدون ثياب الحداد ، وساروا فى جمع من الأمراء والوجهاء والعلماء والقراء ، حتى ينتهى بهم السير داخل الأزهر .

ثم يأتى الوزير فيجلس فى مكان الصدارة والى جانبه قاضى القضاة وداعى الدعاة ، ثم ترتفع أصوات القراء بتلاوة القرآن . وبعد ذلك ينهض الشعراء لالقاء قصائدهم فى رثاء الحسين والحسن ، رضى الله عنهما ، وآل البيت ، ويسمع خلال ذلك البكاء والعيول .

ثم ينتهى الحفل ، فيتوجه الوزير الى داره ، ويذهب القوم الى القصر الفاطمى ، حيث تكون أروقته قد فرشت بالحصر ، فيجدون صاحب الباب ينتظرهم ، ثم يجلس القاضى والداعى الى جانبه ، ويجلس الناس على اختلاف منازلهم ومراتبهم ، وتكرر الصورة التى عرفناها فى الأزهر ، فيقرأ القراء وينشد الشعراء ، ثم يمد مساط الحزن وقت الظهر ... وليس فيه سوى العدس والألبان والأجبان الساذجة والأعسال النحل ، والخبز الأسمر ، ويدخل من شاء لتناول الطعام . فاذا انتهى القوم انصرفوا الى دورهم ، ويعم الحزن والنواح القاهرة فى ذلك اليوم ، وتمتلئ الأسواق ، ويمتلك الناس حتى العصر ،

مجلس الحكمة

ويذكر التاريخ كذلك أن الأزهر كان يعقد فيه مجلس من مجالس الحكمة التي أنشأها الفاطميون لدراسة الدعوة الفاطمية . فكان يعقد فيه مجلس للنساء ، كما كان يعقد في القصر الفاطمي مجلس للرجال . وكان داعي الدعوة يشرف بنفسه على هذه المجالس ، أو يكل إلى نوابه وبقائه الإشراف عليها . وقد أحيطت الدراسة في هذه المجالس بكثير من التحفظ والاحتياط ، ثم تحولت إلى خلايا سرية تتكون من الخاصة ... ومعنى هذا أن الدعوة الفاطمية كانت تلقى لعامة الناس مبادئ وأصولاً عامة ، ثم يستخلص الدعوة الخاصة ، ويرفعون بهم درجة بعد درجة ومرتبة بعد مرتبة حتى يصلوا بهم إلى مراتبها وأسرارها العليا ... كما تذكر كتب التاريخ والأدب مثل « الخطط » وصبح الأعشى وغيرهما .

ومعنى هذا أيضاً أن إنشاء دار الحكمة وتسميتها بهذا الاسم ، كان نهاية التصميم والتنظيم لإنشاء جامعة تضم مجالس الحكمة ، وتنمض لدراسة الدعوة الشيعية والمذهب الفاطمي دراسة تخصص وعمق ، وهذا يرجح ما ذهبنا إليه من أن الأزهر لم يكن الغرض الأول من إنشائه قيام جامعة شيعية ، وإنما كان قيام مسجد جامع يتمتع بكل ما كان يتمتع به المسجد الجامع من ميزات رسمية ... وما كان أكثرها في عهود المجد الإسلامي .

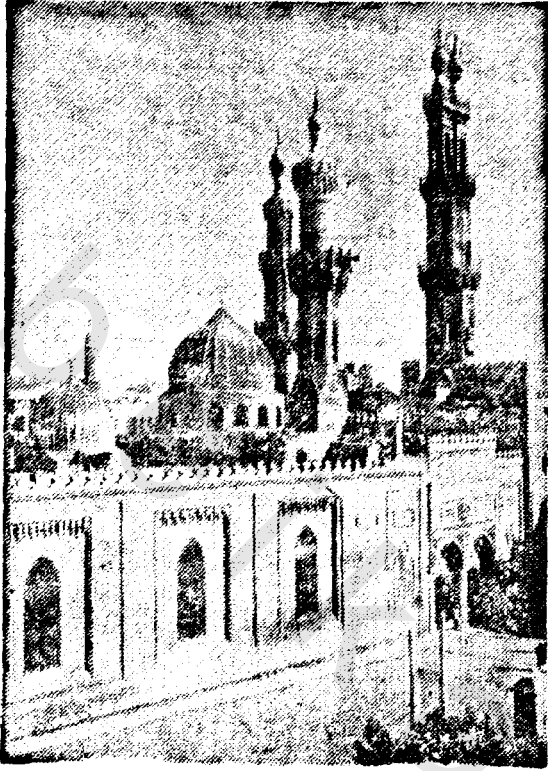
على أن المذهب الشيعي من قبل ومن بعد هو مذهب إسلامي له فلسفته ، وله فقهه ، وله كثير من الأتباع والأشباع يجتمعون عليه ويعملون به . وقد بذلت ، ولا تزال تبذل ، المحاولات للتقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة ، وجمع المسلمين على كلمة سواء . وكان آخر هذه المحاولات والمسابي ما قامت به وزارة الأوقاف في الجمهورية

العربية المتحدة من طبع كتاب « المختصر النافع » في الفقه الشيعي ، وتوزيعه بالمجان على مختلف الأفراد والبيئات والهيئات العلمية . ومنذ عدة أعوام أنشئت « دار التقريب » لهذا الغرض ، وأصدرت ولا تزال تصدر مجلة لخدمة هذه الغاية ، ولا شك أن جهودها في هذا السبيل ستثمر خيراً كثيراً إذا سلمت النيات ، وصدقت العزائم ، وتوافر الاخلاص .

مسجد ومعهد

بدأت الدراسة في هذا المسجد بداية متواضعة كما قدمنا ... فكانت أول عهد لها به وعهده بها حلقات يعقدها أبو الحسن على بن النعمان القيرواني ، ويدرس فيها كتاب « الاقتصار » لوالده أبي حنيفة النعمان بن محمد القيرواني . وكانت هذه الحلقات تعقد في أوقات غير منتظمة . ثم تولى من بعده بنو النعمان دراسة الفقه الفاطمي والقضاء في مصر حتى نهاية القرن الرابع للهجرة ، فكان يدرس مع هذا الكتاب كتب أخرى في فقه الشيعة للنعمان القيرواني أيضاً : مثل كتاب « دعائم الاسلام » ، وكتاب « اختلاف الأصول » ، وكتاب « الأخبار » ، وكتاب « اختلاف الفقهاء » .

أما الدراسة المنتظمة فقد بدأها — على ما يذكر المؤرخون — الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس . فقد عين بأمر الخليفة سبعة وثلاثين فقيها يحضرون مجلسه ودرسه عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع حتى أذان العصر . وقد وسع عليهم من ماله ، وأقام لهم مسكناً بجوار الأزهر يصح أن نعتبره أول رواق أنشئ لطلبة العلم فيه ، فقد أنشئت حول الأزهر بعد ذلك عدة أروقة لاقامة الطلاب ، وجبست عليها أوقاف كثيرة ، حتى بلغ عددها تسعة وعشرين رواقاً ، كما يذكر كتاب « الأزهر » لفضيلة المرحوم الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون .



منظر خارجي للجامع الازهر

الجامع ... والجامعة

ولم يقف النشاط العلمي في هذا المسجد أو المعهد عند الحد الذي ذكرناه... بل اطرده تقدمه ، وتوعدت موضوعاته ، وكثرت فنونه وعلومه ، حتى أصبح الأزهر جامعة بمعنى الكلمة ، بل أصبح قبلة العلماء المتبحرين ، والفلاسفة الممتازين ... فكان من علمائه رجال القانون الشرعي أمثال القاضي علي بن ميمون المتوفى عام ٣٧٤ للهجرة (٩٨٤ م) ، وأخيه القاضي محمد المتوفى في عام ٣٨٩ للهجرة (٩٩٨ م) . وكان منهم المؤرخون أمثال الحسن بن زولاق المتوفى في عام ٣٧٨ للهجرة (٩٨٨ م) ، والفلكيون أمثال المسيحي المتوفى في عام ٤٣٠ للهجرة (١٠٣٨ م) ، والنحويون أمثال الحوفي المتوفى في العام ذاته ، وأبي العباس أحمد بن هاشم المصري المتوفى في عام ٤٤٥ للهجرة ، وابن بابشاذ المتوفى في عام ٤٦٩ للهجرة

أن ممن كانوا يلقون محاضرات بالأزهر المؤيد الشيرازي : « ان للشيرازي محاضرات في الأزهر ناظر فيها أبا العلاء المعري ، وله مؤلفات أخرى عدا سيرته وديوانه ومحاضراته ، منها كتاب « الابتداء والآتفاء » ، وكتاب « المسألة والجواب » ، وكتاب « نهج العبادة » ، و « شرح المعاد » ، و « المسائل السبعون » ، و « نهج الهداية للمهتدين » ، و « أساس التأويل » بالفارسية ، و « المبعج السبع » ، و « الايضاح والتبصير في فضل يوم القدير » و « تأويل الأرواح » ، و « المجالس المستنصرية » .

وقد كان الشيرازي شاعرا مع ذلك ، وأسند اليه منصب داعي الدعاة . ومما يذكر أنه حين قدم الى مصر احتجب عنه الخليفة المستنصر لأمر ما ، فكتب اليه الشيرازي يقول :

ويرى فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في أسماء هؤلاء العلماء ، وغيرهم ممن لم تذكر أسماءهم - وما أكثرهم - الدليل الذي لا يدع مجالا للشك على أن الأزهر ، في هذا العصر ، أصبح جامعة متنوعة الدراسات . ثم يقول في مقال طلبته وزارة الخارجية المصرية لينشر في جريدة « الموند » الباريسية في عدد خاص بمصر لمناسه انعقاد الدورة السادسة لجمعية الأمم المتحدة في ديسمبر من عام ١٩٥١ ونسأير من عام ١٩٥٢ : « وكلنا نعلم مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الرياضية والطبية والفلكية والجغرافية ... مما يرجح في نظرنا أن هذه العلوم كانت موضوع دراسة في الأزهر أيضا » . وقد نشرت ترجمة هذا المقال باللغة العربية في مجلة الأزهر عام ١٣٧١ للهجرة .

ويذكر الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه « الأزهر في ألف عام » بعد أن تقل عن المقرري

أقسم لو أنك توجتني
بتاج كسرى ملك المشرق
وأنتنى كل أمور الورى
من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لا نلتقى ساعة
أجبت يامولاي أن نلتقى
لأن إبعادك لى ساعة
شيب فودى مع المشرق
وقد رد عليه المستنصر بخط يده يقول :
ياحجة مشهورة فى الورى
وطود علم أعجز المرتقى
ما غلقت دونك أبوابنا
الا لأمر مؤلم مقلق
ولا حجبناك ملالا فشق
بودنا وارجع الى الأليق
خفنا على قلبك من سمعه
فصدنا صد أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم
فى الغرب ياصاح وفى المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا
وكن لهم كالوالد المشفق
ان كنت فى دعوتنا آخرا
فقد تجاوزت مدى السبق
ملك لا يوجد فيمن مضى
من سائر الناس ، ولا من بقى

اول وقفية

ومن مظاهر العناية الفاطمية بالأزهر ، هذه الوثيقة بأول وقفية عرفت فى تاريخ هذا المسجد أو المعهد أو الجامعة . وهى وان كانت تشتمل على مسميات لا وجود لها الآن : كالتنانير والسواقي

والبقر والعلف وما الى ذلك ... الا أنها ذات قيمة تاريخية كبرى من عدة وجوه تتصل بتاريخ الأزهر وتاريخ القاهرة معا . وهذا هو نص الاشهاد الشرعى بها نذكره دون تحوير أو تغيير ، كما وجدناه فى عدة مراجع :

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة ، مالك بن سعيد ابن مالك الفارقى ، على جميع ما نسب اليه مما ذكر ووصف فيه ، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر ، فى شهر رمضان سنة أربعمائة ... أشهدهم — وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله ، وأجناد الشام والركة والرجبة ، ونواحي المغرب وسائر أعمالهن ، وما فتحه الله ويفتحه لأمر المؤمنين من بلاد الشرق والغرب ، بمحضر رجل متكلم — أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة ، والخصص الشائعة التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم الى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ، والجامع بالمقس الذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل هذا الكتاب ... منها ما يخص الجامع الأزهر ، والجامع براشدة ، ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة — مشاعا جميع ذلك غير مقسوم — ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ...

« فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة ، ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة : جميع الدار المعروفة بدار الضرب ، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية

الصوف ، وجميع اندار المعروفة بدار الخرق الجديدة ... الذى كله بفسطاط مصر . ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها والمخزين ، الذى كان كله بفسطاط مصر بالراية فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق ... وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ...

« ومن ذلك : جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضا ، بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيس بحدود ذلك كله وأرضه وبناءه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفعاته وحوانيته وساحاته ، وطرقه وممراته ومجارى مياهه ، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه . وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بته ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تملكها ، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب ... لا يوهنها تقادم السنين ، ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ، ولا يستفتى بتجدد تحييسها مدى الأوقات . وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسموات ... على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى اليه ولايتها ، ويرجع اليه أمرها بعد مراقبة الله ، واجتلاب ما يوفر منفعتها من اشهارها عند ذوى الرغبة فى اجارة أمثالها ، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسوما على ستين سهما ...

ما يخص الأزهر

« من ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، المذكور فى هذا الاشهاد ، الخمس والثلثمائة ونصف

السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارته ومصلحته ، وهو من العين المعزى الوزن ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينار وثلثمائة دينار . ومن ذلك : للخطيب بهذا الجامع ، أربعة وثمانون دينارا . ومن ذلك : لثلثمائة ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له . بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة الى ذلك . ومن ذلك : لثلثمائة ألف ذراع حصر مظفورة ، لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة اليها ، مائة دينار واحدة وثمانية دنانير . ومن ذلك : لثلثمائة قنصر زجاج وفراخها ، اثنا عشر دينارا ونصف وربع دينار . ومن ذلك : لثلثمائة عود هندي للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع ، مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع ، خمسة عشر دينارا . ومن ذلك : لنصف قنطار شمع بالقفلى ، سبعة دنانير . ومن ذلك : لكس هذا الجامع ، ونقل التراب ، وخياطة الحصر وثلثمائة الخيط ، وأجرة الخياطة ، خمسة دنانير . ومن ذلك : لثلثمائة لسرج القناديل ، عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل القفلى ، دينار واحد . ومن ذلك : لثلثمائة فحم للبخور من قنطار واحد بالقفلى ، نصف دينار . ومن ذلك : لثلثمائة أردبين ملحاً للقناديل ، ربع دينار . ومن ذلك : ما قدر لمؤونة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع ، أربعة وعشرون دينارا . ومن ذلك : لثلثمائة سلب ليف ، وأربعة أجبل وست دلاء آدم ، نصف دينار . ومن ذلك : لثلثمائة قنطارين خرقا لمسح القناديل ، نصف دينار . ومن ذلك : لثلثمائة قنطار للخدمة وعشرة أرطال قنطار لتعليق القناديل ، وثلثمائة مائتى مكنسة لكس هذا الجامع ، دينار واحد وربع دينار . ومن ذلك : لثلثمائة أزيار فخار تنصب على المصنع ،

المعز لدين الله ، ثم جاء بعده الحاكم بأمر الله فجده وزوده بمجموعه من التناوير الفضية ، ووقف عليه هذه الوقفية التي ذكرناها ... ثم جاء المستنصر فجدد فيه كذلك ، كما جده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربى فى مقدمه ، بداخل الرواقات ، وقد عرفت باسم مقصورة فاطمة ، لأن فاطمة الزهراء — كما قيل — رؤيت فيها

وتقف فى الحديث عن عمارة الأزهر عند هذا الحد لنستأنفه بعد ذلك عند الحديث عنه فى غير هذا العهد ... بل نكتفى بهذا القدر من الحديث عن الأزهر فى عهد الفاطميين ، لأن هذا القدر — على قلته — يعطينا صورة واضحة عن مكائته الاجتماعى والعلمية والأدبية فى هذا العصر ... وإن لم يظهر له تأثير فى توجيه الحوادث ، وتصريف السياسة ، كما ظهر بعد ذلك مما سنراه فى قليل من التفصيل

العهد الأيوبي

كان المذهب الشافعى هو المذهب السائد الشائع فى مصر قبل عهد الفاطميين ومن قبل ذلك كانت السيادة للمذهب المالكى فيها ، كما يذكر السيوطى فى حسن المحاضرة وقد حاول القاضى اسماعيل بن سميع الكندى نشر مذهب أبى حنيفة ، بعد أن ولاه العباسيون قضاء مصر عام ١٤٦ للهجرة ، فلم يوفق الى ذلك ... بل كرهه المصريون لذلك . أما مذهب أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، فلم يظفر من المصريين الا بعدد قليل لم يسمع السيوطى بخبرهم الا فى القرن السابع للهجرة وما تلاه

وقد جاء الفاطميون الى مصر ، وهم ينكرون كل هذه المذاهب ، ويعملون على ابطالها وصرف الناس عنها ... لهذا كان طيبيما — وقد قامت

ويصب فيها الماء ، مع أجره حملها ، ثلاثة دنائير ومن ذلك لثمن وقود هذا الجامع — راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل — مع أجره الحمل ، سبعة وثلاثون ديناراً ونصف — ومن ذلك : لأرزاق المصلين — يعنى الأئمة وهم ثلاثة ، وأربعة قومة ، وخمسة عشر مؤذناً — خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ، منها للمصلين ، ولكل رجل منهم ، ديناران وثلاثون ديناراً فى كل من شهور السنة — المؤدون والقومة ، ولكل رجل منهم ، ديناران فى كل شهر — ومن ذلك . للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة ، أربعة وعشرون ديناراً . ومن ذلك : لكنس المصنع بهذا الجامع ، ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ ، دينار واحد — ومن ذلك لمرمة ما يحتاج اليه فى هذا الجامع ، فى سطحه وأتراه وحياطته ، وغير ذلك مما قدم ، لكل سنة ستون ديناراً . ومن ذلك . لثمن مائة وثمانين حمل تبين ونصف حمل ، جارية لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ، ثمانية دنائير ونصف وثلاث دينار — ومن ذلك . للتبين لمخزن بوضع فيه بالقاهرة ، أربعة دنائير — ومن ذلك . لثمن فدانين قرط ، لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة ، سبعة دنائير — ومن ذلك لأجرة متولى العلف ، وأجرة السقاء والحبال والقوادس ، وما يجرى مجرى ذلك ، خمسة عشر ديناراً ونصف — ومن ذلك لأجرة قيم الميضاة — ان عملت بهذا الجامع — اثنا عشر ديناراً .

عمارة المسجد

وهكذا نجد عمارة هذا لمسجد قد حظيت فى هذا العصر بما تنم عنه هذه الوثيقة ... بل انه لم يتحل عن الاهتمام بعمارته الخلفاء طيلة هذا العهد فقد جدد فيه العزيز بالله ابو منصور نزار بن

الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية — أن تعمل على محو المذهب الفاطمي ، وإحلال المذهب السني محله ... بل لقد أسرف الأيوبيون في ذلك ، وعملوا على إخفاء كل أثر للشيعة في مصر . ومن ثم تلقوا بالترحيب فتوى قاضي القضاة الشافعي بأنه لا تجوز إقامة الجمعة في بلد واحد في مكانين ، وأن إقامتها في الأزهر باطلة لأن الجامع الحاكي أوسع منه ، وبذلك تعطلت صلاة الجمعة فيه نحو مائة عام ، من عام ٥٦٧ الى عام ٦٦٥ للهجرة .

وفقد الأزهر مظهره الرسمي في الدولة الجديدة ، ولم يعد يستمتع بما كان يخلع عليه من مباحج في ليالي الوقود ، والمولد النبوي ، وما الى ذلك من المناسبات التي كانت تحتفل بها الدولة الفاطمية ، كيوم عاشوراء ... بل بدأت الحركة العلمية فيه تصاب بالركود والجمود ، لأن الدولة الجديدة أنشأت حوله مدارس مختلفة لتنافس في رسالته . فبنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار مسجد عمرو ، ومدرسة أخرى للمالكية عرفت فيما بعد باسم المدرسة القمحية ، ومدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية كان يطلق عليها اسم « المدرسة السيوفية » ، وبنى كذلك مدرستين أخريين لفقهاء المذهب الشافعي خاصة : أحدهما بجوار الامام الشافعي ، والأخرى بجوار المشهد الحسيني . وقد أحصى المقرئ في « الخطط » المدارس التي بنيت في القاهرة وحدها بشمالى عشرة مدرسة .

وقد تبع ذلك إنشاء مدارس أخرى في القاهرة والفسطاط كالمدرسة الكاملة أو « دار الحديث » التي أنشأها الملك الكامل عام ٦٢١ ، وتمت عمارتها عام ٦٢٢ للهجرة ... وقد تولى مشيختها أبو الخطاب عمر بن دحية ، ثم أخوه أبو عمر عثمان

ابن دحية . وقد ذكر السيوطي في « حسن المحاضرة » أن القسطلاني وابن دقيق العيد كانا من مشايخها . وكذلك بنى الملك الصالح بعد ذلك « المدرسة الصالحية » في عام ٦٣٩ ، وجعلها أربع مدارس للمذاهب الأربعة ، ثم المدرسة الفاضلية التي بناها القاضي الفاضل سنة ٥٨٠ هـ ، وذكر أن مكتبتها كانت تحتوى على مائة ألف كتاب مجلد .

وهكذا وجد الأزهر في هذه المدارس قوى تحيط به ، وتمتص قوته بما تجتذب اليها من قلوب طلابه وعلمائه ، فشله ركود وجمود ، ولكنه كان منها كما يقول الشاعر :

كالبحر يطره السحاب وما له

فضل عليه لأنه من مائة

فان كثيرا من العلماء الذين خرجتهم هذه المدارس تتلمذوا على أساتذة الأزهر ، ونهلوا من حلقاته العلمية في العهد الفاطمي ... بل ان الشعراء الذين لمعت أسمائهم في هذا العهد — كابن مطروح ، وابن النيه ، وابن الساعاتي ، وابن سناء الملك ، وابن التعاويذى ، وسراج الدين الوراق — كانوا ثمرات لثقافة الأزهر اللغوية والأدبية .

وقد أورد الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه « الأزهر في ألف عام » أسماء العلماء الاعلام الذين نبغوا في هذا العهد — نقلا عن « حسن المحاضرة » للسيوطي — نذكر منهم : الحسن الفارسي ، الفقيه الحنفي ، العالم باللغة والطب والهيئة المتوفى عام ٥٩٨ هـ ، وابن الحاجب النحوي المشهور (٥٦٦ — ٦٤٦ هـ) ، والشاملي (٥٣٨ — ٥٩٠ هـ) ، وابن الفارض الصوفي الزاهد الشاعر المعروف (٥٧٦ — ٦٣٢) ، وعز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام (٥٧٧

أن يرى هذا الحركة تنمو وتشتد ، وتزهر وتثمر ، ثم يصدق مع ذلك أن الأزهر كان يعيش في غلام فكري ، أو جمود عقلي . وكل ما حدث هو توزيع أهله في أماكن قريبة منه ، وصرف الناس دون الاقبال على هذا البناء الذي اقترن في أذهان الأيوبيين بذكريات لا يحبونها عن الفاطميين . أما الأزهر من حيث هو جامعة علمية عربية اسلامية تقوم على دراسة علوم اللغة والدين ، فقد غاض مأؤه في هذا البناء ليفيض في أبنية أخرى ومعاهد أخرى ... ثم تعود اليه مكاته وزعامته بعد ذلك كما سنرى .

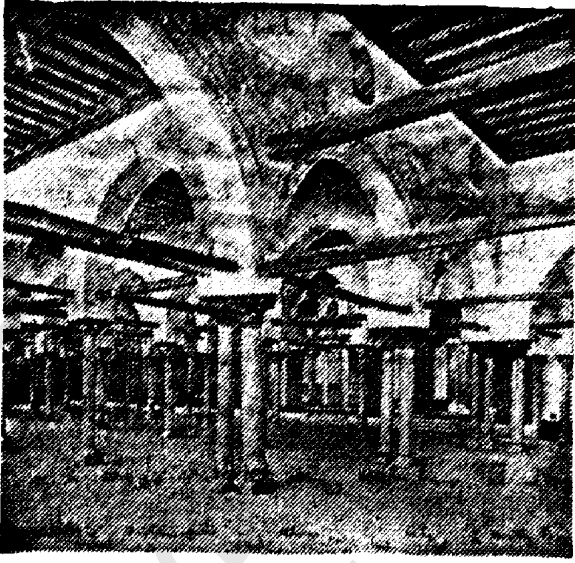
العصر الذهبي

انتهى العهد الأيوبي والأزهر على ما وصفنا من خمول ذكره ، وإهمال أمره ، وانصراف العلماء عنه الى غيره من المدارس التي كانت تحيط به ، وتروج بالحركة العلمية حوله . وكانت القاهرة حينذاك تجتذب أنظار العلماء من كل صوب ، وتتأهب للقيام بدورها الحطير في الدفاع عن كيان العرب وحماية الاسلام ... ذلك أن بغداد كانت قد أوهنتها الانقلابات والفتن والاضطرابات ، ووصلت الى درجة من الضعف تنذر بدمارها وانهيار الخلافة الاسلامية فيها . وكان الخطر مع ذلك يزحف اليها من الشرق مع جيوش التتار ، ويتربص بها وبالعالم العربي والاسلامي كله من الغرب مع مطامع الاستعمار ... اذ كانت الحروب الصليبية لا تزال مشبوبة الأوار بين الشرق والغرب ، تسكن برهة لتثور مرة أخرى .

ثم حدث ما كان يتوقعه العرب والمسلمون ، ويخشون وقوعه ، فسقطت بغداد في أيدي التتار عام ٦٥٦ للهجرة ، وتابع الغزاة زحفهم بعد أن دمروها ، وأحرقوا كتبها العلمية ، وروعوا علماءها

(— ٦٦٠ هـ) ، وعبد الرحيم القنائي المتوفى عام ٥٩٢ للهجرة ، والسيد أحمد البدوي (٥٩٦ — ٦٧٥ هـ) ، وهذان معروفان بشهرتهما في الصوفية . ومن العلماء الذين برزوا في هذا العهد أيضا : الحافظ المنذرى شيخ الاسلام (٥٨١ — ٦٦٠ هـ) ، والسخاوى المصرى (٥٥٨ — ٦٤٣ هـ) صاحب التفسير المشهور وشرح الشاطبية ، وابن سرايا (٥٧٠ — ٦٥١ هـ) المفسر العالم بالقراءات ، وابن المنير (٦٢٠ — ٦٨٣ هـ) ، وكان اماما في النحو والأدب والأصول والتفسير . ومنهم كذلك : ابن برى المتوفى عام ٥٨٢ هـ ، وابن معطى المتوفى عام ٦٢٨ هـ ، وكان هذان العالمان امامين في العربية ، وابن الساعاتى المتوفى عام ٦٠٤ هـ ، وأبو الحسين الجزار الشاعر ، وأبو شامة المتوفى عام ٦٩٥ هـ ، والتلمغرى (٥٩٣ — ٦٧٥ هـ) ، وابن واصل المتوفى عام ٦٩٧ هـ ، والقاضى الفاضل المتوفى عام ٥٩٦ هـ ، والعماد الأصبهاني المتوفى عام ٥٩٧ هـ . وظهر من الحكماء الوزير القفطى (٥٦٨ — ٦٤٦ هـ) ، ومن المؤرخين ابن شداد (٥٣٩ — ٦١٥ هـ) وابن عبد الظاهر (٦٢٠ — ٦٩٢ هـ) . ولم تكن الدراسة مع هذا منقطعة في الأزهر ، بل ظلت متصلة فيه ، وإن أصيبت — كما قدمنا — بالركود والخمول . فقد توجه اليه ، ودرس فيه ، علماء ممتازون مثل عبد اللطيف البغدادي ، فانه وفد على مصر في عام ٥٨٩ هـ ، وتولى التدريس في الأزهر حتى توفى الملك العزيز في عام ٥٩٥ للهجرة .

ونخلص من هذه القائمة التي نقلناها بأن الحياة العلمية التي ازدهرت حول الأزهر في هذا العهد ، وفي تلك المدارس الكثيرة التي أنشئت حوله ، لم تكن الا امتدادا لعمله في تنمية الثقافة العربية والاسلامية ... اذ ليس من السهل على أى باحث



داخل الجامع الأزهر

منه ، وعمرت الواهى من أركانه وجدرانه ، وأصلحت سقفه ، وبلطت أرضه وفرشتها ، واستجدت به مقصورة حسنة . فقد كان الأمير عز الدين أيدمر الحلى يقيم فى دار مجاورة له — هى الآن جزء منه — فرأى ضرورة مراعاة حرمة الجوار ، كما قيل ، وتبرع له بكثير من المال ، وأطلق له السلطان كذلك جملة من المال ، فعمره بما ذكرناه ... وشاركه فى عمارة هذا المسجد الأمير ييلبك الخازندار ، فعمل فيه مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعى ، ومحدثا يسمع الحديث النبوى ، ووقف على ذلك الأوقاف الدار — كما تذكر كتب السيرة — ورتب به سبعة لقراءة القرآن ، ومدرسا .

اعادة افتتاح الأزهر

وبعد أن كمل بناؤه وتجديده ، أخذ الأمير عز الدين فتاوى من العلماء بخطوطهم تتضمن جواز الجمعة فيه ، ثم افتتح للصلاة ، فحضرها العلماء والأمراء والكبراء فى هذا اليوم ... وكان يوما مشهودا .

ولم تقف العناية ببناء الأزهر عند هذا الحد فى

وأدبائها . ولكنهم لم يكادوا يقتربون من حدود الشام ، حتى انحسرت موجتهم ، وانكسرت شوكتهم ، ومنوا بهزيمة ساحقة فى « عين جالوت » و « بيسان » أمام الجيش الإسلامى الذى خف للقائهم من مصر ، وعلى رأسه السلطان قطز وفائده الأمير ركن الدين بيبرس .

ثم صار الأمر الى الظاهر بيبرس بعد قتل قطز ، فرأى أن ينتزع الراية التى سقطت فى بغداد ويرفعها فى القاهرة ، واستدعى أحد العباسيين الذين أفلتوا من قبضة التتار ، فأقامه خليفة فى مصر ، ولقبه بالمستنصر .

وكان أول من بايعه بالخلافة عالم دمشق عظيم ، قدم الى مصر عام ٦٣٩ هـ فى عهد السلطان نجم الدين أيوب ، فأكبره علماؤها ، وولاه السلطان قضاء مصر والوجه القبلى ، ثم بقى بعد زوال العهد الأيوبى يتمتع بكل مهابة واحترام... ذلك هو شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام . وسنتحدث عن بعض مواقفه الرائعة لأنها كانت ، بالنسبة لعلماء الأزهر من بعده ، بداية نفوذهم ، وتعزيز مكاتبتهم ، واحترام كلمتهم ، وقيادتهم للشعب ضد طغيان الحكام .

وأول ما نلاحظه من هذه الأحداث العامة ، ونراه متصلا بموضوع الحدث عن الأزهر ، هو هجرة العلماء الى القاهرة . وثانيا قيام الخلافة الاسلامية فيها بعد بغداد . وثالثا — وهو النتيجة أو كالنتيجة لما تقدم — تجديد بناء الأزهر ، واقامة صلاة الجمعة فيه بعد أن عطلت نحو مائة عام ، واعادة الدراسة اليه ، وإقبال الموسرين بالتبرعات عليه .

ففى عهد الظاهر بيبرس — وكان من ملوك الجراكسة — وفى عام ٦٦٥ للهجرة ، امتدت اليه يد العناية والتجديد ، فردت اليه ما كان مغصوبا

ثم يمتد الزمن قليلا حتى يوفى بالأزهر على عام ٨٠٠ للهجرة ، فدخل اليه عماره جديدة ... فقد هدمت منارته لقصرها ، وأقيمت منارة أطول مما كانت ، وبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم . ثم علقت القناديل فيها ليلة الجمعة في شهر ربيع الآخر من هذا العام ، وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها الى أسفلها ، واجتمع القراء والوعاظ ، وتلوا ختمة شريفة وبقيت هذه المنارة حتى شوال من عام ٨١٨ ، ثم هدمت ليل ظهر فيها ، وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحري بعد أن هدم هذا الباب ، وأعيد بناؤه بالحجر ، وركبت المنارة فوقه ، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التي كانت تجاه قلعة الجبل .

وفي عام ٩٠٠ للهجرة اقترنت عمارته باسم مصطفى بن محمود بن رستم الروبي ، وبلغ ما أنفقه عليها خمسة عشر ألف دينار . وأنشأ الملك الأشرف أبو النصر قايتباي ميضأة فيه وفسقية من داخلها ، وسبيلا ومكتبا على بابه ... كما أنشأ رواق الشوام ورواق المغاربة ، وأنشأ المنارة العظيمة التي يجدها الداخل عن يمينه . وقد رتب الملك قانصوه الأشرف ، خال الناصر ، طعاما له في شهر رمضان . ثم جاء الملك قانصوه الغوري ، فرتب في شهر رمضان لطبخ الأزهر كل سنة ستمائة وسبعين دينارا ، ومائة قنطار من العسل ، وخمسائة أردب قمح ، وبنى المنارة العظيمة ذات الرأسين به عام ٩٠٢ للهجرة .

ونخلص من هذا وغيره — وهو كثير — بأن الأزهر عادت اليه عناية المسؤولين ، وعادت الدراسة فيه على مذهب السنة في نشاط وقبال . وآية ذلك ما يذكره المقرئ من أن عدد الطلبة فيه بلغ في أوائل القرن الثامن للهجرة ٧٥٠ طالبا ، فقد قال :
 « في سنة ٨١٨ ولي نظر هذا الجامع الأمير

عهد السلاطين ، فأننا نجد اسم الأمير سلار يقترن بما دخله من عماره في عام ٧٠٢ للهجرة ... فقد سقط الجامع الأزهر والجامع الحاكسي وجامع عمرو نتيجة زلزال حدث في ذلك العام ، فتقاسم الأمراء عمارتها ، وكان الأزهر من نصيب الأمير المذكور . وكان هذا الأمير من ممالك الصالح علاء الدين ابن المنصور قلاوون . ثم اتصل بخدمة الأشرف ، وتوفي عام ٧١٠ للهجرة .

ثم لا يطول به الزمن حتى نجد اسم القاضي نجم الدين محمد بن حسين بن علي الأسمردي يقترن بعمارة جديدة أدخلت عليه في عام ٧٢٥ للهجرة ، ثم تضم الى مبانيه في عام ٧٤٠ مدرسة جديدة هي مدرسة الأقباقوية التي تستخدم الآن مكانا للمكتبة الأزهرية . وبعد ذلك بأربعة أعوام ، أي في عام ٧٤٤ ، أضيفت اليه المدرسة الجوهريّة بعد اتمام بنائها .

ورأى الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار في عام ٧٦١ للهجرة ، أن يجدد كذلك عمارته ، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في ذلك ، فنزع ما كان قد استجد فيه من مقاصير ، وأخرج ما كان به من صناديق وخزائن ، لأنه رأى في هذا كله ما يضيقه ، ثم أصلح جدرانها وسقفه حتى عادت جديدة ، وبلط أرضه وبيضه ، وحظر على الناس المرور فيه ، ورتب فيه مصحفا ، وجعل له قارئاً ، ثم أنشأ على بابه القبلي حانوتا لتسبيل الماء العذب ، وأقام فوقه مدرسة لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله ، ورتب للفقراء من المجاورين طعاما يطبخ لهم كل يوم ، كما رتب دروسا للفقهاء من الحنفية ، فكان مدرّسهم يلقي دروس الفقه في المحراب الكبير ... وقد وقف على ذلك أوقافا جليلة ، وبذلك أخذ الفقه الحنفي مكانه الى جانب الفقه الشافعي .

اليها ، فمثلا ابن الفارض الصوفي المشهور كان يقيم بالأزهر ، ووالده أبى أن يقبل وظيفة قاضى القضاة ، وآثر الانقطاع الى عبادة الله بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر .

وقد ذكر السيوطى من العلماء الذين تولوا التدريس بالأزهر فى هذا العصر : ابن الدمامينى ، الذى ولد بالاسكندرية ، وتفوق فى النحو والنظم وألم بعلم الفقه وعلوم أخرى ، ثم كان يتصدر لاقراء النحو فى الجامع الأزهر . كما ذكر أن من العلماء الذين نبغوا فى هذا العهد ابن عقيل المتوفى فى عام ٧٦٩ للهجرة ، وابن هشام المتوفى عام ٧٤٩ هـ ، وابن اياس المؤرخ المتوفى عام ٩٣٠ هـ ، وأبا حيان (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ) ، وابن منظور صاحب لسان العرب (٦٣٢ - ٧٦١ هـ) ، والرضى النحوى المشهور المتوفى عام ٦٨٤ هـ ، وابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) ، وتقى الدين السبكى (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ) ، وشيخ الاسلام البلقينى (٧٢٤ - ٨٠٥ هـ) ، والامام العيني (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ) ، وغيرهم .

واذا كان بعض هؤلاء العلماء قد اقترن اسمه بـ مدرسة أخرى من المدارس التى كانت تقوم الى جانب الأزهر — كالمدرسة الظاهرية القديمة التى بناها بيبرس عام ٦٦١ هـ ، والمدرسة المنصورية التى بناها المنصور قلاوون عام ٦٧٩ هـ ، والمدرسة الناصرية التى بناها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٣ هـ ، ومدرسة السلطان حسن التى بناها السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٥٨ هـ ، والمدرسة الظاهرية التى تم بناؤها عام ٧٨٨ هـ — واتصلوا بالعلم والتعليم فى هذه المدارس ، فانه لا يمكن عزلهم أو عزل مدارسهم عن الأزهر ... فقد كانوا ينتسبون اليه ، ويختلفون الى حلقات الدروس فيه ، وكانت هذه المدارس

سودوب القاضى حاجب الحجاب ، فجرت فى أيام نظره عدة حوادث لم يتفق مثلها . وذلك أنه لم يزل فى هذا الجامع — منذ بنى — عدة من الفقراء يلزمون الاقامة فيه ، وبلغت عدتهم فى هذه الأيام ٧٥٠ رجلا ، ما بين عجم وزيا لعة ومغاربة ، ومن أهل ريف مصر ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه ، والاشتغال بأنواع العلوم من الفقه والتفسير والحديث والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة اعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل تحمل اليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلويات ، لا سيما فى الموسم ... فأمر هذا الناظر فى جمادى الأولى من هذه السنة بإخراج المجاورين من الجامع ، ومنعهم من الاقامة فيه ، واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن .

نهضة مباركة

ومعنى هذا أن هذا المسجد النجام أصبح جامعة — كما كان فى عهد الفاطميين — تموج بطوائف مختلفة الجهات والأجناس ، وأنه كان محاطا بعدد كبير من الأروقة ، لكل طائفة رواق منها ، وأنه — الى جانب صفته العلمية — قد أصبح كذلك موئلا لأرباب الطرق الصوفية يقيمون فيه حلق الذكر ومجالس الوعظ ، وأن الاشراف عليه أصبح وظيفة من وظائف الدولة الرسمية تسند الى أمير من الأمراء ، وأنه كان يفاض عليه الخير ، وتجس عليه الأوقاف من الأثرياء والأمراء والحكام .

والمتتبع لتواريخ العلماء الذين لمعت أسماؤهم فى هذا العهد يجد كل هذه الظواهر التى أشرنا

أجنحة للأزهر تقوم معه برسالة واحدة ، وتلتقى معه على خطط ومناهج موحدة .

ويذكر السيوطي ، ممن نبغوا في القرن التاسع للهجرة ، الفيروزيادي صاحب « القاموس المحيط » المتوفى عام ٨١٧ هـ ، والقلقشندي صاحب كتاب « صبح الأعشى » المتوفى عام ٨٢١ هـ ، والدميري صاحب كتاب « حياة الحيوان » المتوفى عام ٨٠٨ هـ ، وابن دقماق المتوفى عام ٨٠٩ هـ ، والمقريزي المتوفى عام ٨٤٥ هـ .

وهكذا ظهر الأزهر في هذا العهد بنهضة مباركة ، رفعت من شأنه ، ووسعت من نطاقه كما يقول فضيلة المرحوم الشيخ محمود أبو العيون في كتابه « الجامع الأزهر » ... فاتجهت إليه أنظار العالم الاسلامي ، خصوصا بعد سقوط بغداد ، واتلاف كتبها وذخايرها العلمية . وأصبحت مصر المثابة الوحيدة ، والكعبة المنشودة ، يقصدها العلماء والطلاب من جميع الأقطار . وقد وصف ذلك العهد على لسان المستشرقين بأنه العصر الذهبي .

العلم والعلماء

وقد عظمت مكانة العلم والعلماء في هذا العهد الى حد كبير . فكانت كلمتهم مسموعة ، ورأيهم مطاعا ، ومكاثتهم في الشعب يحسب لها كل حساب . ويمكن للقارىء أن يتصور ذلك من موقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام حين عزم « قطز » على فرض ضرائب جديدة على المصريين بحجة انفاقها على الجيش الذي سيوجه الى حرب التتار ، فانه حسب للعلماء كلمتهم ، فجمعهم ليأخذ رأيهم في هذا الأمر . ولكن الشيخ عز الدين صاح فيه : « لا يجوز أن يؤخذ شيء من الرعية حتى لا يبقى في بيت المال شيء » ،

وتبيعون مالكم من الخوائص في الآلات ، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ، ويتساوون في ذلك هم والعامة . وأما أخذ أموال العامة ، مع بقاء ما في أيدي الجندي من الأموال والآلات الفاخرة ، فلا » ١ .

ولهذا الشيخ العظيم مواقف أخرى رائعة مع الحكام ، وكان أولها أنه لم يقبل ، حين قدم من الشام في عهد السلطان نجم الدين أيوب ، أن يلي قضاء مصر والوجه القبلي الا على أساس أن تكون كلمة الشرع هي الفاصلة بين الحاكمين والمحكومين . ثم لم يكد يتولى القضاء حتى وجد السلطان يكثّر من شراء الترك وتأميرهم على البلاد ليكونوا عونهم وعيونهم ، ولما استشرى شر هؤلاء وظلمهم ، أفتى بأنهم أرقاء اشتراهم السلطان بمال الدولة ، وأن حكم الرق مستصحب عليهم ، فلا بد من بيعهم وصرف ثمنهم في وجوه الخير ومصلحة الأمة ١

وكان من هؤلاء نائب السلطنة ، وكان هؤلاء كلهم أصحاب حكم وسلطان ، ولم يتحل الشيخ عن فتواه على الرغم مما كان من ثورتهم وتهديدهم ، وعلى الرغم مما كان من رجاء السلطان اليه أن يرجع عن هذه الفتوى . ولم تنحل هذه المشكلة الا بإذعان السلطان ، فقد عقد مجلسا كبيرا من رجال الدولة أحضر فيه هؤلاء الأمراء من الأتراك جميعا ، وأخذ الشيخ ينادي عليهم بالبيع واحدا واحدا ، ويغالي في أثمانهم لأنهم أمراء ، وقد غالى أكثر ما غالى في ثمن نائب السلطنة ... وهكذا حتى دفع السلطان ثمن هؤلاء جميعا للشيخ ، فوزعه في وجوه الخير ومصالح المسلمين ، ثم عتق الأمراء وعاد اليهم حق حرية التصرف ، وحق البيع والشراء ، بعد أن سلبهم

(١) « حسن المعاصرة » للسيوطي .

الشعب كل هذه الحقوق عملا بفتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

هذا الموقف وماليه لا يمكن أن تتصوره لمجرد أن هذا العالم العظيم قوى الشخصية ، متين الدين ، لا تأخذه في كلمة الحق لومة لائم ، ولا يثنيه عنها ارهاب أو وعيد أو تهديد ... وإنما يتصور على حقيقته اذا لاحظنا مع هذا حرص الشعب على تنفيذ أوامر الدين وحماية علمائه وأظهر دليل على ذلك ما نجده حين خرج ، رحمه الله ، من مصر غاضبا الى مقره الأول بالشام ، فإن خبر ذلك لم يكذب ذاع حتى خرجت القاهرة كلها وراءه لترده اليها مكرما معظما ، على الرغم من ارادة السلطان ، بل وباسترضاء السلطان اياه . وسنجد أمثال هذه المواقف لعلماء الأزهر حين تحدث عن العهد العثماني ، وما تلاه من عصور الظلم التي امتحنت فيها مصر بألوان الشر مع استعمار الفرنسيين والانجليز ، واستبداد الحكام من غير أبنائها الذين كانوا أداة طيعة في أيدي الاستعمار .

في العهد العثماني

ظل الأزهر على ما وصفنا من نشاط وازدهار ونباهة ذكر ، حتى خضعت مصر للحلم العثماني عام ٩٢٣ للهجرة ، وانتقل اهتمام العالم الاسلامي الى حيث انتقلت الخلافة الاسلامية في تركيا ، فقد كان هذا الغزو عاصفة اجتاحت فيما اجتاحت سمعة مصر العلمية ، وجردتها من حللها وحلاها الأدبية والفنية والثقافية ، فنقلت ذخائرها من الكتب والآثار الى القسطنطينية ، وقبض على الأعلام من أئمة العلم ، وفادة الفكر ، وزعماء البلاد ، ورحلوا الى تركيا .

لهذا — ولكثير غير هذا — أصاب الأزهر ما أصاب مصر كلها من الفتح العثماني :

فجف مأؤه ، وذوت نضرتة ، وغشيه الظلام ، ولكنه بقي حريصا على ما انتهى اليه من براث الدين وعلوم اللغة ، لا ينقص منه ولا يزيد فيه ... بل كان همه أن يجمد عليه ، ويكافح دونه حتى ينجلي ليل الغاصبين المستبدين ، واللغة العربية — كما كانت — سليمة ، والدين الاسلامي — كما كان — مصون .

ولعل هذا هو التعليل السليم لما كانت تتسم به الدراسة بالأزهر في ذلك العهد ، فقد عمد العلماء الى مؤلفات السلف الصالح فشرحوها ، ثم عمدوا الى الشروح فشرحوها ، وسموا شرح الشرح حاشية ، ثم عمدوا الى الحواشي فشرحوها ، وسموا شرح الحاشية تقريرا ، فكان الكتاب في علم من العلوم يتكون من كتاب صغير مختصر موجز سمي « المتن » ، وحول عد المتن يقوم الشرح ، ثم شرح هذا الشرح ، ثم شرح هذا الشرح لهذا الشرح على هذا المتن .

وطبيعي بعد هذا أن برى العناية في هذه الكتب منصرفة الى الألفاظ ومناقشتها ، ومتابعة كلمات المؤلفين بالنقد والتصويب ، والمقارنة والموازنة ، والأغراض والجواب عنه . وطبيعي مع هذا أن نحظى وراء هذه الضجة ، والتعقيد في أساليب المؤلفين ، المعاني العلمية الموضوعية ، وأن ينصرف ذهن القارئ الى العبارات والألفاظ دون المعاني والأغراض .

وقد اتجهت عناية العلماء كذلك الى افتراض الفروض الوهمية ، والاحتمالات العقلية التي لم تجر العادة بوقوعها ، ووضع أحكام لهذه الفروض والاحتمالات التي لا تتصل بالحياة في واقعها المحس ، أو حاجتها الضرورية .

ويلاحظ مع هذا أن العناية كانت شبه مقصورة على علوم الدين واللغة ، فتعطلت أو كادت تتعطل

الفلسفة ، التصوف ، المنطق ، الحساب ، الجبر والمقابلة ، الفلك والهيئة .

وزادت المشيخة على ذلك أن الأزهر يقرأ فيه — فضلا عن هذه المواد المتداولة — بعض مواد أخرى كالهندسة والتاريخ والموسيقى وغيرها لمن له اقتدار على دراستها ، بيد أنه لا يشتغل بها الآن سوى القليل .

معدن العلوم والمعارف

ومن المناسب هنا أن نذكر حوارا دار بين الشيخ عبد الله الشبراوى ، شيخ الأزهر ، مع أحمد باشا كور حين كان واليا على مصر عام ١١٦١ للهجرة حول العلوم الرياضية ، وعدم العناية بدراستها في الأزهر في ذلك العهد ، فإن فيه ما يشف عن السر في الاعراض عنها وقتذاك ، وعدم الاهتمام بها . والمرجع الأصلي في هذه القصة هو الجبرتي ، فانه يقول عن هذا الوالى : انه كان من أرباب الفضائل ، وله رغبة في العلوم الرياضية فلما استقر بقلعة مصر ، قابله صدور العلماء — ومنهم الشيخ عبد الله الشبراوى — فتكلم معهم في الرياضيات ، فقالوا : « لا نعرف هذه العلوم ... » وكان للشبراوى وظيفة الخطابة بجامعة السراية ، فكان يطلع يوم الجمعة ، ويدخل عند الباشا ، فقال له الباشا يوما : « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت في غاية الشوق الى المجيء ، فلما جئتها وجدتها كما قيل « تسمع بالمعبدى خير من أن تراه » . فقال له الشيخ : « يامولاي هي كما سمعتم ، معدن العلوم والمعارف » .

فقال : « وأين هي ، وأتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن بعض العلوم فلم تجيبوني ، وغاية تحصيلكم الفقه والوسائل ، ونبذتم المقاصد ؟ » .

دراسة العلوم الرياضية والعقلية ، حتى وقع في روع الكثيرين أن الاشتغال بها حرام . وظل هذا الوهم شائعا الى أن صدرت فتوى من شيخ الأزهر الشيخ الانبأى والشيخ محمد محمد البنا مفتى مصر بجواز تعلمها ، وعدم حرمة تدريسها . ومعنى هذا أن هذه المواد لم تجد الاهتمام اللائق بها نحو أربعة قرون ، فان الانبأى كان شيخا للأزهر في عام ١٢٩٩ للهجرة .

ولكن هذا لا يعنى كذلك أن دراسة هذه المواد انقطعت نهائيا من الأزهر ، فقد كان من العلماء ، في عهد ركوده وجموده ، من يعرف كثيرا من العلوم العقلية والطبية وغيرها ، زيادة على العلوم الدينية والعربية ، كما يقول الشيخ أبو العيون ، وقد ذكر منهم على سبيل المثال الشيخ عبد المنعم الدمنهورى شيخ الأزهر المتوفى عام ١١٩٢ ، وقال انه جاء في سند اجازته ما ملخصه : أنه تلقى في الأزهر العلوم الآتية ، وله تأليف في كثير منها ، وهى : الحساب ، الميقات والجبر ، المنحرفات ، أسباب الأمراض ، علاماتها ، علم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة ، علم الأرتماطيقى ، علم المزاويل ، علم الأعمال الرصدية ، علم الموالييد الثلاثة ، وهى الحيوان والنبات والمعادن ، علم استنباط المياه ، علاج البواسير ، علم التشريح ، علاج لسع العقرب ، تاريخ العرب والعجم .

وقد طلبت الحكومة في عهد الخديو اسماعيل عام ١٢٨٢ للهجرة (١٨٦٤ م) من مشيخة الأزهر بياناً بالمواد التى كانت تدرس بالأزهر في ذلك العهد ، فكتبت المشيخة وثيقة بها جاء فيها أن المواد هى : الفقه ، الأصول ، التفسير ، الحديث ، التوحيد ، النحو ، الصرف ، المعانى ، البيان ، البديع ، متن اللغة ، العروض والقافية ، الحكمة

كان يعنى بها القليل دون الكثير . وكلتاها تكشف عن مدى حرص الأزهر طوال تلك الحقب على علوم الدين واللغة ، وجموده عليها جمود الحريص على مفاخره ومآثره ... فقد كان ينظر بعين ملؤها الريبة والحذر الى كل جديد ، ويرى فيه خطرا على الدين يحاربه بكل ما أوتى من قوة .

في عهد محمد على

وقد امتد به هذا الزمن عدة قرون وأجيال ، وكانت نظراته الى ما قام به محمد على من اصلاحات هى نظراته الى الولاة والحكام الأتراك قبله ، فلم يستجب له ، ولم يطمئن اليه ، بل بقى على جموده وركوده ، وحرصه على ما ورث من مخلفات وثقافات . فلم يجد محمد على حيلة يدخل بها عليه ، أو يدخل بها فيه ما كان يراه من اصلاح وتجديد ، فاختار بعض الأفراد من طلبته ليقم على كواهلهم ما كان يرجوه من نهضة علمية جديدة .

وكان هؤلاء دعائم المدرسة الطبية ، ومدرسة الألسن والادارة . ثم كان من أفراد كذلك أعضاء فى البعث التى أرسلها الى أوروبا ، مثل رفاعه بك الطهطاوى شيخ المترجمين وامام المؤلفين فى عصره ، وابراهيم بك النبراوى أحد النوابغ الذين برزوا فى البعثة الطبية ، وأحمد حسن الرشيدى بك ، وكثير من رجال الحرية والبحرية والهندسة الذين قامت على كواهلهم نهضة مصر فى عهد محمد على .

وظل الأزهر مع ذلك كله على طريقته وسنته التى جمد عليها ، لا يقتنع بغيرها ، ولا يقبل أن يفرض عليه غيرها حتى صدر أول قانون بتنظيم الدراسة به فى عهد اسماعيل عام ١٢٨٨ للهجرة (١٨٧٢ م) .

ولم يكن الغرض من هذا القانون تغيير المواد التى تدرس فى الأزهر ، أو ادخال مواد جديدة عليها ، وانما كان الغرض الأساسى منه وضع نظام

فقال الشيخ : « نحن لسنا أعظم علمائها ، وانما نحن المتصدرون لقضاء حوائجهم ، وأغلب أهل الأزهر لا يشتغلون بالرياضيات الا الحاجة الموصلة الى علم المواريث ، كعلم الحساب والغبار » ، فقال له : « وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل من شروط صحة العبادة : كمعرفة دخول الوقت ، واستقبال القبلة ، ووقت الصوم وغير ذلك » ...

فقال الشيخ : « نعم ، لكنه من فروض الكفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الباقي ... وهذه العلوم تحتاج الى آلات وصناعات ، وأمور ذوقية : كرفة الطبع ، وحسن الوضع ، والخط والرسم ، والتشكيل ، والأمور العطاردية . وأهل الأزهر غالبهم فقراء ، وأخلاق مجتمعة من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك » . فقال : « وأين البعض ؟ » . قال الشيخ : « موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم » .

ثم أخبره عن الشيخ الجبرتى (والد المؤرخ) ، فقال : « وكيف الطريق الى حضوره ؟ » فقال : « تكتبون اليه ارسالية مع بعض خواصكم ، فلا يسعه الامتناع » ، ففعل . فلبى دعوته ، فسر به ، ولازم المطالعة عليه مدة ولايته . ولما طالع « ربح الدستور » ، طالع بعده « وسيلة الطلاب » ، وهو مؤلف ذقيق للعلامة الماردىنى ، فكان الباشا يختلى بنفسه ، ويستخرج منه بالطرق الحسابية ثم بالتجيب ، فيجده مطابقا ، فسر بذلك ، وخلع على الشيخ فروة من ملبوسه السمور فباعها بثمانمائة دينار .

هذه القصة .. والوثيقة

هذه القصة التى رواها الجبرتى تلتقى مع تلك الوثيقة التى كتبها مشيخة الأزهر عام ١٢٨٢ للهجرة ، فى أن مواد العلوم الرياضية لم تنقرض من الأزهر حتى فى عهد الركود والجمود ، وانما

لكل من يهتم بالعلم ، ويكفل تخريج علماء على أساس امتحان صحيح تبرز فيه ملكاتهم ، وقدرتهم على الجدل والمناقشة . فقد كان يشاهد في الأزهر تلاميذ بلغوا من العمر ستين عاما وأكثر ، وعلماء لا يعرفون من العلم ما يستحقون به أن يكونوا من العلماء . فرأى الشيخ محمد العباسي شيخ الأزهر وجوب العمل على وقاية العلم وأهله من هذا البلاء^١ .

وهذا السبب لا يتعارض مع ما ذكرناه ، بل يضاف إليه ، ويساعده ، ويشد أزره في إذكاء روح المقاومة ، والتصلب فيها على النحو الذي عرفه الجميع عن الأزهريين وقتذاك .

جموده سر خلوده

وقد قلت في كتابي «مشاعل على الطريق» : قد يؤخذ على الأزهر هذا الجمود الذي اتسعت به حياته العقلية في تلك الفترة من تاريخ مصر ، ولكن جموده كان سر خلوده ، فقد كان ينظر بعين ملؤها الريبة والاستنكار لكل ماتحملة أوروبا إلى الشرق . وكان عمل أوروبا ودولها في تلك الفترة هو محاولة الغزو والسطو ، وتقويض كل مقومات القومية العربية والروح الإسلامي في الشرق ، ومن ثم جمد الأزهر على ما ورث من تراث ، ووقف موقف الحريص على ذخائره ونفائسه ، ولو انماح لضاع وضاعت معه لغتنا وقوميتنا . وبحسب القراء أن يذكروا دنلوب في مصر وسياسة التعليم فيها أيام دنلوب ، ولغة التعليم في عهد دنلوب ... ليذكروا أن الأزهر في جموده وحرصه على تراثهم الإسلامي والعربي كان يدخر للنهضة الحرة في عهد هذه الثورة العوامل التي دفعتها إلى أن تعلن في أول دستور أعلنته باسم الشعب أن مصر جزء من الأمة العربية ، وأن دينها الإسلام ، وأن لغتها هي العربية الفصحى .

هذه هي الحالة العلمية التي سادت الأزهر عدة قرون وأجيال ، وظلت طابعه الغالب حتى قبض الله للعالم الإسلامي حكيما ثوريا فيلسوفا ، هو جمال الدين الأفغاني ، واماما مصلحا غيورا هو الشيخ

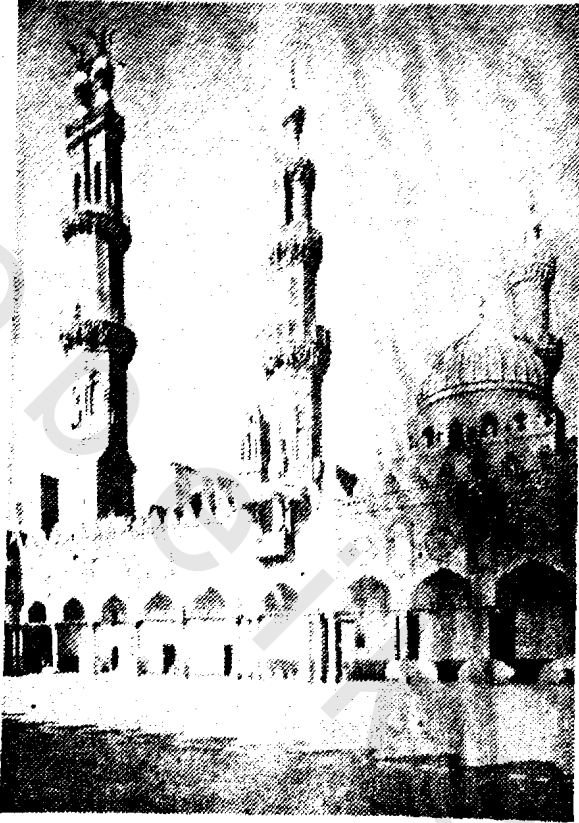
يكفل حماية الأزهر من العناصر التي لا تمت إلى العلم بسبب ، ويكفل تخريج علماء على أساس امتحان صحيح تبرز فيه ملكاتهم ، وقدرتهم على الجدل والمناقشة . فقد كان يشاهد في الأزهر تلاميذ بلغوا من العمر ستين عاما وأكثر ، وعلماء لا يعرفون من العلم ما يستحقون به أن يكونوا من العلماء . فرأى الشيخ محمد العباسي شيخ الأزهر وجوب العمل على وقاية العلم وأهله من هذا البلاء^١ .

وقد حدد هذا القانون نيل العالمية بالامتحان أمام لجنة من العلماء يختارهم شيخ الأزهر ، على أن يقسم العلماء ثلاث درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة وحدد علوم الامتحان بأحد عشر علما هي : الفقه ، الأصول ، التوحيد ، الحديث ، التفسير ، النحو ، الصرف ، المعاني ، البيان ، البديع ، المنطق . وهذه العلوم كما نرى هي العلوم التي كانت تدرس في الأزهر من قبل .

سبب آخر

وهناك سبب آخر يراه المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز سر المقاومة التي عارض بها الأزهريون محمد علي فيما كان يحاوله من إدخال اصلاح على مناهج الدراسة في الأزهر ، وازدادة مواد العلوم الحديثة إلى المواد التي جمد عليها ، وظل هذا السبب سر المقاومة التي واجه بها الأزهريون من بعد هذه الفكرة ، حتى آمنوا بها بعد ذلك في كثير من التحفظ والحرص الشديد ... هذا السبب أو السر هو طابع الالتزام والقوة . وفي ذلك يقول رحمه الله : « أن سر المقاومة الأولى لم يكن هو الغرابة التامة لهذه العلوم ، ولا مجرد ورود أسائها في المنهاج ، ولكن طابع الالتزام بجميع هذه المواد

(١) الأستاذ مصطفى حبيب ، محاضرة له ضمن كتاب « الأزهر في المؤتمر الثقافي العربي » عام ١٩٥٠ م .



الجامع الأزهر

عبد الحى بن عبد الحق الشرنبلى المتوفى عام ١١١٧ للهجرة .

هذه بعض أسماء العلماء الذين تولوا التدريس بالأزهر فى أوائل العصر العثمانى وأواسطه .

ثم نطالع بعد هؤلاء من علماء القرن الثانى عشر للهجرة ، أسماء الدردبرى والعدوى والشرقاوى والشيبى ، والفقيه الشيخ الحماقى الحفنى ، والمحدث المقرئ شمس الدين محمد بن قاسم البقرى ، والمحدث منصور بن عبد الرازق الطوخى الشافعى ، والفقيه الصالح الشيخ أحمد بن أحمد السبلاوى ، والشاعر الكاتب محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى ، والفقيه المحدث شيخ الاسلام الشيخ أحمد بن الحسن الخالدى الشافعى الأزهرى ، الشهير بالجوهري ، والشيخ عبد الرؤوف بن محمد البشيشى ، وشيخ مشايخ

محمد عبده . فقد كان الأول ثورة مستتيرة تلقى بذور الاصلاح الدينى والسياسى فى كل بلد تحل به ، وكان الثانى تلميذ الأول وحامل لواء ثورته ومبادئ اصلاحه من بعده . وكان لهما فى اصلاح الأزهر جهود موفقة آتت ولا تزال تؤتى ثمراتها .

قائمة بأسماء العلماء

وقد اشتهر من علماء الأزهر كثير من العلماء الذين تولوا التدريس فيه خلال تلك القرون ، وآلفوا وصنفوا فى مختلف المواد التى ذكرناها ، وكان لهم فى مجال التعليم باع طويل ، واثر عميق . ولا يتسع المقام هنا لسرد أسمائهم ومؤلفاتهم ، ولكننا نكتفى بالإشارة الى ما ذكر فى كتاب « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » ، وهو مخطوط بدار الكتب ، وما ذكر فى « عجائب الآثار » للجبرتى فى الجزء الأول ، من تراجم وافية لهؤلاء ، ومنهم : نور الدين على البحيرى الشافعى المتوفى عام ٩٤٤ هـ ، والعلامة شهاب الدين بن عبد الحق السنباطى المتوفى عام ٩٥٠ هـ ، وعبد الرحمن المناوى المتوفى عام ٩٥٠ هـ ، وشمس الدين الشيشنى القاهري الشافعى ، والامام شمس الدين أبو عبد الله العلقمى المتوفى عام ٩٦٢ هـ ، والامام شمس الدين الصفدى المقدسى الشافعى المتوفى حوالى عام ٩٩٠ هـ ، وعبد الباقي ابن يوسف الزرقانى المالكى المتوفى عام ١٠٩٩ هـ ، والعلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمنائى المتوفى عام ١١٠١ هـ ، والعلامة شمس الدين محمد ابن محمد ، الشهير بالشرنابلى ، المتوفى عام ١١٠٢ هـ ، والامام العلامة ابراهيم بن محمد شهاب الدين البرمائى المتوفى عام ١١٠٦ هـ ، والشيخ حسن بن على بن محمد الجبرتى — جد والد الجبرتى المؤرخ — وقد توفى عام ١١١٦ هـ ، والعلامة

ثورة داخلية ... كما يذكر ابن اياس أن السلطان سليم شاه العثماني دخل الجامع الأزهر يوم الجمعة عام ٩٢٣ هـ ، فصرى به الجمعة ، وتصديق هناك بمبلغ كبير ، وأن السلطان الأعظم عبد العزيز خان زار كذلك الأزهر ، وأنفق فيه الكثير .

وهناك الى ذاك ظواهر أخرى كثيرة تدل على مبلغ اهتمام الخلفاء والولاة والأمراء بالأزهر في ذلك العهد ، وعلى مبلغ ما كان يتمتع به علماءه من نفوذ وسلطان ، منها ما أدخل عليه من عمارات كان أهمها عمارة الأمير عبد الرحمن كتحذا المتوفى في عام ١١٩٠ للهجرة (وستحدث عنها فيما بعد لأهميتها) ، ومنها الأوقاف الكثيرة التى حبست عليه . أما نفوذ علمائه ، وسعة سلطانهم ، وتصدرهم لقيادة الشعب ، فحسبنا أن نشير الى عدة حوادث وقعت في هذا العهد تشبه مواقفهم فيها موقف شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام مع المماليك .

ابن عبد الحق مع داود باشا

ذكر الشيخ أحمد بن سعد الدين العثماني العمري ، من علماء أوائل القرن الحادى عشر للهجرة ، في كتابه الشمرى « ذخيرة الاعلام بتاريخ الخلفاء العلماء وأمراء مصر الحكام ، وقضاة قضائها في الأحكام » أن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى قال عن داود باشا الذى صارت اليه ولاية مصر عام ٩٤٥ للهجرة ، وهو بسوكبه في شهر شعبان عام ٩٥٠ : « انه رقيق ، لا يجوز له أن يتولى الأحكام ، وان أحكامه باطلة ما لم يحصل على عتقه » .

فاغتاز الباشا ، وهم أن يضربه بسيفه ، فتردد عليه الجند ونهروه ، وانحازوا الى الشيخ ابن عبد الحق . فأرسل الباشا نبأ هذه الحادثة الى

الاسلام الشيخ على العدوى المالكي ، والمفتى النقيه الشيخ ابراهيم الشرقاوى ، والشيخ على الشاورى المالكي ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد الخالدى المالكي ، والشيخ مصطفى الدمنهورى ، والشيخ عبد الرحمن الأجهورى ، والشيخ محمد بن على الصبان ، والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ شهاب الدين السمنودى المحلى ، والشيخ أحمد السمالىحى الشافعى ، والشيخ عبد الرحمن النحراوى الأجهورى ... الى آخر ما سرده الجبرتي في تاريخه مما لا يتسع له المجال .

ولهؤلاء العلماء ، مع ما كانوا يقومون به من التعليم والتدريس بالأزهر ، مؤلفات لاتزال تدرس حتى الآن ، ولا يزال الانتفاع بها موصولا في الأزهر .

الزعامة الشعبية

وعلى الرغم من جمود الحركة الفكرية في الأزهر خلال تلك القرون ، ودوران البحث فيه حول النصوص والعبارات ، فقد كان له صوت مسموع ، ورأى مطاع في كل ما تتعرض له البلاد من أحداث ... بل لقد انتهت اليه قيادة الشعب ، وأصبح بيده أمر توجيهه ، على الرغم من أن الخلافة الاسلامية انتقلت الى تركيا ، وانتقل معها النفوذ الدينى الذى كان يستخدمه الخلفاء العثمانيون في بسط سلطانهم على العالم الاسلامى والشرق العربى .

وهناك ظواهر كثيرة تدل على أن الأزهر كان من المهابة بحيث حصل الغزاة على أن يحسبوا لخطر مركزه حسابا . ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أنهم كانوا يبتعدون عن كل مساس به ، ويحلونه مكانا خاصا ، ويحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث اضطراب أو

ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم .

فلما كان بعد المغرب ، حضر سليم آغا ومحمد كتحدا الجلفى كتحدا ابراهيم بك ، وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير ، وتكلموا معه ، وخافوا من تضاعف الحال ، وقالوا : اكتبوا لنا قائمة بالمنهوبات ، ونأتى بها من محل ما تكون . وقرأوا الفاتحة على ذلك وانصرفوا . وركب الشيخ الى ابراهيم بك ، وأرسل الى حسين بك وأحضره ، وكلمه فى ذلك فقال : « كلنا نهابون أنت تنهب ، ومراد بك ينهب ، وأنا أنهب » ، ثم انقض المجلس ، وبردت القضية ، كما جاء فى الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك نقلا عن الجبرتنى .

الشرقاوى مع الألفى

وفى عام ١٣٠٩ شكا أهل قرية من قرى بليس الى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، من ظلم محمد بك الألفى ورجاله ، فأبلغ الشيخ شكواهم الى مراد بك وابراهيم بك ، وطلب منهما كف أذى محمد بك الألفى عن الفلاحين ، فلم يفعلوا شيئا . فعقد الشيخ الشرقاوى اجتماعا فى الأزهر حضره العلماء . وبعد التشاور فى الأمر استقر رأيهم على مقاومة هؤلاء الأمراء بالقوة ، وقرروا اغلاق أبواب الأزهر ، وأمروا الناس باغلاق الأسواق والحوانيت استعدادا للقتال .

ثم توجه الشيخ فى اليوم التالى الى منزل الشيخ السادات ، ومعه العلماء والجهاهير من خلفهم . ورأى ابراهيم بك من قصره — وكان قريبا من بيت السادات — هذه الجباهير المحتشدة ، وسمع أن العلماء مجتمعون عند السادات ، فأسرع وأرسل أيوب بك الدفتردار يسأل عن غايتهم ورغبتهم ، فقالوا له : « نريد العدل ، ورفع الظلم

السلطان ، فأنعم عليه بالعتق ، وطلب اليه أن يبلغ الشكر الى الشيخ ، فذهب اليه الباشا ، واسترضاه وقبل رجله ، وحاول أن يقدم اليه مالا وهدية ، فلم يقبل الشيخ منه شيئا من ذلك . ولكن الباشا منذ ذلك الحين أصبح لا يرد للشيخ رأيا ، ولا يرفض له شفاعة . وقد جاء فى القصيدة التى حكى فيها المؤلف هذه الواقعة قوله :

لما صفى الباشا للكلام

هم بضرب الشيخ بالحسام

قال له الجند فدع جذب الحسام

فان هذا شيخ الاسلام الامام

وقد أورد هذه الحادثة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « الأزهر فى ألف عام » . وذكر أن هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٤ تاريخ .

الدردير مع مراد بك

وللشيخ الدردير مع المالك مواقف كان فيها الزعيم الدينى ، والقائد الشعبى ، نذكر منها حادثة الحسينية المشهورة ... فان حسين بك شفت ركب بجنده الى الحسينية ، وهجم على دار أحمد سالم الجزار رئيس دراويش الشيخ البيومى ونهبه ، ونهب فيما نهبه حلى النساء والقرش . فثار أهل الحسينية ، وحضروا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، وانضم اليهم كثيرون من العامة ، وبأيديهم نبايت ومساق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير ، فساعدهم وقال : أنا معكم . ثم خرجوا من نواحي الجامع ، وأقفلوا أبوابه ، وصعد منهم طائفة على المنارات ، يصيحون ويدقون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة ، وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : « فى غد نجتمع أهالى الأطراف والحارات ، وبولاق ، ومصر القديمة ، ونركب معهم ، ونهب بيوتهم كما

وهي « رفع المظالم ما عدا ديوان بولاق ، وأن يكفوا أتباعهم عن مد أيديهم الى أموال الناس ، ويسيروا في الناس سيرة حسنة » .

وثيقة دستورية

وقد سجل القاضي الشرعى هذه القرارات في محضر أو حجة ، ثم وقع عليها انوالى ، وختم عليها ابراهيم بك ، وأرسلها الى مراد بك فختم عليها كذلك ... وبذلك انحلت المشكلة ، وانجلت الأزمة ، وعاد العلماء من هذا الاجتماع بين مواكب الشعب وهتاف الأهلىن « حسب ما رسمه ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطلالة من مملكة الديار المصرية » .

وقد كانت هذه الوثيقة التى انتزعها الشعب من الحكام بأيدي علمائه ، هى النواة الأولى للنظام الدستورى ... بل كانت هذه الحجة فى رأى أكثر المؤرخين من الفرنجة بمثابة وثيقة سبقت بها مصر غيرها فى اعلان حقوق الانسان .

هذه المواقف — وهى قليل من كثير — ترسم لنا صورة واضحة الملامح لما كان يتمتع به الأزهر وعلمائه فى ذلك العهد من نفوذ الكلمة وقوة السلطان وثقة الشعب . وقد ترجم هذه المعانى أمير الشعر أحمد شوقى بقوله فى قصيدته عن الأزهر :

واذكره بعد المسجدين معظما
لمساجد الله الثلاثة مكبرا
واخشع مليا واقض حق أئمة
طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة
وأعز سلطانا وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم
حرم الأمان ، وكان ظلهم الذرا

والجور ، واقامة الشرع ، وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتها وأحدثتها » .

ولما رد عليهم بأنه لا يمكن اجابة كل هذا ، وقال : « اننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات » ، قالوا له : « ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس . وما الباعث على الاكثار من النفقات ، وشراء الممالك ... والأمير يكون أميراً بالاعطاء لا بالأخذ ؟ » ، فقال لهم : « حتى أبلغ » ثم انصرف ولم يعد اليهم .

الثورة

وأيقن العلماء أنه لا بد من الثورة ، فصمموا عليها ، وعزموا على أن يخوضوا مع هؤلاء الأمراء معركة يستشهدون فيها أو يردون بها الى الشعب حقوقه المقتضية . ثم أعلموا أهل القاهرة بما انعقد عليه عزمهم ، فحفت جموع الشعب من كل صوب وحذب الى الجامع الأزهر ، وباتوا مع العلماء فى داخله ومن حوله .

ورأى ابراهيم بك أن الأمر جد ، وأن الخطر كاد يحرق به ويطبق عليه ، فبعث الى العلماء يعتذر لهم ، ويتصل من تبعة ما حدث ، ويلقيها على مراد بك . ثم أرسل الى مراد ينذره ويحذره من هذه الثورة التى أوشكت أن تشتعل .

ورأى كذلك والى مصر استفحال الخطر ، فتوجه الى منزل ابراهيم بك فى اليوم الثالث ، واجتمع مع أمراء الممالك ، ثم اتخذوا قرارا بضرورة الاسراع فى حل المشكلة قبل أن تشتعل الثورة ، ثم أرسلوا الى العلماء يستدعونهم . فحضر الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير . ودار الحديث حول حقوق الشعب ، فلم يستطع ابراهيم بك ومراد بك والأمراء الا أن يذعنوا لآراء العلماء ،

على العهد والميثاق

وقد بقى الأزهر بعد ذلك على العهد والميثاق الذى أخذه على الحكام ، وأخذ نفسه بضرورة القيام على العناية به والمحافظة عليه ... حتى نكبت مصر بالحملة الفرنسية ، وتم للفرنسيين الاستيلاء على القلعة ، فكان المركز الرئيسى للثورة . وقد أرسل نابليون الى مشايخ الأزهر رسالة فلم يجيبوه عليها ، حتى مل من المطاوعة . فضرب الأزهر بالمدافع ، وتتابع ضربه بها من القلعة وتلال البرقية ، حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت جدران الدور ... فركب العلماء اليه ليكف عسكره عن الرمي ، فعاتبهم ، وقبل عذرهم ، ثم قاموا من عنده ينادون بالأمان فى المسالك والطرقات .

شهداء ..

ولكن هذه الفترة من الأمان لم تطل ، اذ ثارت فتنة بين أهل الحسينية والعطوف من جانب ، وبين الافرنج من جانب آخر ، وظل الترامى بالبارود بين الطائفتين حتى نفذ من الأولى ، فظل الفرنج يتابعون الرمي ، ثم دخلوا المدينة فى الليل ، ومروا بالأزقة والشوارع ، وهدموا المتاريس التى كانت مقامة فيها ، ثم دخلوا الجامع الأزهر على خيولهم ، وانتشروا فى جميع أنحاء ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فى أروقه ، وكسروا قناديله وسهاراته ، وحطموا خزائن كتب الطلبة ، ونهبوا أمتعتهم ، وبعثروا الكتب والمصاحف على الأرض ، وداسوها بأرجلهم ونعالهم ، وبالوا عليها ، وتغوطوا ، وجردوا كل من وجدوه فيه ، وأخرجوه منه .

وفى الصباح وقفوا مصطفىين أمام بابه ، فكان كل من يحضر لأداة الصلاة يراهم فيكر راجعا . وقد امتدت أيدهم بالنهب الى بعض المنازل القريبة منه ، وبقي الأمر كذلك — كما يقول

الجبرنى — يومين قتل فيهما خلائق لا تحصى ، ونهبت أموال لا تستقصى . فركب المشايخ بأجمعهم ، وذهبوا الى بيت سر عسكر الفرنساوية ، وطلبوا منه الأمان . فوعدهم مع التسوية ، وطلب منهم بيانا بمن تسبب فى اثاره الفتنة من المممين ، فقالطوه . فقال لهم على لسان الترجمان : « نحن نعرفهم بالواحد » . فرجوه فى اخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فأجابهم لذلك ، وأمر بخروجهم ، وأسكن منهم نحو السبعين فى الخطة .

وقد قبض على الشيخ سليمان الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الله الشبراوى ، والشيخ يوسف المصلى ، والشيخ اسماعيل البراوى ، وجسوا فى بيت الشيخ البكرى . وركب الشيخ السادات وبعض المشايخ الى بيت سر عسكر ليشفعوا فى الافراج عن المسجونين ، فطلب اليهم التريث وعدم الاستعجال .

وبعد أيام توجه جماعة من الجنود الفرنسيين الى بيت البكرى فى منتصف الليل ، وطلبوا المشايخ المحبوسين لمقابلة سر عسكر ، والتحدث معهم ، فذهبوا بهم الى بيت قائمقام بدر الجماميز ، وهناك جردوهم من ثيابهم ، وساقوهم عرايا الى القلعة ، فسجنوهم بها حتى الصباح ، ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ، وألقوا بجثثهم خلف القلعة .

قادة الشعب

والاستطراد فى الحديث عن موقف الأزهر من الفرنسيين قد يخرج بنا عن موضوع بحثنا ، فحسبنا أن نشير مجرد اشارة الى أسماء المشايخ : مصطفى الصاوى ، ومحمد الجوهري ، والسادات ،

تعذيب

وقد تمكن الفرنسيون بعد الثورة الثانية التي نظمها السيد عمر مكرم ، من القبض على الشيخ السادات وسجنه في غرفة قذرة بالقلعة ، حيث كان ينام على التراب ، ويتوسد الحجر ، ويضرب بين كل حين وآخر ضربا مبرحا . ثم فرضوا عليه غرامة قدرها ثمانمائة ألف فرنك ، وسمح له بالخروج الى داره مخفورا بالجنود ليؤدي هذه الغرامة . ثم أعيد الى السجن حيث صار يضرب في الصباح خمس عشرة عصا ، وفي المساء مثلها ... ثم جد الفرنسيون في البحث عن زوجته وابنه حتى قبضوا على تابعه محمد السندوبى وعذبوه ليرشداهم الى مكانهما ، حتى اعترف ودلهم عليهما ، فقبضوا عليهما ، وسجنوا زوجة السادات معه لتراه وهو يضرب أمامها كل يوم . ثم شفع كبار العلماء لنقلها من السجن ، فأصدر الجنرال كليبر أمرا بنقلها الى منزل الشيخ الفيومى .

وصودرت أملاك الشيخ السادات ومرتباته ، وأوقاف أسلافه ، وبقي معتقلا حتى أفرج عنه في عهد مينو عام ١٨٠٠ للميلاد ، على ألا يجتمع بالناس ، ولا يركب دون إذن من القيادة الفرنسية . ثم اعتقل للمرة الرابعة في مارس من عام ١٨٠١ م وتوفي ابنه أثناء اعتقاله ، فاذن له بتشيع جنازته وهو مخفور بالجنود ، ثم أعيد الى السجن .

ويذكر المؤرخون أن نابليون قال في مذكراته : « ان تعذيب الشيخ السادات كان من أهم الأسباب التي أدت الى مصرع الجنرال كليبر في ١٤ من يونيه سنة ١٨٠٠ » . ومعروف أن الذى قتله طالب أزهري يدعى سليمان الحلبي .

أما السيد عمر مكرم فقد استطاع أن يغادر القاهرة قبل أن يقع في قبضة الفرنسيين ، فتركها وترك أملاكه فيها تنهب وتصادر ، ولم يعد اليها الا بعد جلاء الفرنسيين عنها في عام ١٨٠١ للميلاد .

وعمر مكرم ، وعبد الله الشرقاوى ... فقد كان هؤلاء قادة الشعب في مقاومة المحتل ، وقد وقع عليهم من اضطهاد الفرنسيين ما تتحدث عنه كتب التاريخ في بسط واسهاب .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الأزهر مركز ثورة القاهرة ضد الفرنسيين ... بل كان علماءه هم النواب الحقيقيين المتحدئين باسم الشعب . أما الأمراء من المماليك فقد ذابوا ، وذابت أسماؤهم في خلال تلك المحنة . ولم يعد يظهر لهم أثر ، أو يذكر لهم خبر بعد هزيمتهم أمام الفرنسيين في انبابة . فقد فر مراد بك الى الصعيد مع فلول جنده ، وأحرق ابراهيم بك ما كان معه من السفن المحملة على ضفة النيل عند بولاق ، ثم فر ومن معه من المماليك والباشا التركى الى الشرقية ، ثم الى سوريا ... وبقي الأزهر وعلماءه ، وبقيت القاهرة وروحها الباسلة تقاوم الغزاة ، وتتحين الفرص للاقتضاض عليهم واشتعال نار الثورات في جميع أنحاء البلاد ضد هؤلاء الغزاة الأجانب .

وقد اشتهر من هذه الثورات ثورتان كبيرتان قامت بهما القاهرة في الأولى في جمادى الأولى عام ١٢١٣ للهجرة (١٧٩٨ م) بقيادة الشيخ السادات . والثانية في شوال عام ١٢١٤ للهجرة (١٨٠٠ م) بقيادة السيد عمر مكرم تقيب الأشراف .

ويذكر المؤرخون أنه بعد ثورة القاهرة الأولى وجه نابليون نظره الى الأزهر ، لأنه كان يعلم أنه المسكر العام للثورة . فقبض على زعماء الحركة ، وأصدر أمره الى الجنرال بون ، قومندان القاهرة ، بأن يأخذهم ليلا ، ويعدمهم على شاطئ النيل بين مصر القديمة وبولاق ، ثم يلقى بجثثهم في النهر ، وبهذه الطريقة لم يستطع المؤرخون تسجيل أسماء كثيرين من المجاهدين الذين أعدموا ، ولا تدوين تاريخهم .

الشفق الدامي

ان تاريخ الأزهر في هذه الفترة مخضب بدماء الأحرار من رجاله ، وهو بهذه الصبغة يمثل في تاريخ مصر حمرة الشفق الرائع الجميل في سمائها الصافية ... وما كان للأزهر أن يفرط في ذرة من حقوق بلده ، أو يبخل بأنهار الدماء تجري من عروق أبنائه ، وهو يرى الغازي الأجنبي يطأ بأقدامه الدنسة أرض العروبة الطاهرة .

لقد كان من الجائز أن يسكت — وهو لم يسكت — عن الممالك والسلطين ، لأنهم كانوا جنودا في جيش الخلافة الاسلامية ، يرفعون رايثها ، ويذودون عن حماها ... ولأن القومية بمعناها الضيق المحلي لم تكن قد أخذت مسيلها الى الأذهان . أما وقد وقعت الواقعة ، وحلت الكارثة ، وأصبح حكام البلاد أعداء دينها ، وأعداء عروبتها ... فلا مجال للتردد في المقاومة ، وبذل النفس والنفس في الدفاع عن البلاد ، وتحرير أرضها من الغزاة المستبدين . وهذا ما كان من الأزهر وعلماؤه ، ومن مصر كلها حول الأزهر وخلف علمائه .

مصدر السلطات

وجلا الفرنسيون عن مصر ، وعاد الممالك و « الباشا » يتابعون خطتهم القديمة في حدم البلاد تحت ظلال الخلافة الاسلامية . وعاد السيد عمر مكرم الى القاهرة ليقوم مع الشيخ عبد الله الشراقوى بتوجيه الشعب ومراقبة الحكام . ولكن فساد الممالك عاد اسوا مما كان ... فقد كانوا يغيرون على القرى ، ويجمعون الضرائب ، ويستولون عليها لانفاقها في ملاذهم وشهواتهم . وكان الولاة من الضعف وسوء التدبير بحيث لم يستطيعوا ارضاء الشعب أو ارضاء الممالك ، أو دفع مرتبات الجند ، فقتل منهم اثنان ، وسجن

منهم ثلاثة في القلعة ، ثم طردوا من مصر . وكان آخرهم أحمد خورشيد باشا .

واتهم محمد على — وكان أحد قواد الفرقة الألبانية — فرصة التذمر الذى ساد طبقات الشعب ، فأخذ يتقرب الى زعيمه السيد عمر مكرم ، ويؤوره في الليل سرا ، ويستميله بشتى الوعود ، ويعدّه بأن يسير — اذا آل اليه أمر الحكم — حسب أوامر الشرع ، ويمنع وقوع المظالم ، وألا يبرم أمرا دون أن يستشير فيه العلماء ... فاذا خالف شرطا من هذه الشروط فلهم أن يعزلوه ، ويخرجوه من الحكم

اجتماع عام

وما زال محمد على تتودد الى السيد عمر مكرم ، ويقسم له الأيمان على صدق نيته ، وإخلاصه ، وعزمه على العمل لما فيه خير البلاد والعباد ، حتى قبل السيد عمر مساعدته ، وأخذ على عاتقه اقناع العلماء برأيه ... ثم أذاع نداء دعا فيه الشعب الى الاجتماع أمام المحكمة ، في بيت القاضى ، فأسرع الناس أفرادا وجماعات الى مكان الاجتماع ، وأقبل المزارعون من الضواحي في مظاهرات صاحبة اكتظت بها الطرق والمسالك المؤدية الى المحكمة ، وهم يهتفون : « يارب بامتجلى ، أهلك العثماني »

ثم أقبل السيد عمر مكرم ، فأقترح عزل الوالى ، وبوليه محمد على مكانه . وكتب العلماء عريضة بالمظالم بعثوا بها الى الوالى ... ثم طلبوا اليه أن ينزل على ارادة الشعب ، ويتحلى عن الحكم فكبر عليه أن يدعن لارادتهم ، وقال : « اننى معين بأمر السلطان ، فلا أنزل بارادة الفلاحين » .

وكان هذا الرد هو الشرارة التى أشعلت نار الغيظ فى صدور العلماء ، فأجمعوا الراى على

محاصرة القلعة ، وارغام الوالى على التنازل عن الحكم .

حصار القلعة

ولم يمض قليل من الوقت حتى كانت القلعة كالجزيرة بين طوفان من طوائف الشعب ... فما أسرع ما تكونت الفرق لتقييم المتاريس ، وتخفر الخنادق ، وتحرس مداخل المدينة . وما أسرع ما تسلح الشعب بالأسلحة البيضاء والهراوات .

وكان الزعيم السيد عمر مكرم لا يفتأ يتنقل بين الصفوف ليثير همم الشائرين ، ويذكرى روح المقاومة والتضحية ، ويشجع الجميع على احكام الحصار والاستعداد لساعة الزحف والقتال . فاقطعت الموارد عن الوالى ، وأسر حجاج الخضرى قافلة من الابل كانت محملة بالذخائر والمون فى طريقها الى القلعة . ثم قدمها الى القائد الذى رشحه الشعب للولاية .

ولم يجد الوالى بدا من التسليم ، والتخلى عن الحكم ... فقام شيخ الاسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى والسيد عمر مكرم الى محمد على ، ونصبا واليا على مصر . وتنادى الناس بذلك فى تلك الليلة ... ثم وصل مرسوم الدولة فى ١١ من ربيع الآخر عام ١٢٢٠ للهجرة (٩ من يولييه سنة ١٨٠٥ م) بتعيين محمد على واليا على مصر ، حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، كما يذكر الجبرتى .

ونخلص من هذا العرض السريع الموجز الذى قصد به مجرد تسجيل الظواهر العامة ، بأن الأزهر فى هذه الحقبة من التاريخ كانت قد انتهت اليه مقادة الشعب ، وأصبح اليه زمام أمره ... بل كان نابليون يدرك هذه الحقيقة جيدا عند أول دخوله القاهرة . ولهذا جمع العلماء ، وطلب اليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان

منهم ، فوقع اختيارهم على المشايخ : عبد الله الشرقاوى ، و خليل البكرى ، ومصطفى الصاوى ، وسليمان الفيومى ، ومحمد المهدي الكبير ، وموسى السرسى ، ومصطفى الدمنهورى ، وأحمد العريشى ، ويوسف الشبراخيتى ، ومحمد الدواخلى . ثم اختار هؤلاء الشيخ الشرقاوى رئيسا لهم . واحتفل نابليون بافتتاح الديوان ، وأكرم أعضاءه ، وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة .

وقد اعتبر بعض المؤرخين هذا الديوان فاتحة السلطة النيابية الانتخابية فى مصر ... ولكن هذا الاعتبار ينهار عندما يتصور القارىء أن صاحب فكرته هو نابليون ، وإن كانت هذه الفكرة تطبيقا لأمر كان واقعا بالفعل ، أو اعترافا بهذا الأمر الذى كان واقعا بالفعل .

جزاء سنمار

ولما انتهى الأمر الى محمد على لم يحافظ على الشروط والوعود والمعاهد التى قطعها على نفسه أمام العلماء ، بل أخذ يعمل على التنصل منها .

وكان أول ما بدر منه من تنكر للشعب رفضه لمعونة السيد عمر مكرم الحربية حين عرض عليه أن يشترك معه فى قتال الانجليز بعض الفرق التى نظمها وسلحها بالأسلحة الخفيفة ، فقد قال له محمد على : « عليكم بالمال وبمعدات الحرب . وعلى أنا وحدى مقاتلة المغيرين » . وهكذا حين صار اليه الأمر قلب للزعيم ظهر المجن ، وأخذ يقصيه عن الاشتراك فى المسائل العليا للدولة .

وكان يقتصب من مال الأوقاف ما يحتاج اليه ، فاجتمع السيد عمر مكرم بمشايخ الأزهر ، واحتجوا على هذا المسلك احتجاجا مرا . فأجابهم بقوله : « أنا وحدى الذى ينتفع بالضريبة ، وأما أتم فتبهظون كاهل الأمة بأثقل

الأعباء ... انكم تعقدون الاجتماعات في المساجد ،
وتكلمون عنى بلهجة تكاد تكون لهجة الأمر ،
وهذه نزعة باطلة لا يمكن قبولها بغير الازدراء
والاستخفاف ، وائنى على استعداد لأن أرمى
عق كل من يستظل بلواء المعارضة في وجه
سياستى .

محتال يجب عزله

وأمرع السيد عمر مكرم فجمع العلماء ، وقال
لهم : « ان هذا الحاكم محتال ، واذا تمكن
فسيصعب ازالته ، فلنعزله من الآن » ، ولكن
الخبر سرعان ما وصل الى محمد على ، فبادر
بنفى عمر مكرم الى دمياط . ولما علم السيد عمر
بذلك تلقى الأمر بشجاعة ، وقال : « ان النفى
غاية ما أتمناه ، غير اننى أريد أن أعيش في بلد
لا يدين بحكم محمد على » .

نفى عمر مكرم

وفي ١٣ من أغسطس عام ١٨٠٩ م ، كانت
الجموع مكتظة على ساحل النيل في بولاق
لتودع الزعيم وهو يجر في مركبه الى دمياط ،
وبذلك ، وبعد ذلك ، اختفت الزعامة الشعبية ،
وبدأ ظل الأزهر يتقلص من الميدان ، حتى خلا
الجو لهذا الحاكم الذى رفعه الشعب الى منصة
الحكم ، فاستبد به دونه ، وجعل من مصر
مزرعة لبنيه وأحفاده من بعده ، يعطى من يشاء ،
ويمنع منها من يشاء .

نهاية الشيخ الشرقاوى

أما الشيخ الشرقاوى فيذكر الأستاذ محمود
الخفيف ، في مقال نشر بالعدد العاشر من مجلة
الأزهر عام ١٣٧١ للهجرة ، أن محمد على باشا
جمع العلماء والأعيان ذات يوم ليعينوه على
ما تطلبه اصلاحاته من المال ، ثم تكلم أحد

مستشاريه فقال : « ان حصص كثير من المشايخ
مرفوع ما عليها من المقارم ، ويرجع تميم الغرامة
على حصص الشركاء » . فاحتد الشيخ الشرقاوى ،
وقال له : « أنت رجل سوء » ، وثار عليه باقى
المشايخ - كما يقول الجبرتى - وزاد فيهم
الصياح ، فقام الباشا من المجلس ، وتركهم وذهب
بعيدا عنهم .

وفي يوم الخميس الثانى من شهر شوال عام
١٢٢٧ مات الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وصلى
عليه بالأزهر في جمع كثير .

ويظهر لى أن محمد على أراد أن يستخدم
نفوذ العلماء في جمع ما يشتهى من المال ، ثم
رأى أن يسكتهم عن المعارضة بدعوى أن
حصص كثير منهم مرفوع ما عليها من المقارم ...
ولكن الشيخ الشرقاوى رأى في توجيه هذا
الكلام الى العلماء اهانة لهم ، واحتيالا على زيادة
الضرائب والمقارم على الشعب باسمهم ، فثار
لذلك ، وتبعه العلماء في ثورته حتى غادر محمد
على المجلس ، وذهب بعيدا عنهم .

تحت الرماد

ومضى محمد على في استبداده وانفراده
بالحكم بعد أن خلا له الجو ، ولم يقف في ارهاق
الشعب عند حد زيادة الضرائب والمقارم ... بل
ألقى ملكية الأراضى ، وجعل من مصر كلها مزرعة
له ولأولاده وأفراد أسرته ، بحجة أن الأرض
للحاكم ، ومنح الملتزمين أو أصحاب الأراضى التى
لزعت ملكيتها راتبا سنويا يعينهم على زراعتها ،
وعين نفسه ناظرا على أراضى الأوقاف بعد أن عزل
العلماء والمشايخ عن نظارتها ... وهكذا ظل
نفوذه يمتد ، وسلطانه يطغى تحت تقلص ظل
الأزهر ، وقبح علماؤه فيه ، وفقد الشعب زعماءه
وقادته الذين كانوا يملون ارادته على الحكام .

بجمود مشايحه ، فاخذ بلقيها بمنزله على من كان يلتف حوله من طلبة الأزهر المستتيرين ، ومن الموظفين وغيرهم . وكان يجمع بين الفلسفة الدينية والعلوم السياسية الحديثة ... فاذا حل يلد اسلامى لم يقتصر على دروس الدين والفلسفة ، بل يمزج دروسه بالسعوى الى المبادئ الدستورية لمحاربة الجهل والاستبداد والتدخل الأجنبى ، كما يقول محمد بك رفعت فى كتابه « تاريخ مصر السياسى » .

الثورة العرابية

ثم اشتعلت الثورة العرابية لأسباب كثيرة ليس هذا مجال بسطها ، وإنما نكتفى بذكر أهمها ، وهو التدخل الأجنبى ، واقتضائه على حقوق البلاد ، ورفض الحدو بوفيق لمشروع الدستور الذى قدمته وزارة شريف ، وتدمير الجيش المصرى من تفوق العنصر الجركسى والتركى فيه ، وقصر الترقى والألقاب على الضباط من غير المصريين .

اشتعلت الثورة بعد أن اكتملت مقدماتها وأدواتها ، فكان للأزهر فيها دور لا يمكن اهماله أو اغفاله .

بمن الثورة

ففى ٢٥ من مايو عام ١٨٨٢ م ، قدمت كل من انجلترا وفرنسا مذكرة تطلبان فيها ابعاد عرابى باشا ، وارسل كل من على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى الى آنة جهة داخل القطر المصرى ، واستقالة وزارة البارودى . فرفض مجلس الوزراء مطالب الدولتين ، واجتمع أحمد عرابى باشا ، ومحمود سامى باشا البارودى وكبار الضباط فى قشلاق عابدين ، واتفقوا على أن يكونوا يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد . وأرسلوا الى الشيخ

وطالت فترة الركون والجمود فى الأزهر ، وتغيرت معالم الحياة من حوله ، وهو على حاله لا يتغير . ولكن النهضة التى شهدتها البلاد فى مختلف مرافق الحياة كانت تقوم على دعائم من أبناءه الذين اصطفاهم محمد على ، وأوفدهم الى أوروبا كما أشرنا الى ذلك من قبل .

ثم كانت نهاية محمد على بإعلان خضوعه لسلطان تركيا ، وانسحاب جيشه من سوريا وبلاد العرب ، والاستعانة بانجلترا وحلفائها ، الذين حطموه وحطموا أسطوله ، على تعديل فرمان توليته ، بحيث تكون وراثة عرشه لأكبر أفراد الأسرة سنا ، وتكون الجزية التى يدفعها للسلطان بمقدار ٨٠٠٠٠ كيس أو ٤٠٠٠٠٠ جنيه سنويا ، وأن يكون للبasha حق منح الرقب العسكرية لغاة رتبة قائمقام ... وهكذا ظل يتضاءل ويتحاذل حتى فتم بثبيت عرشه وعرش أسرته فى أرض مصر بمعونة الدول الأجنبية . وكان هذا جل آمانيه .

وميض النار

ثم حكم مصر بعده ابراهيم ، ثم عباس الأول ، ثم سعد ، ثم اسماعيل ... فكان حكمهم كحكمه فى طابعه الانفرادى والاستبدادى ، ولم يكن للشعب معهم كلمة محترمة ، أو رأى مطاع . وكان الأزهر ، خلال تلك الحقبة المظلمة ، على ما ذكرنا من جمود وركود . ولكنه كان — وكان الشعب معه — ينطوى على جمر كامن ينتظر من ينفخ فيه ليشعل ضرامه ، ويوقد عرامه .

وقد كان أول نافخ فيه هو جمال الدين الأفغانى ... فقد وفد الى مصر عام ١٨٧١ م ، فنفت فيها روح حماسة وفلسفته ، وأوقد فيها مشاعل الإصلاح من أمثال الامام محمد عبده . وكان يلقى دروسه بالأزهر فى أول الأمر ، ثم ضاق

باشا بالدفاع عن البلاد ، وتكليف المجلس العرفي بتبليغ هذه القرارات للسلطان ، ووقع الحاضرون على قرار المؤتمر الوطنى .

وكان من العلماء الذين وقعوا عليه : شيخ الأزهر الشيخ محمد الانبأى ، والشيخ حسن العدوى ، والشيخ عبد الله الدرسناوى مفتى الحنفية ، والشيخ محمد عيش مفتى المالكية ، والشيخ يوسف الحنبلى مفتى الحنابلة ، والشيخ عبد الهادى الايبارى ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ خليل الغزائى ، والشيخ مسعود النابلسى ، والشيخ محمد العلاوى ، والشيخ زين المرصى ، والشيخ حسين المرصى ، والشيخ سليم عمر القلعاوى ، والشيخ عثمان مدوخ ، والشيخ عبد الرحمن السويسى . ووقعه من رجال القضاء الشرعى : الشيخ أبو العلا الخلفاوى ، والشيخ عبد القادر الرافعى ، والشيخ عبد القادر الدليشانى ، والشيخ أحمد الخشاب .

التعبئة

ولم يدخر العلماء جهدا فى تعبئة الوعى القومى ، فأخذوا يدعون الى التطوع فى الجيش وامدادهم بكل ما يحتاج اليه من مؤن وعتاد وتبرعات . وكان السيد عبد الله النديم حركة لا تهدأ ، وشعلة لا يخبو لها أوار ، حتى لقب خطيب الثورة ... كما كان الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى من أنشط الذين عملوا على انجاح هذه الثورة بكل ما يستطيعون .

محاكمة العلماء

ولما انتهت الثورة بما قدر لها من الفشل واحتلال الانجليز للبلاد ، قبض على زعمائها وقادتها لمحاكمتهم ، فكان لعلماء الأزهر نصيب كبير من هذه الأحكام ... اذ حكم على الشيخ عبد الرحمن

محمد عبده ليضع لهم صيغة يمين الثورة فوضعها لهم ، وتلاها عليهم ، فرددوها فى صوت واحد .

ديسة الخديو

ثم استقالت وزارة البارودى يوم ٢٦ من مايو عام ١٨٨٢ ، فأراد الخديو أن ييث روح الفرقة بين صفوف الزعماء ، ودعا الى عقد لاجتماع فى اليوم التالى حضره من العلماء الشيخ محمد الانبأى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد عيش ، والشيخ حسن العدوى ، والشيخ أبو العلا الخلفاوى . وحضره كذلك شريف باشا ، وكبار من النواب والضباط ، ثم عرض عليهم تشكيل وزارة برياسته وقبول المذكرة الانجليزية الفرنسية ، فرد عليه طلبة باشا عصمت بقوله : « ان هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ، ويستحيل علينا قبول أحد رئيسا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد باشا عرابى » ، وتبعه الشيخ عيش والعلماء فأعلنوا الموافقة على رأيه ، ثم غادروا مجلس الخديو دون استئذان .

مارق يجب عزله

ثم ضربت الاسكندرية فى ١١ من يولييه عام ١٨٨٢ ، وأصدر الخديو أمرا بعزل أحمد عرابى فى ٢٠ من يولييه . فاجتمع المؤتمر الوطنى فى ٢٢ من يولييه ليقرر موقف الأمة من الخديو ، بعد أن أعلن بتصرفاته انضمامه الى الانجليز ، ووقف الشيخ محمد عبده قتلا على أعضاء المؤتمر ما يثبت اذانة الخديو ، ومنشورات عرابى التى تدعو الى الدفاع عن الوطن ، ثم تليت فتوى شرعية أصدرها العلماء بمروق الخديو عن الدين لانحيازهم الى الجيش المحارب لبلادهم . فأصدر المؤتمر قراره التاريخى بعزل الخديو ، ووقف أوامره ، وتكليف عرابى

أن عمل الأزهر في هذه الثورة كان من السعة بحيث شمل القطر من أقصاه الى أقصاه .

خارج عن الدين والوطن

وقد ختم الأستاذ أحمد عز الدين عبد الله خلف الله هذا البحث الذي نشر في مجلة الأزهر بموقف عالم شجاع : رأينا أن نعرضه لما له من دلالة كبرى في هذا الموضوع .

فقد استدعى الشيخ حسن العدوى من السجن لمحاكمته يوم الثلاثاء ١٤ من المحرم عام ١٣٠٠ هـ (٥ من ديسمبر ١٨٨٢ م) ، ثم سئل : هل ختم على عزل الخديو واسناد أمر الدفاع عن البلاد الى عرابي باشا برغبته ورضاه أم لسبب آخر ؟

فأجاب رحمه الله بقوله : ختمت تابعا للعلماء الذين ختموا قبلى ... مثل شيخ الاسلام ، ومفتى الجامع الأزهر ، وشيخ الجامع وغيرهم . وكان ختمى برغبتي ورضاي للمدافعة الواجبة شرعا وسياسة ، وما كان لأحد أن يمتنع عن الختم .

ثم سئل : علم المجلس أنك أقتيت بعزل الجناح الخديو ، فهل هذا حقيقة أم لا ؟

فأجاب لم تصدر مني فتوى في ذلك ، ولم أسأل في هذه المادة ... ومع ذلك فاذا جئتمولى الآن بنشور فيه هذه الفتوى فاني أوقعه . وما في وسعكم وأتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل ، لأنه خرج عن الدين والوطن !!

ظلام الياس

انتهت الثورة العرابية كما أشرنا بالاقتلال البريطاني ، ومحاكمة الزعماء والعلماء ونفيهم خارج البلاد . وعاد الأزهر الى مجاله الضيق ، ونطاقه المحدود من الدراسة التقليدية التي ألفها وتعصب لها عدة قرون . وماد البلاد كلها ظلام

عليش بالنفى الى الاستانة خمس سنوات ، وعلى الشيخ عبد القادر قاضى مديرية القليوبية بالنفى الى بيروت أربع سنوات ، وعلى الشيخ محمد الهجرسى بالنفى الى مكة أربع سنوات ، وعلى الشيخ أحمد عبد الجواد القاياتى بالنفى الى بيروت أربع سنوات ، وعلى الشيخ محمد عبد الجواد القاياتى كذلك ، وعلى الشيخ يوسف شرابه بالنفى الى غزة أربع سنوات ، وعلى الشيخ محمد عبده بالنفى الى بيروت أربع سنوات . هذا مع تجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف.

احكام اخرى

وصدر على العلماء الآتية أساؤهم أحكام بتجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف ، وهم : الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ أحمد العدوى ، الشيخ أحمد المنصوري ، الشيخ محمد السمالوطى ، الشيخ أحمد البصرى ، الشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى العضو الأول بالمحكمة الشرعية ، الشيخ عبد الوهاب عبد المنعم قاضى اسنا سابقا ، الشيخ محمد أبو عائشة قاضى بور سعيد سابقا ، الشيخ على الجمال نقيب الأشراف بدمياط ، الشيخ أحمد عبد الغنى ، الشيخ محمد عسكر ، الشيخ أحمد مروان ، الشيخ محمد جبر قاضى المنصورة سابقا ، الشيخ عبد البر الرملى قاضى العريش سابقا ، الشيخ أحمد صلى نائب محكمة المنصورة سابقا ، الشيخ محمد غزال قاضى مركز البحيرة .

وقد ذكر هذا الأستاذ أحمد عز الدين عبد الله خلف الله المدرس بالأزهر في بحثه « الأزهر والثورة العرابية » ، وقد اعتمد فيه على كتاب الثورة العرابية للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى . ويبدو من ملاحظة وظائف هؤلاء العلماء وأماكنهم

اليأس ، والشعور بمرارة الغيبة والفشل الذي جاءت به الثورة العرابية . وامتدت يد الانجليز الى كل شيء في البلاد ، وصار اليهم كل أمر فيها ... الا ثلاث مؤسسات ، كانوا يحذرون الاقتراب منها بصورة ظاهرة ، خوفا من هياج الرأي العام ، وهى : الأزهر ، والمحاكم الشرعية ، وديوان الأوقاف .

وقد حدث فى عام ١٨٩٩ م أن فكر مستشار الحقانية الانجليزى فى إلغاء المحاكم الشرعية ، وضماها الى المحاكم الأهلية ، ولكن الانجليز ، كما يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه زعماء الإصلاح : « حسبوا حسابا لهياج الرأي العام ، فأرادوا أن يفعلوا ذلك تدريجا ، وذلك بتعيين مستشارين من محكمة الاستئناف عضوين فى المحكمة الشرعية العليا ، فلم يرض بذلك جمال الدين أفندى قاضى مصر التركى ، ولا الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية . وعرض المشروع على مجلس شورى القوانين فرفضه ، ووقف الشيخ حسونة موقفا صلبا انتهى بتركه المنصبين ، ووقف المشروع » . وقد كان هذا الاعتبار الذى تتمتع به هذه المؤسسات الثلاث مما يشعر الامام المصلح الشيخ محمد عبده بالحرص فى تنفيذ ما كان يراه من اصلاح ، اذ كان الخديو عباس يناهضه ويعارضه ، وبخاصة بعد أن رفض هو وحسن باشا عاصم رغبته فى أرض كان يريد استبدالها من الأوقاف الا اذا دفع للوقف عشرين ألف جنيه فرقا بين الصفقتين . وكان من جانب آخر يرى فى الاستعانة بالانجليز لتنفيذ مشروعاته الإصلاحية ، تمكينا لهم من مؤسسات هى آخر ما بقى فى مصر من مناطق حرة ، ومرافق اسلامية خالصة .

ولما صدر القانون رقم ١٠ سنة ١٩١١ بتكوين هيئة كبار العلماء هاجمه المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز ، لأنه كان يخشى أن يتسلل النفوذ الأجنبى الى هذه الهيئة فيوجهها عن طريق الحكومة الى خدمة أغراض لا تتفق مع صالح الأمة ورسالة الأزهر .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، فكانت تركيا مع ألمانيا ضد انجلترا وحلفائها . ووقع ما كان يتوقعه الشيخ عبد العزيز جاويز من استخدام هذه الهيئة طائعة أو مكرهة فى توجيه الرأي العام ضد تركيا وحليفتها ، فصدر منها بيان يشتمل على آية « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » . ولعل موقف تركيا من مصر ، وشعور المصريين بما كان من ظلم الأتراك فيها ، مما كان يسوغ اصدار مثل هذا البيان فى نظر الذين أصدروه ... ولكن شعور الأزهر بخاصة والمسلمين بعامة لم يكن فى هذا الاتجاه فيما يغلب على الظن .

وعلى أى حال فقد كان هذا الاتجاه ظاهرة بارزة فى الثورة العربية التى قادها الشريف حسين ضد تركيا ، فى الحركات التى انبعثت باسم القومية العربية فى سوريا ولبنان ، وفى اتجاه آمال كثيرين من المصريين الى أن تكون « مصر للمصريين » .

لقد كان الرأي العام العربى الاسلامى فى بلبلية واضطراب ، ولم تكن الذكريات المريرة التى يعرفها العرب عن حكم الأتراك بحيث تثير حماسهم للدفاع عن دولة الخلافة ، أو تفتح قلوبهم لكلام يقال فى الدفاع عنها . ومن ثم يجب أن تلاحظ هذه الاعتبارات كلها فى الحكم على هذا البيان الذى أصدرته هيئة كبار العلماء ، وذكرت فيه المسلمين بقول الله تعالى : « يا أيها

الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ... بل هنالك الى ذاك اعتبارات أخرى لابد من ملاحظتها عند الحكم على هذا الموقف . فقد كانت تركيا تحارب تبعا لألمانيا ، ولم تكن أصيلة في هذه الحرب ، وكانت الخلافة فيها — فوق أنها لم تقم على أساس شرعى — قد ضاق بها أهلها في بلادها ، فكيف بغيرهم من العرب والمسلمين في غير بلادها ؟

وفد أشار الى ذلك الأستاذ المرحوم أحمد أمين في حديثه عن عبد الرحمن الكواكبي فقال : « وبلغ الضيق في الشرق منتهاه في عهد السلطان عبد الحميد ولكن شدة الضغط تولد الانفجار ، والقسوة تفتق الحيلة ، وتوالى الاضطهاد يولد البغضاء ... فكثرت في هذا العهد الجمميات السرية ، تعمل لتحرير البلاد العثمانية من الظلم ، وتعمل لوضع نظام ديمقراطى لا يكون فيه السلطان الحاكم بأمره . وفر كثير من العثمانيين الى أوربة يدرسون نظام الحكم الأوربى ، وما وصلت اليه أوربة من البحوث الاجتماعية ، وأخذوا يكتبون ذلك في جرائدهم ومجلاتهم التى بحرروها خارج الحدود العثمانية ، ومنها تسرب الى البلاد نفسها . وأخذت مصر ، بعد انفصالها عن حكم العثمانيين ، تؤوى الأحرار ، وتؤيد القول في نقد نظام الحكم . وظهرت في الجرائد والمجلات مقالات بالعربية في تشریح أحوال الجماعات وأصول الحكومات ، وترجم الى العربية « أصول النوايس والشرائع » لمتسكو ، وبدأت موجات البحث الاجتماعى في أوربة تصل الى الشرق من طريق الترجمة وطريق المثقفين » .

هذا الى أن موقف علماء الأزهر من الخديو توفيق ، ومجاهرتهم بضرورة عرله ، وموقفهم

من محمد على في تعيينه وفي معارضته والتفكير في عزله بعد تعيينه كسا قدما ، وموقفهم من الممالك والوالى التركى على رأسهم ... لم يكن يعتمد على هوى الخليفة ، أو بحسب حسابا لسخطه ورضاه ، وإنما كان استجابة لما يرون فيه موافقة للدين ، ومحافظة على مصلحة الشعب . على أى حال ، ومهما تكن هذه الاعتبارات ، ومهما يكن حظ هذا البيان من الحكمة وسداد الرأى ، أو من الخطأ وسوء التقدير ... فقد كان يتلاقى — من حيث يشعرون أو لا يشعرون — مع اتجاه القوة الحاكمة في البلاد وقتذاك . وقد تكررت هذه المحاولة مرة أخرى في الحرب العالمية الثانية ، فرفض الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى أن يصدر بيانا بدعوة الشعوب العربية والاسلامية الى مناصرة الحلفاء ، مع ما كانت ترتبط به مصر مع إنجلترا من الالتزامات التى تضمنتها معاهدة سنة ١٩٣٦ ... بل وقف على منبر مسجد الرفاعى في يوم مشهود ، وقال كلمته الماثورة : « ان هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل » .

معارك داخلية

وبلاحظ المتبع لتاريخ الأزهر في الفترة التى أعقبت الثورة הראية عام ١٨٨٢ حتى قامت ثورة عام ١٩١٩ ، أنه كان يموج بحركة داخلية ومعارك محلية . فقد تعاقب على مشيخته في هذه الفترة شيوخ الأزهر الآتية أسماؤهم :

الشيخ شمس الدين محمد الانبأى ، والشيخ حسونه النواوى ، والشيخ عبد الرحمن القطب الحنفى النواوى ، والشيخ سليم البشرى ، والشيخ على البيلاوى ، والشيخ حسونه النواوى (مرة ثانية) ، والشيخ سليم البشرى (مرة ثانية أيضا) ، والشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى .

وأبلغ الأطباء أنهم أهينوا ، فحضر المحافظ الى الجامع الأزهر ، ومعه وكيل الحكمдар وكثيرون من الجنود ، فاعتدى الطلاب على المحافظ ، وقذفوه ومن كان معه بالحجارة ، فأصيب وكيل الحكمдар وجرح ، وكان باب الرواق مغلقا ، فطلب قوة عسكرية جديدة ، وضرب الحصار على الجامع .

ثم أمر الحكمдар المساكر بكسر الباب ، واطلاق الرصاص على الطلبة داخل الأزهر . وأطاع الجنود فخلعوا أحد أبوابه ، وأخذ الحكمдар يطلق النار ، فتبعه الجنود ، وتفرق الطلبة في أنحاء المسجد ، ثم دخل الضباط والجنود ، وأخذوا يقبضون على كل من يجدونه دون تمييز بين طالب وعالم . فقبضوا على ٨٢ من الشوام ، و٢٣ من المصريين وفيهم بعض المدرسين . وأصيب بالرصاص خمسة مات بعضهم في الحال ، وبعضهم بعد ذلك .

ويقول الشيخ عبد الكريم سلمان في تعليقه على هذا الحادث : « انه قد أخذ على الشيخ حسونة تهقره عن الذهاب الى المتهيجين منهم في الرواق قبل اشتداد الثورة فيهم ، وموافقة الحكومة على ما طلبته منه ، وهو كتابة خطاب الى الداخلية يبين فيه خطأ الشوام ، وأنهم كانوا في غاية من التعصب ، وعدم الانقياد للأوامر الرسمية ، يبرر بذلك اطلاق الرصاص عليهم ، واقفال الرواق عاما كاملا ، ومحاكمة الكثير منهم أمام المحاكم الأهلية ، ومعاقتهم بشديد العقوبات ... فكان من هذا وذاك أن وقع الشيخ حسونة في السنة الطلبة والعلماء والعامّة والفوغاء ، فسلقوه في مجالسهم » .

ثم يذكر أن مواقفه الأخرى العظيمة « جعلته يعود الى مكائته بين العامة والخاصة » ، ومن

وكان تعيين هؤلاء واستقالتهم في فترات قصيرة بأمر الخديو أو بإيعاز منه ، أو باحراج يحملهم على التخلي عن المنصب .

وكان الخديو يعد الى اثاره بعض الأزهرين على شيوخهم واستخدام بعض كبار شيوخهم ضد بعض . ومن أمثلة ذلك مذكره الشيخ عبد الكريم سلمان في كتاب « أعمال مجلس ادارة الأزهر » من « أنه في أوائل المحرم من عام ١٣١٢ قامت قيامة أهل الفضل من العلماء على المرحوم الشيخ محمد الانبأى شيخ الجامع الأزهر اذا ذاك ، فرفعوا العرائض الى الجناح العالي مفعمة بأن شيوخهم عاجز عن ادارة شئونهم ، وأنه خص أهل مذهبه الشافعية بخيرات الأزهر ، وأنه قصر عليهم كساوى التشريف على غير انصاف بين أهل مذهبه وبين بقية أهل المذاهب ... وما زالوا كذلك حتى أوقف الجناح العالي صدور الأوامر العالية بالانعام على من اختارهم الشيخ ، وخصهم بتلك الكساوى التشريفية » .

ثم يذكر الشيخ سلمان أن الخديو « أوعز الى مأمور رسمى عظيم بأن يحسن للشيخ الأنباى الاستقالة من منصبه ، فتردد الشيخ طويلا ، ثم انصاع بعد الى تلك النصائح التى اعتبرها أمرا ، وقدم استقالته » .

حادثة رواق الشوام

ثم عين بعده الشيخ حسونه النواوى ، فصادفته صعاب كثيرة ، منها حادثة الثورة التى وقعت في رواق الشوام .

فقد مرض أحد الطلبة فيه بالطاعون . ولما اتصل الأمر بالمسؤولين عملوا على عزله ونقله الى المستشفى ، فأبى اخوانه تسليمه ، لأنهم تخوفوا أن يكون مصيره مصير زميل آخر أخرج ولم يعد . ثم اشتدت الملاحة بين الأطباء والطلبة ،

ومصرفهما معا العلماء المدرسون ، وأولاد من يموت من العلماء . وقد كان الأمر فيهما بنوعيهما موكولا الى شيخ الجامع الأزهر ، يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء . وكانت المرتبات السنوية (بدل الكساوى) تتجزأ أجزاء صغيرة ، بحيث يمكن لشيخ الجامع أن يعطى منها نحو مائة قرش في العام أو أقل . وكانت المرتبات الشهرية تمنح لأناس دون آخرين ... فكان لبعضهم منها نحو ستة عشر قرشنا في الشهر ، ولكثير منهم الحرمان بالمرة ، وللقليل منهم ما فوق ستائة قرش شهريا ...

« وإذا انحلت لموت أحد العلماء شيء من هذين القسمين ، رأيت بيت شيخ الجامع غاصا بالمتزلفين ، مزدحما بالراجلين ، ملووا بالشاكين البائسين ، ورأيت مباشر الأزهر — وهو كاتب بسيط — تتماوج بين يديه الفرجيات ذاهبات آيات ... كل يرجوه ، وهو يعد أو يصد ، أو يؤمل أو يقنط . وربما انتهى الأمر بين الجرى والمدو بين البغالة والفجالة لتجزئة ذلك المنحل ، وضم أجزائه الى مرتبات بعض الأكابر ، وحرمان الخالين منها بالمرة . فيتربص الراجون والشاكون ينتظرون موت واحد منهم ، لعله ينالهم من مرتبه شيء يسير ...

« واني لأعلم أن مجلس الادارة جاء وفي العلماء من ليس له مرتب أصلا — وهم كثيرون — وفيهم من له ستة عشر قرشا في الشهر لا غير ، وفيهم من يمنى نفسه ، وفيهم من يئس ورضى بالخبز القليل ... أعرف واحدا منهم مات رحمه الله ، وقد عرضت عليه — لفقره وعلى بحاله — بعض الشيء من مالى كل شهر ، فأبى على ذلك ، وطلب منى أن أرجو شيخ الجامع حينئذ في أن يعطيه شيئا ، ولو من مرتبات صدقات الأوقاف ... ففعلت ، ورضى بما توسطت له به عند الشيخ وهو نذر قليل ا » .

هذه المواقف موقفه من محاولة الانجليز تعيين مستشارين من محكمة الاستئناف في المحكمة العليا الشرعية ، وقد سبقت الإشارة اليه .

ثم عين بعده الشيخ عبد الرحمن القنطرب ، فلم يطل به العمر في المنصب سوى شهر واحد . وعين بعده الشيخ سليم البشرى ، فكان همه الكبير ارضاء الخديو ، ثم أقيل في نهاية أمره بعد ما كان بينه وبين كبار العلماء أمثال الشيخ بخيت المطيى من خلاف حول تعيين الشيخ المنصوري شيخا لرواق الصعايدة ، وناظرا على أوقافه ، وبعد أن تغير الخديو عليه ، وأظهر إهماله وعدم الاهتمام به في أكثر من مناسبة .

وبصفة عامة كان الأزهر مشغولا بما كان عليه أهله من سوء الحال ، وما كان عليه كبار علمائه من خلاف أخذ الخديو يذكيه ويستغله ... ثم كان هناك الى ذلك ، التفكير في اصلاح البرامج وخطط الدراسة ، والشئون المالية للأزهر مما يشغل بال الأزهرين ... بل كان اصلاح الداخلى بصفة عامة هو شغل المصلحين بعد فشل الثورة ، واستيلاء اليأس على النفوس ..

ظلام اليأس والبؤس

ولكى يتصور القارىء حياة الفقر وسوء الميش التى كانت تسود الأزهر حينذاك ، أنقل له ما كتبه الشيخ عبد الكريم سلمان عن حال الأزهر ومراتب الشيوخ ، ليدرك العناية الالهية التى أبقت الأزهر مع ما كان يعانيه وبقاسيه من ضروب الفقر والحرمان ... فان مجرد بقائه مع هذا يعد معجزة من المعجزات :

« تنقسم مرتبات الأزهر الى قسمين : سنوية ، وهو ما يسمنه « بدل الكساوى » ، وشهرية

لن يموت

ومع هذا لم يمت الأزهر ، ولم تغره المطامع بالتخلل من موقفه ، والتخلي عن جموده وعناده واصراره على أسلوبه التقليدى فى الدراسة التى ألفها وعرفها وقام عليها .

بل ان كبار علمائه ، على ما كان من بعضهم من مدهانة الخديو وملابته ، والنظر اليه على أنه ولى الأمر والنعم ... لم نجد منهم أى موقف يخل بشمئهم وكبريائهم مع الانجليز أعداء البلاد . وقد سمى « كرومر » - وهو الحاكم الأعلى - ليتعرف بشيخه ، فقبل انه معتكف فى حجرته بالجامع ، لا يخرج منها ، ولا يفادر باب الأزهر لزيارة أحد مهما يكن مركزه عظيما .

يقول الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه الذى ذكرناه :

« وذهب اللورد لزيارة الأسد فى عرينه ، أو الناسك فى صومعته . وكان حينذاك فى ابان بطشه وقوته ، يهابه الكل ، ويسارعون لتلبية أمره . وقد ظن أن سيجد من شيخ الاسلام تابعا ونصيرا ...

« ودخل الأزهر ، وسار بين أعمدته وعلى بلاطه ، فامتلا رهبة وروعة ، وراعه الصمت السائد ، والطلبة الذين يتحركون فى صمت وخشوع كأنهم الأشباح السارية . واستقبله وفد من المشايخ فى عمائم كبيرة ، وأكمام واسعة طويلة ، بطبشى الحركة ، يسرون فى تودة ووقار ، ولا يحنون رءوسهم الا ساعة الركوع والسجود ...

« وسار بينهم يخترق الحجرات والأبهاء ، وهو يتجرد فى كل خطوة من ثياب جبروته وكبريائه ... حتى اذا وصل الى باب صغير أدى به السير اليه ، كان العميد البريطانى العظيم قد أصبح فردا يشعر بالضعف والخشوع ...

« وفتح الباب ، وتنحى الموجودون ... ودخل

اللورد ، ومعه أحد ياوران السراى ، فرأى نفسه فى حجرة مجردة من الأثاث والفرش ، عارية الأرض ، مكشوفة البلاط ، ساكنة ، يكتنفها شيء من الظلام ، الا من شعاع ينفذ من نافذة نصف مغلقة وفى واجهة تلك الحجرة دكة عالية ، عليها قطعة من بساط ، وقد تربع فوقها شيخ الاسلام والمسلمين ، فى ثياب بسيطة ، وفى يده مسبحة يعد خرزاتها ، ويتمتم بالتسبيح عليها ، وهو مطرق برأسه ، مستغرق فى نجواه ...

« وأدار اللورد نظره حوله ، فلم يجد مقعدا ، وتقدم خطوتين فلم يرفع الشيخ رأسه ، ولم يبادره بالتحية ، ولبث يتمتم نجواه ، وهو فى سكون وجمود ...

« ووقف اللورد فى وسط الحجرة أمام الشيخ فترة طويلة خاتته فيها أعصابه ، وارتبكت حواسه ، وشعر بأنه يتضاءل أمام ذلك الشيخ النحيف الجسد ، السابح فى ذكره ، حتى لم يعد يشعر بنفسه ...

« وبعد أن مرت فترة طويلة رفع الشيخ رأسه دون أن يتحرك من مكانه ، ونظر الى اللورد نظرة هادئة عميقة ، وقال بصوت لطيف : أهلا وسهلا . ثم مد اليه يده كما يمدّها الملك الى أحد رعاياه ، وتقدم اللورد فتناول هذه اليد ولشها بشفتيه ... واسترد الشيخ يده ، ثم قال له : « فى أمان الله ... فى أمان الله » ...

« وخرج اللورد يتعثر ، وقد أدرك أن فى مصر من هو أعظم منه شأنًا ، وأقوى شخصية » .

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقد حدثت مع هذا عدة حوادث أو مواقف فى الأزهر ظهر فيها أثر الانجليز ، ولكنها كانت حوادث

فردية . وكان تدخل الانجليز فيها من وراء ستار ، وكان موقف الأزهر فيها من الخديو والمعتمد البريطاني هو ذلك الموقف الذى يصفه الشاعر بقوله :

والمستجير بعمره عند كبرته

كالمستجير من الرمضاء بالنار

من ذلك حادثة زاوية العميان ... وندع الشيخ عبد الكريم سلمان يصفها بقوله :

« ان شيخ تلك الزاوية التى هى رواق من أروقة الأزهر — وشيخها يوليه شيخه أو مجلس ادارته — كان قد رفع دعوى على ديوان الأوقاف أمام المحاكم الأهلية يطالبه فيها بما تأخر للعميان من استحقاقهم فى وقف المرحوم عبد الرحمن بك كتحداى . وكان الوكيل عنه فى رفع هذه الدعوى أحد مشهورى المحامين الكبار ، وانتهى الأمر فيها بأن حكم للعميان على الديوان بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه ، استحقوها فى السنين التى قبل رفع الدعوى ، وبأن يعاملوا فى المستقبل ، فيما يستحقونه من تلك الأوقاف ، على الوجه الذى حكم لهم بمقتضاه ...

« وطال الجدل بعد الحكم الانتهاى بين الديوان والمحامى فى أمر التنفيذ ، فلم يتفقا على شيء فيه . فاضطر المحامى الى استعمال الطرق القهرية ، وذهب المحضر الى الديوان ، وفتح خزائنه بالقوة القاهرة ، ونفذ الحكم فى ١٦ من أغسطس سنة ١٨٩٧ ، الموافق ربيع الأول سنة ١٣١٥ . واستلم المحامى المبلغ بوصف أنه وكيل عن شيخ العميان ، وذهب به الى بيته فرحا جدلا . وظن الطامعون أنهم قد ربحوا ، وأن الأمر قد وقف عند هذا الحد . ولم يكن ليخطر على بال المحامى أن وراءه من يراقب عليه ، ويحافظ على ما قبضه على ذمة أولئك العميان .

« لما وصل خبر هذا التنفيذ القهرى الى المعية السنية ، وهى تعلم أن ديوان الأوقاف بمنزلة قلم من أقلامها هالها الأمر ، وفهمت أن الأزهر — وهو غرس نعمتها (١١) — قد سيطر عليها ، وأهان الديوان التابع لها بفتح خزائنه قهرا ، وأخذ ما فيها قوة واقتدارا ... ثم حتمت أنه لم يكن من حق الأزهر أن يعمل ما عمل . وإذا فرض ووقع منه ما وقع ، فالواجب عليه أن يرد فوراً ما أخذ ، وإذا تأخر عن هذا الواجب كان مخطئا ، ومستوجبا لقطع الفيض (١١) عنه على الدوام ...

« ولما وصل نبأ هذا التنفيذ الى الأزهر — وهو يعلم قوة المحامى ، وقدرته على عمل أى أمر يريده مع هؤلاء العميان الضعاف — تدبر فيما يأخذه من الاحتياط لحفظ هذا المبلغ ، وعدم ضياع شيء منه . وكانت قاعدة الفكرة أن المحكوم لهم من أفقر الفقراء ، وإذا نال الواحد منهم جنيها أو جنيين طار فرحا وسرورا ، لأنه لم يعود أن يمس الجنيه يده ، فيأخذ ما يعطاه ، وإن لم يبلغ معشار حقه ، ويمضى صك الاستلام . فاستدعى مجلس الادارة شيخ هذه الزاوية ، وكتب اليه كتابا فى ٢٨ من ربيع الأول سنة ١٣١٥ ، الموافق أغسطس سنة ١٨٩٧ ، مضمونه أنه حكم على الأوقاف من محكمة الاستئناف بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه ، وأن يسلم لشيخها . وقد نفذ هذا الحكم ، واستلم المحامى المبلغ بصفته وكىلا ، وكلفه باستلام هذا المبلغ من الوكيل ، واحضاره الى خزينة المشيخة ، حتى ينظر فى طريقة توزيعه ، لأن المشيخة هى التى لها السلطة العامة فى ذلك ...

« فأخذ شيخ الزاوية هذا الكتاب ، وسلمه الى المحامى ، فلم يستل ، وعارض أشد المعارضة فى خروج المبلغ من خزائنه . فظهر لمجلس الادارة أنه لا يريد بالعميان خيرا ، فكلف شيخ الزاوية بأن

الكارثة

« وقع الأزهر بعد هذا في حيص بيص ... فالمعية فهمت أنه أهان الأوقاف ، ولم يراع حق النعم المصدقة عليه من وليها . والحكومة فهمت فيه أنه يريد رد مبلغ الفقراء الى الأوقاف وحرمانهم منه ، والمحامى ينادى على رؤوس الملائ بأن الأزهر عامل على معونة الديوان ضد العميان ، حتى انه أثار في رؤوسهم الحمية ، فذهبوا الى سراى قصر الدوبارة يقود بعضهم بعضا ، يتكفون ويتعشرون ليسترحموا اللورد كرومر في حفظ الحقوق . ولهم المذخرة ، فان المحامى أوههم بتلك المجاهرة ، وبذلك الحرية (١١) أنه يمكنه أن يفعل ما يريد ، وثبت في أذهانهم أن الأزهر لا يريد بهم خيرا ... فالتبس الحق بالباطل على الكل ، وكاد الباطل يعلو على الحق فيزهقه ، ولكن الحق لا يعدم النصير ، والباطل لا يلبث أن يجبن أمامه في زمن قصير ... » .

ويمضى الشيخ عبد الكريم سلمان — وكان مع الشيخ محمد عبده عضوين في مجلس ادارة الأزهر — فيذكر ما كان بعد ذلك من اطلاع رئيس الديوان على الحقيقة ، ومقابلة الخديو ، ثم الاتصال برئيس النظار لكشف أمر المحامى وما قصده من التشهير بالأزهر ومجلس ادارته ، ثم قال « وانتهى الأمر بأن المبلغ يوزع حالا بتمامه على المحكوم لهم ، وأن تذهب تلك الانذارات الصادرة من أولئك الأجانب هباء منثورا . وألزم المحامى باسترجاعها ، والاتفاق معهم في شأنها ، وقضى بأن يكون التوزيع على ما يقدمه الأزهر من الكشف ببيان أسماء المستحقين ، وبيان نصيب كل واحد منهم ، وأن يكون موزع هذه النقود هو حضرة عثمان بك مرتضى مدير الأقاليم العربية في الحقاينة ... »

ينذر المحامى انذارا رسميا ، فأنذره بتاريخ ٩ من سبتمبر سنة ١٨٩٧ بأن يحضر المبلغ الذى قبضه في ذمة العميان الى خزانة الأزهر ليودع فيها حتى يضع مجلس الادارة قاعدة لصرفه على مستحقه ، وان لم يفعل في ظرف كذا ساعة ، عد مخالفا لمادة كذا من القانون ، لأنه وكيل في قبض المبلغ ، وواجب عليه أن يؤديه عند الطلب لموكله ... فلم يكن من المحامى الا أنه اتفق مع بعض الأجانب (!!) على بيع بعض حصص العميان اليه ، وأنذر ذلك الأجنبى شيخ الزاوية وشيخ الأزهر والمحامى بتاريخ ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٧ ...

« كل هذا والأزهر خالى الذهن مما فهمته المعية السنية فيه . ولم يكن من همه الا المحافظة على المبلغ من الضياع ، ولم يحفل بالانذار الذى أرسله الأجنبى باتفاقه مع المحامى . فان مطلوب لأزهر قد حصل ، وهو حفظ المبلغ جميعه بدون أن يضيع منه درهم ولا دينار ... »

« بعد هذا ذهب المحامى الى بعض أهل الحل العقد في الحكومة ، وأفهمهم أن الأزهر يريد ترجاع المبلغ لا يعطيه الى مستحقه المساكين ، كن ليعيده الى خزينة الأوقاف استرضاء للمعية سنية ، فوقر هذا القول في أذهانهم ، لأنهم ما كانوا قلوا الا أن الأزهر سيكون آلة في يد المعية تعمل ما تشاء (١١) . وجاهر المحامى بهذا القول ، تتعمل حرية فوق المعتاد ... حتى انه لما دعتة الى الاسكندرية للاتفاق معه ، عاد يشيع بيص استرضائه ، وتمنعه عن الاجابة ، ونشروا التي دعى بها في الجرائد ليظهر أنه غير مبال بالمعية ، وليؤكد في ذهن رجال الحكومة س به من قبل ، وهو أن الأزهر يبتغى مواساة برد المبلغ المحكوم به الى الأوقاف ... »

مدرسة القضاء الشرعى

ثم أنشئت مدرسة القضاء الشرعى عام ١٩٠٧ للميلاد ، بعد انشاء مدرسة دار العلوم من قبل في عام ١٨٧٢ ، فأحس الأزهريون المصير المظلم الذى ينتظر الأزهر . ولعلمهم شعروا بأن نية القضاء على جامعتهم قد بيتت بلبيل منذ أمد بعيد ، وأن هذه السياسة التعليمية الوافدة من الخارج إنما هي استجابة لتلك النية الخفية ... فقد أصبحت الحكومة فى غنى عنهم ، لأن لها مدرسة لتخرج معلمى اللغة العربية وما يتصل بها فى مدارسها ، وها هي ذى تنشئ مدرسة لتخرج القضاة سيتقلص بها ظل الأزهر فى المحاكم ، فماذا بقى للأزهر بعد ذلك الا الامامة والخطابة فى المساجد ؟ وقد كانت وقتذاك تقوم بها من يحسن قراءة الخطابة من ديوان قديم مشكول كديوان ابن بطة .

الاضراب العام

وتهاشم الأزهريون ، أساتذة وطلابا ، بالتذم من هذه الحال التى آلت اليها الأزهر ، وتلاقى أسباب كثيرة على ضرورة الاضراب عن الدروس وتصايح الطلاب بهذه الفكرة ، فانفجرت الثورة ... ووقف الشيخ حسونة الى جوار باب الأزهر يشهد صفوف الأزهرين تخرج متتابعة منه فتساءل : الى أين يا أبناءى ؟ — كما روى المرحوم الشيخ أبو العيون — فأجابوه : الى ديارنا ... لقد تركناه ينمى من بناه . فبكى الله بصوت منتحب ، وعاد ليقدم استقالته هو الآخر واشتد خطر هذه الحركة حتى خشيت الحكم مغبتها ، فأصدرت أمرا بتأليف لجنة من فتة زغلول باشا ، وعبد الخالق ثروت باشا واسماعيل صدقى باشا لوضع القانون رقم لسنة ١٩١١ .

« فاشتغل الأزهر بتحرير تلك الكشف من دفاتره ، وقدمها الى موزع هذه الأرزاق ، فاستلم كل واحد منهم حقه بتمامه ، ولم ينل المحامى منها حتى ولا ما يسمونه الأتعاب « أجره المحاماة » . وتحقق العميان أنهم كانوا مخدوعين ، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء لمن كان سببا فى هذا الخير العميم » .

بين نارين

هذه الحادثة التى قلناها عن كتاب « أعمال مجلس ادارة الأزهر » ، وبقلم واحد من الرجال الذين عاصروا حوادث الأزهر فى تلك الفترة — وكان الى ذلك عضوا فى هذا المجلس — تكشف للقارىء موقف الأزهر فى تلك الحقبة المظلمة من تاريخ مصر ... فقد كان بين حكومة محكومة بيد الانجليز ، تسخرها وتسيرها وفق ما تشاء ، وبين سلطة أخرى — هى سلطة المعية — يقوم عليها رجل يبدو فى نظر الأزهرين أنه الوالى الشرعى ، ويمتن عليهم بأنه ولى نعمتهم ، وصاحب الفيض السابغ عليهم . فاذا تطلع فريق من أهله الى استرداد حق لهم فى وقف من الأوقاف التى حبسها الخيرون ، كان ذلك خطأ يستوجب قطع الفيض ، واساءة لا تغتفر !

وقد عرفنا أى فيض كان هذا الذى تمتن به المعية . لقد كان أكثر العلماء لا يأخذون مرتبات ، وقليل منهم يأخذ الواحد منهم ستة عشر قرشا فى الشهر ، وأقل من هذا القليل — وهم الطبقة العليا — يأخذ الواحد منهم ستمائة قرش كل شهر . ثم تحسن حالهم فى هذا العهد ، فجعل الحد الأدنى لمرتب العالم ٧٥ قرشا فى الشهر ، والحد الأعلى ثلاثة جنيهات .

وقد عاد الأزهريون بعد ذلك الى الأزهر ، وكثر الاقبال عليه ، ووجدت معاهد أخرى في عواصم المديريات وبعض المحافظات تابعة له ، متبعة لنظمه ، حتى بلغ عدد الطلاب فيه عام ١٩١٧ عشرين ألفا .

وهكذا نرى أن الأزهر في الفترة التي انقضت بين الثورة العراقية وثورة عام ١٩١٩ للميلاد ، كان يعاني من كثرة المتاعب والمشكلات الخاصة ما جعل نشاطه محصورا فيها ، أو دائرا حولها . فلما انفجرت ثورة عام ١٩١٩ ، كان طبيعيا أن يكون دوره فيها رئيسيا ، وأن يكون منبره كما كان المنصة التي يرتقيها الأحرار ، ليوقدوا النار في صدور الثوار .

الثورة ... عام ١٩١٩

ذلك أنه لم يكد يذاع نبأ القبض على سعد زغلول وزملائه حتى أسرع العلماء الى الرواق العباسي ، وعقدوا اجتماعا خطيرا فيه ، ثم انتخبوا من بينهم لجنة لكتابة المنشورات ، وتنظيم الخطابة الاجتماعات التي تعقد حول منبر الأزهر . كانت هذه اللجنة تتكون من أصحاب الفضيلة شايخ : يوسف الدجوي ، ومحمد الأيساري وهما مكفوفان) ، ومحمد عبد اللطيف دراز ، سليمان نوار ، ومحمود الغمراوي ، ومصطفى ساياتي ، وعلى سرور الزنكلوني ، ومحمود العيون .

وبدأ عمل اللجنة في الحال ، فكتب الشيخ يمان نوار منشورا ثوريا طبع في مطبعة سرية حامين . وكان هذا المنشور - فيما يرى بعض من غاصروا هذه الثورة - هو أول عهد مصر ثورات ، ثم كان بيت الشيخ عبد اللطيف وفاني بعد ذلك في الحلمية مثابة لتدبير هذه ثورات ، واحكام المؤامرات ضد الخولة .

واتجهت الحركة أول ما اتجهت الى حصار اليهود في مناطقهم ، وقتل الأرمن أينما وجدوا ، لأنهم جأهروا بعدائهم للثورة ، ثم قتل ابن اليسع من كبار صاغة اليهود ، ولم يمض يومان على الحصار حتى طلبوا وفدا من الأزهر للاتفاق معهم ، فتوجه اليهم وفد مكون من بعض العلماء وكبار الطلاب ، فكان من العلماء المشايخ : الزنكلوني وأبو العيون والقيايتي ، ومن الطلاب محمد الطيخى وعبد الحميد عرام ومحمود يوسف ومحمد شافعي البنا ... ثم عاد هؤلاء ومن ورائهم جموع كثيرة من طوائف مختلفة تعلن تضامنها مع الأمة في ثورتها على الانجليز ... ثم كان القسس يفدون الى الأزهر ويخطبون على منبره ، ومن أشهرهم سرجيوس . وكان العلماء يذهبون الى الكنائس ، ويخطبون فيها ، وأظهر كنيسة أسهمت في هذا النشاط الوطني كنيسة حارة الروم ، وكان أول من ذهب اليها من العلماء الشيخ الزنكلوني والشيخ دراز .

ومضت الثورة تشتعل في البلاد من أقصاها الى أقصاها ، ومضى الأزهر يغذى هذه الثورة بدماء أبنائه وألسنة خطبائه ، حتى عادت اليه مكاتته التي كان عليها ابان الحملة الفرنسية ، وأقبل قادة الرأي وزعماء البلاد الى منبره يخطبون فوقه ، ويوجهون الشعب منه .

فكانت مقاطعة « ملتر » فكرة أعلنها الدكتور محجوب ثابت في الأزهر ، وتلقفها عبد الرحمن بك فهمي فنفذها بدقة في جميع أنحاء البلاد . وكانت فكرة الحرس الوطني كذلك ، ثم نفذها الشيخ القيايتي والشيخ دراز ، فألغا فرقا لمنع اشتباك الوطنيين بالأجانب ، وحماية الأجانب من اعتداء الوطنيين .

ثم اعتقل الشيخ أبو العيون ، والشيخ دراز ،

من ارادة الملك فؤاد ، واخراج زكى الابراشى من القصر ، واعادة الشيخ المراغى الى الأزهر ، والعلماء المفصولين للتدريس فيه .

ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية ، اعتقل كثيرون من الأزهرين مع غيرهم ، بحجة المحافظة على أمن الدولة وسلامتها . وكان من هؤلاء : توفيق الملط ، وأحمد الزنط ، وعبد الرحيم فوده (كاتب هذا البحث) ، وعبد المنعم المنمر ، وأحمد الحصرى ، وكثيرون غيرهم . لا تسمى الذاكر أسماءهم . وكان هذا الاعتقال بعد حادث ٤ فبراير المشهور .

تاريخ مصر والأزهر

يقول الأستاذ محمد شفيق غربال : « ان تاريخ مصر لا يفهم الا بفهم تاريخ الأزهر » . ومن يدرك القارىء أن ما قدمت من اشارات وحواد ليس الا معالم لصورة كبيرة لا يتسع هذا المك لعرضها . وقد امتدت يد الغرض لتشويه تاريخ مصر ، وتاريخ الأزهر من ورائها . وكان ذا لاعتبارات سياسية محلية ، واعتبارات سياسية أجنبية . ولكن هذا التشويه لم يحجب الحقيقة وان حجب ضوءها بعض الوقت .

وقد ذكر « كرومر » أنه غير كل شيء فى مصر واعترف بعجزه عن تغيير الأزهر . وهذا الاعتراف يعنى أنه لم يغير شيئا فى جوهر مصر ، وإنما سطحا ، وترك فيها بعض الحشائش والطفيل التى تنبت على السطح ولا تلبث أن تزول . الأزهر كان — ولا يزال — من مصر قلبها الدلسانها الناطق ، وعلمها الرفيع الخفاق ا تتطلع اليه أنظار مئات الملايين من المسلمين جميع أنحاء العالم الاسلامى .

واذا كان المقام لا يتسع لعرض كل الحوادث والأحداث ، وأسماء الرجال الذين كانوا

والشيخ القاياتى وكثيرون من العلماء والطلاب ، فلم تنطفىء مع ذلك نار الثورة ... بل ظلت مشتعلة الأوار ، مشبوبة الضرام . وكان مسكن الشيخ محمد نور الحسن السودانى برواق السنارية هو مقر القيادة ، يجتمع فيه الطلبة وغيرهم من العلماء والوطنيين ، لتدبير ما يرون من خطط وتنظيمات . وامتته الثورة الى ما انتهت اليه ، ونشأت الأحزاب السياسية بعد انقسام الوفد ... فانتقل النشاط السياسى الى أنديتها ، وعاد السكون يخيم على الأزهر من جديد . ولم يكسب الأزهر من ثمرات هذه الثورة شيئا ، بل ذهب وفد من الأزهرين الى سعد زغلول يطلبون الاصلاح — وكان فيهم الشيخ الطنيجي — فصددهم بأن اصلاح الأزهر هو أن يعود الى ما كان عليه أيام المعز لدين الله الفاطمى !

ووجد الأزهريون أنهم لم يتقدموا خطوة عما كانوا عليه ، بل كان العالم الذى يتخرج بعد خمسة عشر عاما فى الدراسة والتحصيل ، لا يظفر بوظيفة معلم الزامى فى القرية . فاذا طالبوا بالاصلاح قوبلوا بالجفاء والغلظة ، وارتفعت الصيحات فى الصحف تنادى بأنهم طلاب درجات وعلاوات ، حتى شعروا بأنهم غرباء فى بلادهم ، فثاروا على سعد ، واتهموا فى ثورتهم بأنهم يعملون لحساب القصر ، أو لحساب الأحزاب الأخرى التى تعتمد على القصر . ثم كان موقفهم من حكومة صدقى باشا عام ١٩٣١ موقف غيرهم ، ولكن حظهم من الاضطهاد كان أكبر ، ففصل منهم سبعون عالما كان على رأسهم الشيخ الزنكلونى والشيخ دراز والشيخ حامد محسن والشيخ شلتوت .

ثم ثار الأزهريون عام ١٩٣٥ ثورة كبرى انتهت باقصاء الشيخ الظواهري عن الأزهر ، على الرغم

الحوادث والأحداث التي وقعت في مصر والشرق العربي والعالم الاسلامي ، واقرنت باسم الأزهر أو بأسماء الرجال الذين خرجوا من الأزهر ... فان هذا لا يعنى اهمال هذا الأمر ولفت الأنظار اليه ، والعمل على أساس هذه الحقيقة الناصعة .. وسرى في الحديث عن مشيخة الأزهر وأروقته وحاتاته ، وأجناس الطلبة فيه ، أى دور أداه هذا المعهد العتيد لخدمة الاسلام والقومية العربية ، وأى مكانة يحتلها هذا المعهد في قلوب العرب والمسلمين .

شيوخ الأزهر

شيخ الأزهر هو الامام الأكبر لجميع رجال الدين ، والمشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملازمة لشرف العلم والدين بالنسبة الى أهل العلم ، وحملة القرآن الشريف — سواء أكانوا منتسبين الى الأزهر ، أم غير منتسبين اليه — وهو المنفذ الفعلى العام لجميع القوانين والمراسيم والأوامر واللوائح والقرارات المختصة بالجامع الأزهر^١ .

وهو الذى يمثل الجامع الأزهر فى كل ما يتصل بشئونه قبل الغير من المصالح الحكومية والهيئات الأهلية والأفراد .

ويختار شيخ الجامع الأزهر من بين جماعة كبار العلماء ، أو من تتوافر فيهم الشروط الآتية : أن تكون سنه خمساً وأربعين سنة على الأقل ، وأن يكون معروفاً بالورع والتقوى فى ماضيه حاضره ، وحائزاً لشهادة العالمية منذ خمس عشرة سنة على الأقل ، وأن يكون قد اشتغل بالتدريس مدة خمس سنوات على الأقل فى إحدى كليات جامع الأزهر ، أو بالقسم العالى المقرر بالقانون م ١٠ لسنة ١٩١١ ، أو بأحدى الكليات بجامعة

(١) مقتبس من المادتين ١ و ٥ من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ .

القاهرة والاسكندرية ، أو يكون قد شغل منصب مفتى الديار المصرية ، أو منصب عضو بالمحكمة العليا الشرعية .

ويعين شيخ الأزهر بأمر جمهورى ، ويصير من يعين شيخاً للجامع الأزهر من غير جماعة كبار العلماء عضواً فى هذه الجماعة بحكم القانون^١ . هذا هو منصب شيخ الأزهر على الوضع الذى انتهى اليه فى عام ١٩٤٥ للميلاد .

ناظر الأزهر

يقول الأستاذ زكى محمد غيث فى بحثه « شيوخ الجامع الأزهر فى القرن الثانى عشر الهجرى » : « لم يكن للأزهر قديماً شيخ يتولى رياسته الدينية ، ويدير شئونه الادارية ... بل كان يتولاه الولاة العامة سلاطين مصر وأمرؤها كباقي المساجد الجامعة بالديار المصرية ، ويأشر شئونه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة ومشايخ الأروقة ، يعاونهم خطيب المسجد ، والمشرف ومعاونوه من العمال والخدم »^٢ .

ثم يذكر أنه فى عهد سلطنة الملك الظاهر بروجوق ، أول سلاطين المماليك الثانية (البرجية) ، عين للأزهر ناظر عام ٧٨٤ للهجرة (١٣٨٢ م) . وكان (ناظر الأزهر) يختار من كبار موظفى الدولة . وكان هذا الناظر هو الأمير « بهادر الطواشى » كبير المماليك السلطانية . وكان (ناظر الجامع الأزهر) ينوب عن سلطان مصر ، أو حاكمها ، فى الاشراف على شئون الأزهر ، والقيام على تنفيذ الأوامر والأحكام السلطانية ، والسهر على رعاية

(١) مقتبس من المادتين ٦ و ٧ من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ بإعادة تنظيم الأزهر . والمرسوم المعدل للمادة ٧ من هذا القانون الصادر فى ١٢/١٢/١٩٤٥ .

(٢) مجلة الجمعية الملكية « للدراسات التاريخية » ، مايو ١٩٤٩ . وقد أنش طيه الأستاذ محمد شفيق فريال فى مجلة الأزهر .

شيخ الأزهر الآن ، ومنصبه أول ما أنشئ هذا المنصب ... كما يكفى لتصوير حالة الأزهر قبل ذلك ، من حيث ادارته والاشراف عليه .

شيوخ الأزهر

أما شيوخ الأزهر على الترتيب فهم :

الشيخ محمد عبد الله الخرشى المالكي ، الشيخ ابراهيم ابرماوى الشافعى ، الشيخ محمد النشترى المالكي ، الشيخ عبد الباقي القليني المالكي ، الشيخ محمد شبن المالكي ، الشيخ ابراهيم ابن موسى الفيومى المالكي ، الشيخ عبد الله الشبراوى الشافعى ، الشيخ محمد سالم الحنفى الشافعى ، الشيخ عبد الرؤوف السجيني الشافعى الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف الدمهورى ، الشيخ أحمد العروسى الشافعى ، الشيخ عبد الشراقوى الشافعى ، الشيخ محمد الشنوا الشافعى ، السيد محمد بن الشيخ أحمد العروى الشافعى ، الشيخ أحمد بن على بن أحمد الدهوجى الشافعى ، الشيخ حسن بن محمد العطار ، الشيخ القويسنى الشافعى ، الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الجواد الشافعى ، الشيخ ابراهيم البيجورى الشافعى ، الشيخ محمد المعباسى الحنفى ، الشيخ شمس الدين محم الانابى الشافعى ، الشيخ حسونه النوى الحنفى ، الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى ، الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافى الشيخ حسونه النواوى ، الشيخ سليم البشر الشيخ محمد أبو الفضل المالكي ، الشيخ مصطفى المراغى الحنفى ، الشيخ محمد الأظواهرى ، الشيخ محمد مصطفى المراغى ، مصطفى عبد الرازق ، الشيخ محمد الشناوى ، الشيخ عبد المجيد سليم ، الشيخ ابراهيم حمروش ، الشيخ عبد المجيد .

مصالح الجامع الأزهر ، ومصالح أهله من علماء وطلاب .

وقد عرف من « نظار » هذا العهد المملوكى أيضا الأمير « سودوب » القاضى وحاجب الحجاب ، ولى « نظارة الأزهر » عام ٨١٨ هـ ، (١٤١٥ م) .

ولما استولى الأتراك العثمانيون على مصر عام ٩٢٣ للهجرة (١٥١٧ م) ، ساروا على نهج من سبقهم من سلاطين مصر وأمرائها ، فحافظوا على الأوضاع المرعية فى الأزهر ، واهتموا برعاية شئونه ، والسهر على مصالح أهله . واقتدى الولاة العثمانيون بسلاطين آل عثمان ، فعرفوا لهذا المعهد العلمى الدينى الاسلامى حقه من الرعاية والتقدير ، وجددوا به كل دارس ، وزادوا فى عمارته ، ووسعوا من رقعته .

وأوقف الأمراء والولاة وكبار رجال الدولة والأعيان كثيرا من الأموال والأموال والعقارات على علمائه وطلبته ... فانتسعت ادارته ، وتشعبت مصالح أهله ، وأصبحت الحاجة ماسة الى وجود شخص يتفرغ للاشراف على شئون هذا المعهد الدينية والادارية معا ، ويكون مسئولا مباشرا أمام الولاة والسلاطين ، وحلقة اتصال بين الحكومة وأقسام الأزهر المختلفة ... فاستحسنست الدولة العلية - قبل نهاية القرن الحادى عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) - أن يعين للأزهر « شيخ عموم » يدير شئونه ، ويراقب أموره من تعاليم وغيرها ، ويلقب بشيخ الأزهر .

ومنذ العهد التركى العثمانى والجامع الأزهر يحتفظ بهذه الوظيفة التى تطورت مظاهرها ، واتسعت اختصاصاتها بحسب تطورات الزمن ، ومقتضيات الظروف والأحوال ، حتى آلت الى ما هى عليه الآن .

هذا القدر يكفى لاعطاء صورتين عن منصب

الشيخ محمد الخضر حسين ، الشيخ عبد الرحمن تاج ، الشيخ محمود شلتوت .

الصراع حول المنصب

وقد اقترن هذا المنصب بصراع دام في بعض الأحيان ، ولا يزال هذا الصراع يتجدد كلما خلا المنصب . وأول ما نطالع من ذلك ما ذكره الشيخ « زكى غيث » عن الجبرتي من أنه بعد وفاة الشيخ النشترتي وقعت فتنة دامية بين أتباعه وأتباع الشيخ أحمد النفراوي ... فقد كان أولئك ينصرون الشيخ القليني ويطلبونه ليدرس مكان شيخهم في المدرسة الأقبغاوية ، ويكون شيخا للأزهر . وكان هؤلاء الذين يؤيدون النفراوي يريدون له المشيخة ، ويؤثرونه على الشيخ القليني . ثم اشتد النزاع بين الفريقين حتى أدى الى التصادم واراقة الدماء ، واستخدام الأسلحة النارية بداخل الجامع الأزهر ، فقتل عدد من الأزهرين ، وتعطلت الصلاة بالأزهر في هذا اليوم .

ثم انتهت الفتنة بتدخل كبار الشيوخ والسادة إشراف والأمراء . وألزم الشيخ أحمد النفراوي المكوف في بيته ، وثبت الشيخ عبد الباقي القليني ، مشيخة الأزهر .

العرشي ... والعروسي

وقد وقع كذلك صراع حول هذا المنصب عندما لى الشيخ الدمنهورى ، وخلا المنصب بوفاة . ان النزاع بين الأحناف والشافعية ... فانه حين مت السن بالشيخ الدمنهورى ، وأعجزه المرض مباشرة مهام منصبه ، وتوقع الناس وفاته بين وآخر ، تطلع الشيخ عبد الرحمن بن عمر بشي الحنفى الى شغل هذا المنصب بعد وفاة به . فتوسل الى تحقيق غرضه بدعوى أن خ الدمنهورى أنابه عنه ، وأعلن هذه الدعوى

أمام شيوخ الأزهر وأمام شيخ البلد ابراهيم بك عندما كان يرافقه ويזור معه الأزهر .

ثم توفى الشيخ الدمنهورى ، وكاد أمر المشيخة يصير الى العريشى بمساعدة من كانوا يناصرونه من العلماء والأمراء ... ولكن السادة الشافعية أبوا ذلك عليه ، ورفعوا الى ابراهيم بك ومراد بك ينكرون على الشيخ العريشى تولى مشيخة الجامع الأزهر ... لأن المشيخة - كما جاء في ملتسمهم - « من مناصب الشافعية ، وليس للأحناف فيها قديم عهد ... وخصوصا اذا كان متولياها آفاقيا كالشيخ عبد الرحمن العريشى ، وان في علماء الشافعية من هو أهل لذلك علما وسنا » .

وقد اقترحوا أن يعين الشيخ أحمد العروسي شيخا للأزهر . ولكن الأمراء المماليك أنكروا على الشافعية هذه الحجة ، وقالوا : « أليس الحنفية مسلمين ؟ وان مذهب أبى حنيفة أقدم المذاهب ، والأمراء أحناف ، والقاضى حنفى ، والوزير حنفى ، والسلطان حنفى » .

وغضب الشافعية لرفض ملتسمهم ، فاجتمعوا ، وتوجهوا الى مسجد الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقرروا الاعتصام به حتى يجاب مطلبهم .

وتجمع الناس حول المسجد ، وانتهى الخبر الى الأمراء ، فاهتموا للأمر ، وسمى الوسطاء بين الفريقين ... حتى انتهى الموقف باقرار الشيخ العريشى شيخا للحنفية ، والشيخ العروسي شيخا للشافعية ، والشيخ الدردير شيخا للمالكية . أما منصب شيخ الأزهر فلم يبت فيه برأى ، وظل علماء الأزهر وطلابه منقسمين الى حزبين : حزب يناصر الشيخ العريشى ومعه الأمراء وطائفة الشوام والمغاربة ، وحزب يناصر الشيخ العروسي وجماعته ، ويصر على رأيه .

فبكى وبكى معه بعض الحاضرين في حفل أقيم
للتكريم .

وزير يعين شيخا للأزهر

ولما توفي الشيخ المراغى ، تطلعت الأعين الى
هذا المنصب — كما هو الشأن دائما — وثار
النزاع حول من يكون شيخا للأزهر . وافترق
الأزهريون فريقين أو عدة فرق : فريق يرى تعيين
الوزير الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر .
وفريق كان يتمسك بالقانون ، ويرى أنه يحول
دون تعيينه في هذا المنصب ، لأنه ليس من جماع
كبار العلماء . وكان على رأسه المرحوم الشيخ
عبد المجيد سليم والشيخ مأمون الشناوى
وكلاهما كان يرشحه بعض الأزهريين لهذا المنصب
الخطير .

وقد انتهى الأمر بتعديل القانون على نحو يبي
تعيين من اشتغل بالتدريس في الكليات الجامعية
من العلماء شيخا للأزهر . وعين الشيخ مصط
عبد الرازق في هذا المنصب استجابة لر
الكثرة من الأزهريين ... ولكن مدة اقامته فيا
تقل ، فتوفى رحمه الله قبل أن يمضى في اص
الأزهر خطوات . اذ ثارت من حوله الأعاصير
وسمع بأذنيه الهتافات التي لم يتعود سماء
ففاضت روحه فجأة وهو يؤدى الصلاة أمام ا
وهكذا كان هذا المنصب ، ولا يزال ، .
لكثير من المشكلات والمنازعات ، مما كان له
بعيد في سير الدراسة واستقرارها .

طريقة التدريس

كانت طريقة التدريس في الأزهر هي الطر
التي كانت تقوم عليها الدراسة في غير
المساجد قبله — كجامع عمرو وجامع ابن طول
فكانت الدروس تعقد به حلقات يتصا

ثم ظل الخلاف يتفاقم ويتعاضم الى أن حدثت
بين الطلبة الأتراك والشوام حادثة كانت هي
السبب في حسم الموقف ... فقد اشتجر أولئك
وهؤلاء ، وظهر من الشيخ العريشى تعصب لبنى
جلدته من الشوام ، فتعصب الأتراك كذلك
لاخوانهم ، وتدخلوا لنصرتهم ، وأعلنوا غضبهم
واستياءهم من الشيخ العريشى وبني وطنه ،
وتعقبوه ليضربوه ، فاختلفى وفر الشوام من
رواقهم . وكان ذلك هو السبب في عزل الشيخ
العريشى ، وتبثيت الشيخ العروسى في منصب
مشيخة الجامع الأزهر عام ١١٩٣ للهجرة
(١٧٧٩ م) .

الظواهرى ... والمراغى

وقد ظل هذا المنصب مثار التنافس والنزاع بين
كبار العلماء ، واستغل الولاة والحكام هذا
التنافس في الايقاع بين رجال الأزهر ، وضرب
بعضهم ببعض ... حتى كانت ثورة الأزهريين
الكبرى ضد الشيخ الظواهرى عام ١٩٣٥ .
فأعفى من منصبه ، وعين مكانه الشيخ المراغى
نزولا على الرغبة العامة .

وقد أقيم له حفل تكريم كبير برياسة الشيخ
عبد المجيد اللبان عميد كلية أصول الدين ، حضره
زعماء البلاد جميعا بسرارى معرض الجزيرة في شهر
يوليو من عام ١٩٣٥ . وقد خطب فيه الشيخ
الزنكلونى خطابا قويا قال فيه : « اذا تنكب
الأزهر الطريق يوما ، فليس ذلك من طبيعة الدين
الذى يقوم على حفظه . وانما منشأ هذا التنكب
هو القوى التي تتسلط عليه ، وتوجهه الى
طريقها . واذن لا تلوموا الأزهر ما دام غير قائم
على قدميه بنفسه ، وانما اللوم على من يمتلكون
أمره ، ويوجهونه حيث تأبى طبيعته أن تتوجه » .
واسترسل الرجل العظيم ، ثم خاتمه أعصابه ،

حلقة أستاذها ، وقد يجلس على كرسي ليتمكن من اسماع طلبته اذا كثروا أمامه . وكانت الدراسة تقوم على النقاش والحوار بين الطلبة والأستاذ بما يثقف العقل ، وينمي ملكة الفهم . وظلت الدراسة على هذه الحال الى عهد قريب . ويصف على باشا مبارك هذه الطريقة في « خطته » فيقول :

« كان في السابق لكل أهل مذهب من المذاهب الأربعة عمد معينة من عمدته ، لا يجلس في التدريس بها غيرهم ولو وقع لحصل الشفاق والقتال بينهم ... »

« ولكل شيخ من أهل المذهب عمود لا يتعداه ، ولا يتعدى أحد عليه ... لكن لا يشدد على ذلك كتشديد تعدي أهل مذهب على مذهب ... »

« والمتكلم على ذلك مشايخ المذاهب كشيخ المالكية ، وشيخ الحنفية واذا تفافم الأمر يرفع الى شيخ الأزهر ... »

« ويجلس الشيخ أمام العمود مستقبلاً ، الطلبة حلقة حوله ، فاذا كثروا جلس على كرسي من خشب أو جريد ، وهم أمامه بلا تحلق ... »

« وكانت العادة سابقاً ألا يجلس على الكرسي نحو شيخ الجامع ، ولا يمكن ذلك من غيره . بطل هذا فجلس كثير من العلماء على كراسي ... »

« ولكل طالب مكانه لا يتعداه ، وقيم من س فيه فاذا جلسوا ابتداء الشيخ بالبسملة صدلة والصلاة على النبي ثم يقرر لهم الدرس قة ، وهم يقابلون عليه في الورق ، ويسألونه لها لهم . وبعد ختم الدرس يقومون لتقيل لولو كبارا وليس على الشيخ أن يلاحظ حال ب من الاجتهاد أو التكاسل ، أو حضور بة ... بل هو موكول الى نفسه ، الا أن يكون

وليس عليه من نفسه أو وليه . يلتفت الى حفظ المتون قبل زمن الحضور أو معه ، فيحفظ جميع المتون أو بعضها فينجح في مساعاه لأن من حفظ المتون حاز الفنون ... »

« وقبل حضورهم حلقة الدرس ، لابد أن يطالعوه بالدقة متنا وشرحا وتقريراً ، مرة فأكثر ، جماعات وفرادى ... »

« وقد يطالع الشيخ عليه مواد أخرى حتى يكون مستحضراً لأطراف المسألة ، وما يرد عليها وما يجاب به ... وكذا كبار الطلبة ... »

« وكانت العادة فيه غالباً أن أفضل الطلبة يطالع لباقيهم درس شيخه مطالعة بحث وتفتيش ، حتى يأتوا الى الشيخ وهم متهيئون لما يلقيه . »

« قال في « خلاصه الأثر » : « وكان الشيخ سالم بن حسن الشبشيرى ، شيخ وقته ، يطالع لجماعة شيوخه النور الزيادى درسه على عادة مشايخ الأزهر ... »

« وكثير منهم يحصل الكتب التى حضرها ، فيملكها بشراء أو نسخ بيده أو غيره ... خصوصاً الرسائل الصغيرة ... »

المدرسون

« وكان لا تصدى للتدريس الا من مارس الفنون المتداولة بالأزهر ، وتلقاها من أفواه المشايخ ، وصار متأهلاً للتصدر ، حالاً لا مستئذاناً ، الا من جهة الأدب والبركة ... »

« وانما يعلم بعض المشايخ والطلبة ، فيحضرُونَ درسه ويتراكمون عليه ، وهو يتأنق في الابتداء ، ويسلك فيه طريق الاغراب والتوغل . وبعض الحاضرين يتعصب عليه ويتعنّت ، والبعض ينتصر له واذا تلعم في الاجابة ربما أقاموه ، ومنعوه من التصدر ، واذا عاند ربما ضربوه ... »

طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة ، وصحب السادة من المشايخ والفتهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى ، والى ليل السعادة ان شاء الله يفضى ... استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا ، العبد الفقير الى الله تعالى ، الشيخ الامام العلامة ، الحبر البحر الفهامة ، فريد دهره ، ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوجد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء : سراج الدين ، مفتى الاسلام والمسلمين ، أبو حفص عمر بن الملتن ... الخ .

« وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه ، أدام الله معاليه ، أن يدرس مذهب الامام المجتهد المطلق : العالم الربانى ، أبى عبد الله محمد بن ادريس المطلبى الشافعى ، رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثقله ومثواه ... وأن يقرأ ما شاء الله من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبيه - حيث حل وأقام ، كيف شاء متى شاء ، وأين شاء - وأن يفتى من قصد استفقاه خطأ ولقظا ، عا مقتضى مذهب الشريف المشار اليه ... لعلمه بدياة وأماته ، ومعرفته ودرايته ، وأهليته لذا وكفايته ... وكتب فى تاريخ كذا » .

وقد ذكر صيغة اجازة أخذها ابنه من الشب شمس الدين محمد بن عبد الدايم ، تتضمن أ آقن حفظ كتاب « المنهاج » فى الفقه للنوى ، ٨١٣ للهجرة .

القانون الاول

وقد عالج قانون عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧٢ م) عيا هذا النظام ، فنظم طريقة الحصول على الشه العالمية ، وبين المواد التى يمتحن فيها الطالب الحصول عليها ، ورتبها على ثلاث درجات —

« ثم تساهلوا فى ذلك حتى صار من يتصدر لا يتعرض له أحد ، حتى كثر المتصدرون ، وصار فيهم من لا أهلية فيه .

« ثم لما تولى مشيخة الجامع الشيخ مصطفى العروسى تنبه لذلك ، وهم بمنع غير المستحقين للتصدر ، وعزم على عمل قانون يجرى عليه المشايخ فى تصدرهم ... ففاجأه العزل عن المشيخة فى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف . وصار الى الشيخ محمد المهدي الحنفى العباسى الحنفى ، فأراد أن يمشى على الطريقة التى كان عزم عليها الشيخ مصطفى العروسى لما رأى فى ذلك من المصلحة العائدة على العلم بالحفظ وعدم الابتذال ، فاستأذن عزيز مصر الخديو الأعظم فى عمل قانون الامتحان لكل من يريد التدريس من المستجدين » .

الاجازات العلمية

لم يكن للأزهر قبل صدور هذا القانون شهادات معينة ، انما كانت هناك اجازات علمية تمنح للطلاب من أكابر العلماء ، متى كمل استعدادهم ، ونضجت مداركهم ، واصبحوا أهلا للتدريس أو الافتاء . وقد تمنح الاجازة فى مادة معينة أو كتاب خاص متى أتم الطالب دراسة هذه المادة أو حفظ هذا الكتاب بحيث يمكنه تدريسها أو تدريسها .

وقد ذكر القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » طائفة من هذه الاجازات ، نذكر منها بعض ما جاء فى اجازته هو (القلقشندى) التى أخذها من العلامة سراج الدين أبى حفص عمر ، الشهير بابن الملتن ، وكتبها القاضى تاج الدين بن غنوم . فقد جاء فيها بعد البسملة والديباجة ما يلى :
« ولما كان فلان — أدام الله تسديده وتوفيقه ، ويسر الى الخيرات طريقه — ممن شب ونشأ فى

ذكرنا — أولى ، وثانية ، وثالثة ، وجعل منحها بأمر أو براءة من ولي الأمر ... وبذلك وضع أول حجر في بناء الإصلاح ، ومنع أن يدعى العلم من ليس من أهل العلم . أما مواد الدراسة ، وطريقة تدريسها ، فلم يمسها بتعديل أو تبديل ... بل بقيت كما كانت ، وبقي حرص الأزهرين عليها كما كان . ولعلها انتقلت من سيئ الى أسوأ . وقد وصف الأستاذ أحمد أمين هذه المواد والكتب التي كانت تدرس في هذه الفترة فقال :

« كل الكتب التي تدرس في الأزهر من تاج العصور المتأخرة ، تدرست من العصور الزاهية ، ولكن عدا الزمان عليها ، فأفقدتها روحها ، فصارت شكلا ... النحو كان يراد منه النطق الفصيح والكتابة الصحيحة ، وفهم كتب الأدب فهما صحيحا ، فصار مجرد تفهم لألفاظ المؤلفين في النحو . وأصول الفقه كان يقصد منها التمرين على الاجتهاد في التشريع ، فأصبحت ولا اجتهد ولا تشريع . والبلاغة كان يقصد منها كيف يكتب القول البليغ ، فصار المؤلفون فيها أعاجم لا يحسنون التعبير كالسعد التفتازاني ... حتى أباح لنفسه الشيخ أحمد الرفاعي أن يدرس أكبر كتاب في البلاغة وهو المطول ، ثم يعترف أنه لا يحسن أن يكتب رسالة ، ولو غير بليغة ، لأن هذا من عمل الأبيذ المدارس المدنية ... »

« واشتهر من فطاحل هذا العصر : الشيخ أحمد رفاعي ، وأساس شهرته أنه يحسن فهم الكتب ، يستطيع تحليل الجمل وإثارة الشبهات حولها ، حتى يعقد السهل ، ويغمض الواضح . والشيخ يش ، وهو شيخ من أصل مغربي ، شهرته في بته وعصبية ، ورميه الناس بالكفر لأوهى سبب سبق أفقه ، وشدة غيرته على الدين بالمعنى الذي ... »

« ولكن كان هناك آخرون هياتهم الظروف لأن يتصلوا بالدنيا وحركة التعليم للمدينة ، فاتسع أفقهم : كالشيخ البسيوني امام المعية ، وكان ظريفا في شكله وفي ملبسه وفي تأليفه . والشيخ حسن الطويل ، وكان ذكيا حكيما له نظرات في الحياة صائبة ، يقرأ الفلسفة فيرمى بالزندقة ... »

« هذا هو الأزهر الذي رآه محمد عبده يقوم التعليم فيه على الفلسفة اللفظية ، ويعلم طالبه الدقة في التفهم والقدرة على الجدل ... وهذه محمده ، ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل الا في الألفاظ ، وتجعل صاحبها غارقا في الاحتمالات بما يراه في الحواشي والشروح من التأويلات ، فكل شيء يجوز حتى دخول الجمل في البندقة — على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه — يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهما لبضعة كتب . أما الدنيا وشؤونها فانه يجهلها كل الجهل : فلا جغرافية ، ولا تاريخ ، ولا طبيعة ، ولا كيمياء ، ولا رياضة . . »

الإصلاح

كانت نظرة الأزهرين ، كما قدمنا ، الى محمد على وبنيه ، والى كل ما جد في عهودهم من تغيرات شملت نواحي التعليم فيما شملت ، نظرة اريياب وشك . وكان موقفهم الجامد على ما ورثوا من مخلفات وثقافات نتيجة معقولة لهذه النظرة الحذرة . ثم كان « دنلوب » بعد الاحتلال البريطاني هو القابض على زمام التعليم في مصر ، فكان ذلك مما يزيد موقف الأزهرين جمودا وتعقيدا .

ولكن صيحات الإصلاح التي جهر بها الشيخ محمد عبده لم تذهب هباء في الهواء ، بل تفتحت لها آذان ، ووعنتها أذهان ، وتحس لها مؤيدون ، وان كانوا القليل أو أقل من القليل ... فقد كان جمهرة الأزهرين — وبخاصة كبار علمائهم —

ينظرون الى الشيخ محمد عبده كذلك نظرة شك وارتباب وقبل أن نلومهم على ذلك ينبغي أن نذكر الظروف التي جعلتهم يقفون منه هذا الموقف ... فقد عرف لديهم أنه عاد الى مصر من منفاه بعد أن قبل اللورد كرومر شفاعه أصدقائه ، وضغط على الخديو حتى سمح له بالعودة ، وعرف لديهم أنه بعد عودته من منفاه وضع تقريرا بما يراه من وجوه اصلاح التعليم في مصر ورفعها الى اللورد كرومر لا الى غيره ، فكان ذلك بمثابة التسليم بأنه القوة الفعالة في مصر — كما يقول أحمد أمين — ثم عرف لديهم بأنه يسالم الانجليز ويتعاون معهم وهذه ظروف ، مهما تكن لها من مبررات ، من شأنها أن تهيج شك الأزهرين فيه ومعارضتهم له ، وان كان أوفق منها ، وأصدق قليلا ... فقد كان — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — يرى أن جلاء الانجليز لا يأتي الا من طريق استنارة الشعب ، وفهمه لحقوقه وواجباته ، وغضبه من الاعتداء على حقوقه ، وهتمته في أداء واجباته ومصر لم تكن تبلغ هذا المبلغ ، ووسيلة اصلاحها التعليم ثم يرى أن مسألة مصر لا تحل بمواجهة مصر لانجلترا ، بل بالحالة الدولية العامة ، والتفات الدول الى أن مصلحتها في استقلال مصر ... والى أن يحدث ذلك يجب على القادة أن ينبروا الشعب بالتعليم ، ولا يجعلوا كل همهم الاشتغال بالسياسة .

مجلس ادارة

مع هذا كله أثمرت دعوة الاصلاح التي قام بها الشيخ محمد عبده ، وصدر في يناير من عام ١٨٩٥ قانون بتشكيل مجلس ادارة الأزهر ثم عين في هذا المجلس اثنان من موظفي الحكومة هما الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ،

وثلاثة من أكابر العلماء الأزهرين غير الموظفين : أحدهم شافعي وهو الشيخ حسن المرصفي ، والثاني مالكي وهو الشيخ سليم البشري ، والثالث حنبلي وهو الشيخ يوسف النابلسي شيخ مذهب الحنابلة اذ ذاك .

ثم كان أول ما بحث فيه المجلس ، هو وضع قانون المرتبات وقد تقرر فيه أن المرتبات السنوية لا يمكن أن ينقص المرتب منها عن اثني عشر جنيها في العام ، ولا أن يزيد على ثلاثين جنيها وثلاثي جنيه ، وبينهما درجات ترتفع الواحدة عما تحتها ثلاثة جنيهات ، وأن المرتبات الشهرية لا يمكن أن تنقص عن خمسة وسبعين قرشا ، ولا أن تزيد على ثلاثمائة قرش

ثم نظر المجلس في التدريس والتعليم والامتحان ، فوضع مشروع قانون عام ضمنه خصائص الادارة العمومية ، وما لمجلس الادارة ولشيخ الجامع من الأعمال ، وشروط الانتظام في طلبة الأزهر ، ومدة طلب العلم ، والمساهمات والعلوم التي تدرس في الأزهر ، وبيان المقاصد منها والوسائل وجعل الامتحان امتحانين أحدهما لنيل شهادة الأهلية ، والثاني لنيل شهادة العالمية وإضافة علوم أخرى الى العلوم التي كانت تدرس بالأزهر ، وهي تاريخ الاسلام ، وصناعة الانشاء ، ومتن اللغة وآدابها ، وتقويم البلدان ، ومبادئ الهندسة .

ثم رفع المجلس مذكرة ببيان المبالغ المحتاج اليها الى الخديو ، فأصدر أمره الى ديوان الأوقاف بتقريرها في ميزانية سنة ١٨٩٧ .

وهذا بيان تلك المبالغ التي قررت لتنفيذ القانون مع بيان مصارفها (نقلا عن كتاب « أعمال مجلس ادارة الأزهر ») :

جنيه

٦٠٠ لأربعة وعشرين عالما

٦٠٠ مكافأة للطلبة

٦٠٠ مكافأة لمشايخ الأروقة والحارات
وللملاحظين

٦٠٠ لعلوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ
الاسلامى

٣٦٠ للخط

١٥٠ مصارف الادارة العمومية للأزهر

٤٦٤ لدار الكتب الأزهرية

٣٣٧٤

ويذكر الشيخ عبد الكريم سلمان أن المبلغ الذى قرر لمكافآت الطلبة ، كان الغرض منه بث روح الفيرة فيهم ، وترغيبهم في تحصيل العلوم المتداولة في الأزهر ، وأن يكون تحصيلهم لها على وجه يبقى معه ما حصلوه منها راسخا في الذهن ، لا أن يكون مقصورا على مجرد فهم العبارات والمناقشات اللفظية ... واهذا وضع المجلس قرارا بصرف هذا المبلغ على الطلاب قرر فيه أن يعمل لهم امتحان اختياري في آخر كل سنة دراسية في أى علم من العلوم التى تقرأ في الأزهر ، وحدد أوقات الامتحان وكيفيته ، وأن يكون تحريريا ، وأن توزيع المكافآت على الناجحين يكون بنسبة ما حصلوه ونجحوا فيه ... وذلك في أول العام الدراسى بمحضر من شيخ الجامع ، وأعضاء مجلس الادارة ، وكل أفاضل العلماء في الأزهر .

العلوم الحديثة

وقد بعثت هذه المكافآت هم الطلبة ، وحركت نشاطهم الى تعلم العلوم الحديثة . ثم رأى المجلس أن يستطلع قوة المشتغلين بالعلوم الحديثة مع العلوم القديمة ، وحال المقتصرين على القديم . فقرر أنه لا يقبل طلب امتحان المكافأة في علم من

العلوم الحديثة وحده ، بل لابد أن يصحب بثلاثة علوم على الأقل من العلوم المتداولة ، وأن من يريد الامتحان في العلوم القديمة وحدها فله ذلك دون حرج عليه ، ثم تبين بعد الامتحان أن الذين نجحوا في العلوم القديمة ، مع اشتغالهم بالعلوم الحديثة ، أكثر من الذين نجحوا مع اقتصرهم على العلوم القديمة ... وقد سجل المجلس ذلك في تقريره السنوى مدعوما بالأدلة والأرقام .

أسس جديدة

وفي عام ١٩١١ ، بعد ثورة الأزهرين التى أشرنا اليها ، وبعد انشاء مدرسة القضاء الشرعى ، صدر قانون جديد بتنظيم الدراسة في الأزهر على أسس جديدة . فكان من أهم ما تضمنه تقسيم الدراسة في الأزهر الى مراحل لكل منها نظام خاص ومواد مخصوصة ، وانشاء هيئة للإشراف على شئون الأزهر برئاسة شيخ الجامع الأزهر ، تسمى « مجلس الأزهر الأعلى » ، وانشاء هيئة كبار العلماء ، وازدادة مواد التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادئ الطبيعة والكيمياء الى مواد الدراسة القديمة .

وقد جاء في المادة الأولى من هذا القانون : أن الجامع الأزهر هو المعهد الدينى العلمى الاسلامى الأكبر ، والمعاهد الأخرى هى : معهد مدينة الاسكندرية ، معهد مدينة طنطا ، معهد مدينة دسوق ، معهد مدينة دمياط . وكل معهد يؤسس في القطر المصرى بإرادة سنية . وكذا كل معهد أهلى يتقرر احاقه بالجامع الأزهر أو بأحد المعاهد الأخرى بالشروط والأوضاع التى تبين في لائحة يضعها المجلس الأعلى ، ويصدق عليها بإرادة سنية .

وقد جاء في المادة الثالثة : أن مدرسة القضاء الشرعى تكون قسما ملحقا بالجامع الأزهر ،

والاسلامية من جهة أخرى ... فقد اشتدت حملات الصحف على الأزهرين ، وصورت كبارهم تصويرا يلقي في روع قرائها أن الأزهرين متخلفون رجعيون ، لا يصلحون للحياة ولا تصلح بهم الحياة .

وكانت كلما ارتفعت أصوات الأزهرين بمطالب اصلاحية ، ارتفعت بجانبها أصوات أخرى تنفخ في الأبواق بأنهم طلاب درجات وعلاوات ... مع أنهم لم يكونوا يجدون مجالا للعمل في غير الأزهر على كثرة متخرجيهم فيه ، وضيق المعاهد الدينية عن أن تتسع لعشر معشار هؤلاء المتخرجين ... ان عددا كبيرا من المتخرجين في قسم التخصص ، بعد دراسة خمسة عشر عاما ، عينوا في الأزهر عام ١٩٣٣ بمرتب قدره ٢٧٠ قرشا ، وبعضهم قبل أن يعين مدرسا بالمجان ريثما يتوافر له هذا المرتب ... وكثير منهم عرضوا أنفسهم قبل ذلك ليكونوا مدرسين في المدارس الالزامية فلم يقبلوا فيها .

هذا الى الصور الكاريكاتيرية ، والنمطيات الهزلية ، والحكايات التي كان يتندر بها الناس عن الأزهر ورجاله ... مما أشعر الأزهرين بأنه شبه غرباء في بلادهم ، وان بقيت لهم في القرى وفي ضمير الشعب مكائتهم ومنزلتهم .

مذكرة الشيخ المراغي لاصلاح الأزهر

ولما عين فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراة شيخا للأزهر عام ١٩٢٨ ، كتب مذكرة باصلا الأزهر ضمنها علاج عيوبه ، وعلاج المشكلات التي أقيمت حوله ... فقد كان رحمه الله تلميذا للام محمد عبده ، فأشرب روحه ، وحمل لو الاصلاح من بعده . وقد كانت هذه المذكرة ولا تزال ، الدستور لكل اصلاح أدخل على الأزهر أو سيدخل عليه فيما بعد . ولولا العقبات التي وضعت في طريقه ، والاتجاهات التي حا

وتبقى حافظة لنظامها المقرر لها في قانون ٢٥ فبراير عام ١٩٠٧ . ويحل مجلس الأزهر الأعلى محل فاخر المعارف العمومية في جميع الاختصاصات التي له الآن بمقتضى القانون المشار اليه .

اقسام للتخصص

وقد رئي بعد ذلك أن الأزهر في حاجة الى اقسام أخرى يزداد فيها العالم تمكنا في المواد الأزهرية الأصلية ، فأنشئ قسم للتخصص في عام ١٩٢٣ . وكان هذا القسم يتكون من عدة شعب ، منها : شعبة الفقه والأصول لاعداد المتخرجين فيها لتولى وظائف القضاء الشرعى - وكان ذلك تمهيدا لالغاء مدرسة القضاء - ومنها شعبة البلاغة والأدب . ثم توجهت العناية الى التوسع في دراسة العلوم الحديثة في المرحلتين الابتدائية والثانوية بالمعاهد الدينية ، فزودت هذه المعاهد بالمعامل اللازمة لهذه الدراسة ، وأنشئ لهذه العلوم تفتيش مستقل مقره ادارة الأزهر .

عزل الأزهر

مع كل هذه المحاولات التي بذلت لانهاض الأزهر ، والتعديلات التي أدخلت على قانونه ، والاقسام التي أنشئت فيه ... بقي الأزهر معزولا عن وظائف الدولة ، كأنما كانت وزارة المعارف في كل تلك الحقب خاضعة لسياسة لا تستطيع أن تحيد عنها ، وكأنما كانت الحكومات المختلفة مشدودة بخيوط خفية لا تستطيع أن تنفلت منها وتنتج الى الأزهر .

وقد اقترن هذا الاتجاه العام بمظاهر أخرى تؤكد أن عزل الأزهر عن مدارس الدولة ومحاكمها ومختلف الوظائف فيها ، كان غرضا استعماريا يخفيه جمود الأزهر من جهة ، واتجاه سياسة التعليم في مصر اتجاها يجافى روحها القومية

دون تنفيذ خطة اصلاحه ، لكان للأزهر بصفة خاصة ، وللتعليم بصفة عامة ، وجه غير هذا الوجه ، وحال غير هذه الحال .

وقد نشرت هذه المذكرة جريدة الأهرام في شهر أغسطس من عام ١٩٢٨ ، وجاء فيها ما يلي : « ان الأمة المصرية — وهى تريد النهوض والمجد ، وتتطلع الى حياة سياسية راقية — يجب أن يكون عليها أن تتذكر دينها ، وتلتفت الى حملة ذلك الدين فتصلح شأنهم ، وترقى تعليمهم ، وتضعهم فى المسكنة اللائقة بالمرشدين ، والتي يجب أن يكون عليها حملة الدين . أما اهمال هذه الناحية ، والسعى الى ترقية النواحي الأخرى من حياة الأمة ، فلا أرى أنه يوصل الى الغرض المقصود . فالخلق هو العمود الفقري للأمم ، لا يمكنها أن تنهض بغيره ، وأسهل طريق لتكوينه هو طريق الدين اذا أصلح تعليمه ، وهذب دعاته . وقد كان الأزهر مصدر أشعة نور العلوم الدينية والعربية وغيرها الى البلاد الاسلامية ، وقد أصابه ما أصاب غيره من خنول . »

ثم بين بعد ذلك ضرورة اصلاح الأزهر ، وقال : « يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهمها على وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقها وآدابها من المعانى ، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة . وأن يتعدى فى تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة ... »

« يجب أن تهذب العقائد والعبادات ، وتنقى ما جد فيها وابتدع ، وتهذب العادات الاسلامية حيث تنفق وقواعد الاسلام الصحيحة ... »

« يجب أن يدرس الفقه الاسلامى دراسة حرة اليّة من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده تبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من

هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عنها فى الكتاب والسنة ، والأحكام المجمع عليها ، والنظر فى الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة ، كما كان يفعل السلف من الفقهاء ... »

« يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الاسلامى ، ليظهر للناس يسره وقده وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف . ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها ، وأسباب التفرق ، وتاريخ الفرق الاسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها ... »

« يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها ، وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والموايد الثلاثة ، مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت الى ذلك ... »

« يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف ، وأن يضاف الى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغة وآدابها ... »

« يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة ، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الاسلام الزاهرة ، والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية . وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين ، وكل ما هو قطعى فيه ، محافظة تامة ، وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد ... بحيث لا يبقى منه الا ما هو صحيح من جهة الدليل ، وكل ما هو موافق لمصلحة العباد ... »

« يجب أن يفعل هذا لاعداد رجال الدين ، لأن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة ودينه عام . ويجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة

ولا ترتب درجات التعليم فيه ، ولا يكون له شيء من الحقوق في أعمال الدولة . وانما الغاية من وجوده هي سد حاجة من يريد التفقه في دينه ، ومعرفة اللغة العربية ليخرج من الجهالة الى نور العلم ، ويقنع بالعلم نفسه . وتوضع لهذا القسم نظم لا يقصد منها أكثر من مراقبة الأخلاق ، ومن تعليم أفرادها تعليما صحيحا بعيدا عن العقائد الفاسدة ، موصلا الى روح الدين ، موصلا الى خلق قويم ...

القسم الأول

« والقسم الأول تجعل درجات التعليم فيه ثلاثا ، فيكون ثلاثة أقسام :

القسم الأولي : مدته خمس سنوات

القسم الثانوي : مدته خمس سنوات

والتعليم في القسمين الأولي والثانوي يكوز عاما على مثال التعليم في المدارس الأميرية . ويعلم فيهما كل ما يعلم في المدارس الأميرية ما عدا اللغات . وتعلم فيهما علوم الأزهر الأصلية — بالقدر المؤهل لدخول الأقسام العالية — تعليما لا يكون قوامه حفظ الدروس ، وانما يكون قوامه فهم العلم ، والمران على البحث والتدليل ، وتربية الملكات ...

« وقد يلاحظ أن المدة لا تحتل تعليم علو الأزهر ، وتعليم ما يدرس بالمدارس الأميرية ولكن هذه الملاحظة تزول اذا لوحظ أن الطالب المعاهد يؤخذ في سن عالية عن سن التلميذ المدارس الأميرية . وبقلب أن يكون ألم بكثير المعلومات في المدارس الأولية ، وأن يكون حاف للقرآن . فاستعداده وسنه يسمحان بأن يحتل هذا المقصد الذي يراد أن يعلمه ... على الشروط التي توضع لقبول التلاميذ في القسم الأولي كقيلة بإبعاد من لا يقوى على احتمال هذا الدراسة ...

والأمكنة المختلفة ... وان لم يفعل هذا يكون عرضة للنفور منه ، والابتعاد عنه ، كما فعلت بعض الأمم الاسلامية ، وكما حصل في الأمة المصرية نفسها ، اذ تركت الفقه الاسلامي لأنها وجدته يحالته التي أوصله اليها العلماء غير ملائم . ولو أن الأمة المصرية وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمان ، وتبدل العرف والعادة ، وراعى الضرورات والحرص ، لما تركته الى غيره ، لأنه يرتكن الى الدين الذي هو عزيز عليها ...

دراسة شاقة

« لست أنسى أن هذه الدراسة التي أسلفت بيانها ، دراسة شاقة تحتاج الى مجهود عظيم ، وتحتاج الى رجال قد لا نجدهم في طائفة العلماء ، وتحتاج الى مال يكافأ به العاملون ... ولكن سمو المطلب يحملنا على تذليل كل عقبة تقف في طريقه ، ويوجب علينا السخاء والبذل لأننا نريد اصلاح أعز شيء على نفوس الجماهير ، ونريد بهذا الاصلاح تقويم هذه الأمة ونهوضها . وليس من السهل أن يكلف شخص واحد بهذه الدراسة على اختلاف أنواعها ، بل من الواجب أن تفكر في طريقة التقسيم ، وجعل الدراسة أقساما وأنواعا متميزة ...

اسس النظام

« وبعد هذا أستطيع أن أضع أسسا اجمالية للنظام الذي أبغى أن يكون عليه الأزهر والمعاهد الدينية ...

« يجب أن يقسم التعليم الديني الى قسمين : قسم يحدد عدد تلاميذه ، وترتب درجات التعليم فيه ، وتبين لهم حقوقهم والغايات التي تراد منهم ، والأعمال التي تسند اليهم من أعمال الدولة ... وهذا هو القسم الذي سيكون موضع العناية ، ومكان الرجاء والأمل . وقسم لا يحدد عدده ،

التعليم العالي

« ويقسم التعليم العالي الى ثلاثة أقسام :

١ - قسم اللغة .

٢ - قسم الفقه .

٣ - قسم الارشاد والدعوة .

« ويجب أن يلاحظ أنى حيث أعرض لهذه الأقسام ، وحيث أبين ما يدرس فيها ، فأنى أضع رسماً اجمالياً قابلاً للتهذيب ، وأترك تفصيله الى أن يحين وقت التفصيل ، فتؤلف له لجان فنية ...

المواد الدراسية

« أما القسم الأول ، فتدرس فيه علوم اللغة من نحو وصرف ووضع ، وعلوم البلاغة وأدب اللغة العربية ، وتاريخ الآداب ، وعلم النفس والتربية . ويعلم التلاميذ فيه بعض اللغات التى لها اتصال وثيق باللغة العربية . ويدرس فيه الكتاب والسنة من حيث اتصال اللغة العربية بهما ومن حيث اتصالهما بأدبها ...

« وأما القسم الثانى ، فيدرس فيه الكتاب والسنة دراسة مفصلة . وبخاصة من ناحية الأحكام الفقهية ، ويدرس أصول الفقه ، وتقارن المذاهب الاسلامية بعضها ببعض مع عرض الأدلة ، ومع التعرض للترجيح من جهة الدليل والعرف والعادة ومن جهة المصالح العامة ، وتقارن المذاهب الاسلامية بالقواعد العامة فى أصول القوانين ، ويدرس تاريخ التشريع الاسلامى ، وما يلزم للقاضى والمحامى من نظم القضاء والادارة وقوانين المرافعات .

« وأما القسم الثالث ، فيدرس فيه المنطق ، التوحيد الاسلامى ، والأخلاق والفلسفة ديمها وحديثها ، وتاريخ الأديان ، والمذاهب مع تاريخها بالدين الاسلامى . ويدرس أدب اللغة

والقرآن والسنة ، وبخاصة من ناحية طرق الهداية والارشاد ...

الغاية من هذا

« بعد هذا أتتقل الى الغاية من هذا التعليم . وسأجد نفسى مضطراً الى شىء من الاطالة فى القول ...

« عندما فكرت الحكومة المصرية فى انشاء مدرسة دار العلوم لتخريج أساتذة اللغة العربية فى المدارس الأميرية ، كان العلماء فى الأزهر لا يعنون الا بدراسة القواعد وفلسفتها دراسة نظرية بعيدة عن التطبيق ، وبدراسة الألفاظ وخدمة عبارات المؤلفين . ولا يعنون بالغاية من اللغة ، ولا بخدمة اللغة نفسها ... يشهد بذلك أن أسلوب الكتب المؤلفة فى تلك الأيام بعيد كل البعد عن اللغة ، ويشهد بذلك أن بعض كبار العلماء ممن شاهدناهم لم يكونوا يحسنون التعبير عن أغراضهم ، ولا تزال منهم بقية الى اليوم ...

« وكان العلماء أيضاً لا يدرسون شيئاً من العلوم العامة — كالتاريخ ، والحساب ، والهندسة ، وتقويم البلدان — وكانوا يحافظون على ما هم عليه أشد المحافظة ، ولا يرون الخير الا فيما هم فيه ... فلم تكن معلوماتهم العامة ، ولا طرائق تعليمهم ، مؤهلة لتوليهم تعليم النشء فى المدارس الأميرية على النحو الحديث ...

« وعند ما فكرت الحكومة فى انشاء مدرسة القضاء الشرعى ، كان الأزهر على النحو الذى وصفته . وكان فيه علماء يحرمون تقويم البلدان والتاريخ والحساب ، ويكتبون مقالات فى الجرائد ضد هذه العلوم . وكان ولاية الأمور يشكون من أن القضاة لا يعرفون الأرقام ، ولا يعرفون طرق التوثيق ، ولا يعرفون من العلوم العامة ما يجب أن يعرفه شخص يتولى الحكم بين الناس ...

وتخصص فرقة من قسم الفقهاء لتحل محل مدرسة القضاء ، فتكون ينبوعا للقضاة والمحامين والمفتين ، وتلغى تجهيزية دار العلوم والقضاء ...

اعتراض

« أول ما يعترضنا في هذا أن مدرسة دار العلوم أنشئت للحاجة إليها . وقد حققت الآمال فيها ، فأخرجت للدولة علماء أحيوا اللغة العربية وآدابها بعد أن كادت تدرس . وكانوا من أهم الأسباب لنشر تلك اللغة وتحييها الى الناس ... بينما الأزهر ضعف التعليم فيه ، وأصبح محلا لشكوى الأمة وشكوى أهله أنفسهم . وليس من الحكمة — بناء على الآمال في الأزهر — أن نمت مدرسة محققة الفائدة ، وكذلك الحال في مدرسة القضاء ...

« ولكن على الرغم من قوة هذه الحجة يمكننا التغلب عليها بمراعاة ما يأتي :

« قد كان الأزهر منفصلا عن الحكومة في الماضي انفصالا تاما ، فلم تكن له بها علاقة الا بببلغ يسير في الرزنامة كان حقا له عليها ، ولم يكن للحكومة اشراف عليه . وقد تبدل الحال ، فصارت ميزانية الأزهر الضخمة أكثرها من وزارة المالية ، وبعضها من وزارة الأوقاف ، وصار لرئيس الدولة حق الاشراف عليه ، وصار مسئولوا عنه أمام البرلمان ، وأصبح من اليسير على الأمة والحكومة أن تعرفا فيم تنفق الأموال ، وبأى شيء تشتغل المعاهد ، وعلى أى نحو تدير ...

« ثم ان اندماج دار العلوم والقضاء سيفضي حتما الى ادخال أساتذة المدرستين في الأزهر ، والى وجود الصلة التامة بينهم وبين العلماء . فهذه الصلة ، التي من شأنها أن توجد تماس الأفكار . ستنتج نتائجها الحسنة في احسان الدراسة وستكون هناك عناصر قوية من رجال التعليم في مجالس الادارة والمجلس الأعلى ، وفي التفشيير

وقد بدل الله هذه الأحوال ، وأصبح قانون الأزهر مشتملا على ضعف العلوم التي كانت تدرس فيه من قبل ، وأصبح يدرس فيه التاريخ الطبيعي ، وتدرس فيه الطبيعة والكيمياء ، ويدرس فيه الجبر والهندسة . وقبل الأزهر في قسم تخصص القضاء الشرعى دروسا في وظائف الأعضاء ، ودروسا في التشريح ... قبل الأزهريون كل جديد ، وأعدوا أنفسهم له ، وزالت كل العقبات التي كانت من قبل ، ولم يبق الا اصلاح طرق التعليم ، وايجاد المعلمين الأكفاء ، وتوزيع العلوم على الأقسام توزيعا صحيحا . واذا كانت هناك بقية تعترض الجديد فلم يبق لها من الشأن ما تستطيع معه أن تكون عقبة في طريق الاصلاح ...

مدارس متعددة لنوع واحد

« في الدولة الآن مدارس متعددة لنوع واحد من التعليم : فيها دار العلوم لتعليم اللغة ، وفيها الأزهر وكل المعاهد لعلوم اللغة ... فيها مدرسة القضاء الشرعى لمفقه ونظم القضاء ، وفيها الأزهر للمفقه ونظم القضاء ... وفيها تجهيزية دار العلوم ، وفي الأزهر أقسام تماثلها ...

« تنفق الدولة على هذه المدارس جميعها ، ومن الممكن أن تقتصد في هذه النفقات . ومن الممكن أن تضم هذه النفقات بعضها الى بعض ، وتوحد جهودها لتخرج أمثلة أحسن من هذه الأمثلة ... « في الدولة أشكال مختلفة من العلماء ، تخرجوا في مدارس مختلفة ، يحسد بعضهم بعضا . وينقم بعضهم على بعض ... ولهذا أثره في افساد الأخلاق ...

« لم لا يحملنا هذا كله على التفكير في توحيد الجهود ، وتوحيد النفقات ونجعل قسم اللغة منبع علماء اللغة لجميع مدارس الدولة والأزهر ،

على المعاهد ... وعلى الجبل ستوجد كل الصمات
التي تظمن النفوس الى أن المعاهد لا ترجع
القهرى ...

« هذا الذى قلته — مضافا الى توحيد التعليم ،
وتوحيد النفقات ، وتجانس العلماء فى الدولة —
من شأنه أن يحملنا على المضى فى هذا الطريق ...

مدرسة القضاء

« ونختص مدرسة القضاء على نظامها الجديد
بكلمة لا بد لى من التصريح بها :

« لست أرجو للقضاء الشرعى خيرا من هذه
المدرسة على نظامها الجديد . وقد كان نظامها منذ
أنشئت الى سنة ١٩٢٣ خيرا من هذا النظام
الجديد ...

« ذلك أننا حتى اليوم ليس لنا مراجع فى
القضاء الا تلك الكتب المقررة فى القرون الماضية ،
وهى كتب معقدة ، لها طريقة خاصة فى التأليف
لا يفهما كل من يعرف اللغة العربية . وانما يفهما
من مارسها ، ومرن على فهمها ، وعرف اصطلاح
أهلها . وأيضا فان العلوم الشرعية التى يحتاج اليها
لقاضى مشتبكة يستمد بعضها من بعض ، ولا غنى
لغقيه عن تعرف علوم كثيرة ترتبط بالفقه ...

« ونظام المدرسة الجديد قطع الصلة أو أضعفها
ن تلاميذ مدرسة القضاء وبين الكتب القديمة .
لتلاميذ الذين يتخرجون فى التجهيزية ، ونقلون
ب مدرسة القضاء ، ليس لهم من المؤهلات
يعددهم لتفهم تلك الكتب ، والى هضم تلك
ملومات التى وضعت لهم فى البرامج ...

الكتب القديمة

« ولست أدافع الآن عن الكتب القديمة ، بل
بجو الله أن يمكننا من الاستغناء عنها بأحسن
سا . وانما أدافع عن الموجود الذى قضت

الضرورة بوجوده ، فنحن فى حاجة الى رسل بين
القديم والحديث ، وأولئك الرسل يجب أن نعلمهم
القديم والحديث ليخرجوا للناس حديثا جيدا .
لا بد لنا من علماء فيهم من القوة ما يستطيعون
بها فهم تلك الكتب القديمة ، ومعرفة تلك الطرائق
القديمة ، وفيهم من القوة ما يستطيعون معه
تصوير ذلك فى أسلوب حديث ... ولذلك فانه
يجب أن يراعى فى النظام الجديد الأزهر عدم
اهمال طرقة الأصلية فى البحث وفهم الكتاب ...

« أما المدرسة على نظامها منذ أنشئت الى
سنة ١٩٢٣ ، فانها تستحق الثناء ، ولا أجد
ما أعيبها به . ولكن أستطيع أن أقول بأن تعهد
الأزهر والمعاهد بالرقابة وحسن الادارة ، يخرج
للأمة مثل علماء تلك المدرسة أو أحسن منهم ...

الخلاصة

« وخلاصة ما أسلفته أن تندمج تجهيزية دار
العلوم والقضاء ومدرسة القضاء ومدرسة دار
العلوم فى المعاهد ، على أن توضع قواعد وقتية
بهذه المدارس بالنسبة لتلاميذها الموجودين
فيها الآن ...

« أما امتيازاتهم فهي كما سيأتى :
« علماء اللغة العربية : يكونون أساتذة فى
الأزهر والمعاهد الدينية ، وفى جميع مدارس
الحكومة ومجالس المديريات ...

« علماء الفقه : يكونون أساتذة العلوم الشرعية
فى الأزهر والمعاهد الدينية وجميع مدارس
الحكومة ...

« علماء الارشاد والدعوة : يكونون أساتذة في الأزهر والمعاهد ، ويكونون خطباء وأئمة ووعاظا ومرشدين ...

« أما شهادة القسم الأولى فليس لها شيء من الحقوق الا تأهيل صاحبها لدخول القسم الثانوى ...

« وأما شهادة القسم الثانوى : فتؤهل صاحبها للأقسام العالية ، وتؤهله لوظائف الكتابة فى المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية ...

« وقد ينظر بعد فى علاقة هذا القسم وبعض الأقسام العالية بالجامعة المصرية اذا أراد واحد من حاملى شهادته دخول الجامعة المصرية فى بعض أقسامها .

الاسراع .. وعدم السكوت

« وقد يصح أن يقال : لندع دار العلوم ومدرسة القضاء تمضيان فى طريقهما ، ولنصلح الأزهر على هذا النحو الذى أشير اليه ، وليس هناك ضرر فى وجود مدارس متعددة صالحة ... غير أن ما أشرت اليه بالنسبة لمدرسة القضاء يحملنا على عدم السكوت على نظامها الحاضر ، وما أشرت اليه بالنسبة للغاية العظيمة التى ننشدها من توحيد التعليم وتجانس العلماء ، من الفائدة التى تعود على المعاهد نفسها من ادخال العناصر القوية فى اللغة العربية — وهم علماء دار العلوم — الى الأزهر ، تجعلنا نفضل طريق التوحيد على طريق التعدد ...

« وهناك أمر لا يصح الاغضاء عنه : ذلك أن وجود مدارس دار العلوم والقضاء ، وتجهيزية دار العلوم ، مؤثر على الأزهر والمعاهد من حيث الرغبة فيهما ... لأن نتيجة الأزهر — اذا لم يخرج قضاة ومحامين وعلماء باللغة العربية فى

مدارس الحكومة — تقتصر على اخراج علماء للمعاهد وخطباء للمساجد . وهى نتيجة غير مرغبة ، ومن شأنها أن تجعل التعليم الدينى فى المعاهد مقصورا على بعض الطبقات التى ليس لها فى الحياة آمال سامية . وهذه الطبقات وحدها قد لا تؤمن على هذه الوديمة ، وديعة الخلق الدينى والثقافة الاسلامية . ومن الواجب ألا يغيب عنا — ونحن نتقدم لتهديب التعليم الدينى ، وتقويم أخلاق الأمة — أن نشجع الطبقة الراقية على الدخول فى هذه المعاهد لتقوم بما يطلب منها من العناية بالأخلاق ...

سمعة الأزهر

« وأمر آخر هو أن سلب الامتيازات القديمة التى كانت للأزهر من تخريج القضاة والمحامين ، وعلماء اللغة العربية ، يؤثر أمام رأى العام داخل الدولة المصرية وخارجها فى الأقطار الأخرى ، على سمعة الأزهر والمعاهد . ومن واجب الدولة المصرية أن تحافظ على كرامة هذا المعهد القديم ، وأن ترد اليه مجده ... فانه واسطة اتصال وثيق بين الأمة المصرية وغيرها من الأمم . واذا أحسن استخدام هذه الوسطة عاد بفائدة أديبة ذات قيمة على الشعب المصرى ...

« ومتى تم تنظيم الأزهر ، وأخذ مكانته ، فستعود اليه ثقة الأمم الاسلامية ، وتطلب منه علماء ومرشدين ، خصوصا اذا علمت فيه اللغات التى يحتاج اليها المرشد اذا ذهب الى بلد من البلاد الاسلامية ...

« هذا هو مجمل رأى فى اصلاح المعاهد الدينية والتعليم ، أقدمه خاليا من التفاصيل ، حتى اذا ما صادف قبولا ، واتفق على النقط الأساسية فيه ... أمكن أن نشرع فى تأليف اللجان

الفنية التي تبحث أجزاء المشروع ، وأمكن بعد ذلك أن نرجع الى القوانين لاصلاحها ...

« وقبل أن أختتم كلمتي هذه أشير الى أن من الممكن ايجاد كل الضمانات لحسن سير التعليم ، وذلك بتأليف مجالس الادارة ، ومجلس الأزهر الأعلى على وجه تمثل فيه وزارة المعارف تمثيلا قويا ، وبأن يكون قسم التفتيش على اللغة العربية والعلوم الحديثة مشتملا على رجال يكون لوزارة المعارف رأى في اختيارهم ... بل ويمكن أيضا أن يكون لوزارة المعارف مندوبون لحضور الامتحانات ...

« ولا بد أيضا من أن أصرح بأن الأزهر لا ينبغي أن يعنى باخراج معلمين للمدارس الأولية ، وسننظر في انهاء هذه الدراسة الخاصة بالتعليم الأولى ...

« كما أنه لا بد لي أيضا من الاشارة الى وجوب الغاء قانون التخصص ، فقد دلت التجارب على عقم نتائجه ... ولذلك أسباب كثيرة قد يحسن عدم الافضاء بها . وأبضا فإن النظام الذي أشرت اليه ، وهو نظام تقسيم الدراسة العالية ، مريض من تخريج علماء لهم تفوق في علوم الأقسام التي يدخلونها ...

« وأسأل الله أن يهيئ للأزهر والمعاهد طريق الفلاح والنجاح » .

ضجة ... ثم استقالة

هذه هي مذكرة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى لاصلاح الأزهر . وقد أثارت ضجة كبرى في مختلف الدوائر والأوساط . ولنا الآن بصدد الحكم عليها أو لها ، وانما نحن بصدد تسجيل خطوات الاصلاح . وقد قيل ان دوائر القصر لم ترحب باشراف الحكومة على

الأزهر ، وأن هذا كان سببا من الأسباب التي حملت الشيخ المراغى على الاستقالة ... وفيل ان من الأزهرين من لم يرض عن نظام تقسيم الدراسة العالية الى عدة أقسام ، بحجة أن علوم القرآن يخدم بعضها بعضا ، ويتم بعضها بعضا ، ويشترك بعضها مع بعض في اعداد العالم الذي تتوافر فيه شروط الاجتهاد .

ولكن هذه المذكرة على كل حال ، كانت هي الأساس الذي قام عليه تنظيم الأزهر فيما بعد ... فقد صدر في عهد المرحوم الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى قانون عام ١٩٣٠ ، وبمقتضاه قسم التعليم العالى الى ثلاث كليات : كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية . وأنشئ نظام التخصص في المادة ، والتخصص في المهنة .

النظام الاخير

ولما أعيد الشيخ المراغى الى الأزهر عام ١٩٣٥ ، رأى أن يضع مشروع قانون لاصلاح الأزهر على الأساس الذي وضعه في مذكرته الأولى ، فصدر بذلك مرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ ، وبمقتضاه جعل التعليم في الأزهر على أربع مراحل :

١ — ابتدائي : ومدته أربع سنوات ، ويدرس فيه من مواد العلوم الدينية : الفقه ، والتوحيد ، والسيرة النبوية ، وسيرة كبار الصحابة ، وتجويد القرآن الكريم . ومن مواد العلوم العربية : الانشاء والنحو والصرف والاملاء والمطالعة والمحفوظات . ومن العلوم الأخرى : التاريخ والجغرافيا والرياضة وتدريب الصحة والرسم والخط .

٢ - ثانوى : ومدته خمس سنوات ، ويدرس فيه من العلوم الدينية : الفقه والتفسير والحديث متنا ومصطلحا ، والتوحيد . ومن العلوم العربية : النحو والصرف والبلاغة والبيان والمعانى والبديع والانشاء وأدب اللغة والعروض والقافية والمطالعة والمحفوظات ومن العلوم الأخرى : المنطق وأدب البحث والطبيعة والكيمياء وعلم الحياة ، والتاريخ والجغرافيا .

٣ - الكليات وهى ثلاث :

١ - كلية الشريعة ، وتتبعها الأقسام الآتية :

(أ) شهادة الدراسة العالية ، ومدتها أربع سنوات المواد التى تدرس للحصول عليها هى : التفسير ، الحديث متنا ورجالا ومصطلحا ، أصول الفقه ، الفقه مع حكمة التشريع ومقارنة المذاهب فى المسائل الكلية ، تاريخ التشريع الاسلامى ، المنطق والفلسفة ، لغة أجنبية (الانجليزية أو الفرنسية) وتدرس بصفة اختيارية .

(ب) شهادة العالمية مع اجازة القضاء والمواد التى تدرس للحصول عليها - بعد النجاح فى الشهادة العالية - هى : قوانين المحاكم الشرعية ولوائحها ، الأوقاف والمجالس الحسينية ، « مجلس البلاط » ، التوثيقات الشرعية ، اجراءات وتقرينات قضائية ، دراسة القضايا ذات المبادئ السياسية الشرعية ، القانون الدولى الخاص ، تاريخ القضاء والقضاة فى الاسلام ، النظام الدستورى للدولة ، محاضرات طبية ، محاضرات فلكية ، لغة أجنبية اختيارية ، وهى التى درست فى الكلية .

(ج) شهادة العالمية من درجة أستاذ فى الفقه والأصول والمواد التى يتخصص فيها للحصول عليها - بعد النجاح فى الشهادة العالية - هى :

الأصول والفقه مع حكمة التشريع ، مقارنة المذاهب ، تاريخ التشريع الاسلامى .

٢ - كلية أصول الدين ، وتتبعها الأقسام الآتية :

(أ) شهادة الدراسة العالية فى أصول الدين . والعلوم التى تدرس للحصول عليها هى : التوحيد ، التفسير ، الحديث متنا ومصطلحا ورجالا ، المنطق وأدب البحث ، الأخلاق ، الفلسفة والأصول ، التاريخ الاسلامى ، علم النفس ، لغة أجنبية (الانجليزية أو الفرنسية)

(ب) شهادة العالمية مع الاجازة فى الدعوة والارشاد . والمواد التى تدرس للحصول عليها - بعد النجاح فى الشهادة العالية - هى : القرآن الكريم وعلومه ، الحديث الشريف وعلومه ، الدعوة الى سبيل الله ووسائلها ، الخطابة والمناظرة ، الملل والنحل ، المذاهب الفقهية وتواريخها ، البدع والعادات ، اللغة الأجنبية التى درست فى الكلية ولغة شرقية .

(ج) شهادة العالمية مع درجة أستاذ فى التوحيد والفلسفة والمواد التى تدرس للحصول عليها - بعد النجاح فى الشهادة العالية - هى : التوحيد ، المنطق ، الفلسفة ، الأخلاق

(د) شهادة العالمية مع درجة أستاذ فى علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والمواد التى تدرس للحصول عليها - بعد النجاح فى الشهادة العالية - هى : التفسير ، علوم القرآن الكريم ، الحديث وعلومه .

٣ - كلية اللغة العربية ، وتتبعها الأقسام الآتية :

(أ) شهادة الدراسة العالية فى اللغة العربية . والعلوم التى تدرس للحصول عليها هى : النحو والصرف والوضع ، فقه اللغة ، الأصول ،

مكتب مراقبة البحوث والثقافة الإسلامية

يقوم هذا المكتب الآن بالإشراف على البحوث التي يوفدها الأزهر الى الخارج ، وعلى التعليم في قسم البحوث الإسلامية ، وعلى مجلة الأزهر ، وقسم الوعظ والإرشاد .

وكان الغرض من انشائه التوسع في الاتصال الثقافي بالعالم الإسلامي ، وإرسال الكتب الإسلامية باللغات الأجنبية الى شتى البلاد ، والإطلاع على ما يكتب باللغات الأجنبية ضد الإسلام والرد عليه . وقد تقرر انشاؤه في عام ١٩٤٥ م في عهد المرحوم الشيخ المراغي ، وبدأ يعمل في عهد المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، فأشرف على انشاء مكتبة إسلامية كبيرة في « بكين » عاصمة الصين ، وبعث بعدة كتب الى الحجاز ، ومجموعات من المصاحف الى جهات مختلفة .

وتتولى مراقبة البحوث الاجابة على الأسئلة التي ترد اليها من الخارج في المسائل الدينية الإسلامية ، وإرسال البحوث الأزهرية الى مختلف البلاد الإسلامية — كالحجاز ونجد والعراق والكويت والشام والسودان وجنوب أفريقيا وأسرة والفيلين وأوغندا — كما تتلقى الطلاب الوافدين الى الأزهر من مختلف الأنحاء والبلاد ، فتوجههم وتعينهم ماديا وعلميا .

بعوث إلى أوروبا

وقد بدأ اتصال الأزهر حديثا بأوروبا حين أوفدت أول بعثة الى ألمانيا باسم الشيخ محمد عبده في عهد الشيخ الظواهري . وكانت مكونة من الشيخين : محمد البهي قرقر ، ومحمد ماضي ، ثم لحق بهما الشيخ عبد الحليم النجار ، بعد امتحان مسابقة بين الجامعة ودار العلوم والأزهر كان ترتيبه فيه الأول . وقد عاد هؤلاء دكاترة

الانشاء ، علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) ، الآداب العربية وتاريخها ، العروض والقافية ، التفسير والحديث والمنطق والفلسفة ، المطالعة والأدب المقارن ، علم الاجتماع ، الخط ، الجغرافيا ، التاريخ السياسي ، النقد الأدبي ، لغة أجنبية (الانجليزية) ، الفارسية والعبرية والتركية ، والأخيرة بصفة اختيارية .

(ب) شهادة العالمية مع الاجازة في التدريس .
والمواد التي تدرس للحصول عليها — بعد النجاح في الشهادة العالية — هي : علم النفس العام ، علم النفس التعليمي ، أصول التربية ، الطرق العامة ، التنظيم المدرسي وتاريخ التربية ، التربية العملية ، طرق التدريس الخاصة ، الأخلاق ، تدبير الصحة المدرسي ، الرسم ، تجويد الخط ، التربية البدنية ، ولغة أجنبية اختيارية وهي التي درست في الكلية .

(ج) شهادة العالمية من درجة أستاذ في النحو .
والمواد التي تدرس للحصول عليها — بعد النجاح في الشهادة العالية — هي : النحو والصرف والوضع ، فقه اللغة ، العروض والقافية ، مبادئ اللغتين العبرية والسريانية .

(د) شهادة العالمية من درجة أستاذ في البلاغة .
والمواد التي تدرس للحصول عليها — بعد النجاح في الشهادة العالية — هي : الأدب العربي وتاريخه ، العروض والقافية ، مبادئ اللغتين العبرية والسريانية .

مدة الدراسة

أما مدة الدراسة للحصول على الشهادة العالية فهي أربع سنوات ، وللحصول على شهادة العالمية مع الاجازة سنتان . ومدة الدراسة للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ لا تقل عن ست سنوات ولا تزيد على ثمان

ممتازين . ويعمل الأول الآن مديراً لمكتب البحوث والثقافة ، والثاني مديراً للمعاهد الدينية ، والثالث أستاذاً بجامعة القاهرة .

وفي عهد الشيخ المراغي أرسلت الى باريس بعثة أزهرية عام ١٩٣٦ ، كان منها المشايخ : محمد عبد الله دراز ، محمد الفحام ، عبد الحليم محمود ، عبد الرحمن تاج ، عفيفي عبد الفتاح ، محمد يوسف موسى . كما أرسل الى انجلترا المشايخ : عبد العزيز المراغي ، علي حسن عبد القادر ، محمود حب الله ، سليمان دنيا ، محمد بيسار ، بدوي عبد اللطيف ، وغيرهم ممن لا تعى الذاكره أسماءهم . وقد عاد هؤلاء يحملون شهادات الدكتوراه وغيرها ، وولدت اليهم وظائف مختلفة في الأزهر وخارج الأزهر .

الى الامم الاسلاميه

كما أرسل الأزهر بعوثاً من علمائه المبرزين الى الأمم الاسلاميه المختلفه ، لبث الثقافه الدينيه ، والدعوة الى الاسلام في البلاد الوثنيه ... فأرسل بعثات الى الصين ، والحبشة ، وجنوب أفريقيا والهند ، واليابان .

الى الأزهر

واستقبل الأزهر — ولا يزال يستقبل كل عام — طلبه من البلاد الاسلاميه المختلفه وغيرها ، وقام — ولا يزال يقوم — بكل ما يحتاجون اليه من تكاليف الاقامة . ويتولى تعليمهم أول قدومهم اللغة العربيه أساتذة موكلون بذلك . ثم يمددهم لمراحل التعليم المختلفه . وكانوا يقيمون بأروقه الأزهر وبمسكن أخرى تستأجر لهم على حساب الأزهر . ثم أنشئت لهم مدينة كبيرة يشرف عليها قسم البحوث الاسلاميه . ويبلغ عددهم أكثر من ألف طالب ، من طرابلس وتونس والجزائر

ومراكش والسودان والحبشة والصومال وجنوب أفريقيا ونيجيريا ويوغندا والشام والعراق والحجاز ونجد واليمن وجاوة وسيلان والهند والصين واليابان وروسيا والقوقاز والأناضول والكرديستان وأفغان وتركيا وألبانيا ويوغوسلافيا وبولونيا وبلغاريا وغيرها .

قسم الوعظ والارشاد

بدأ هذا القسم بعدد قليل من العلماء ، عينوا في وزارة الداخلية عام ١٩٢٨ ، بناء على اقتراح فضيلة المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر . فتد أقنع صديقه المغفور له محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء حينذاك ، بأن في تعيينهم خدمة للأمن عن طريق الارشاد الديني . فنفذ هذه الرغبة ، ثم ضم هؤلاء الوعاظ بمرتباتهم الى الأزهر ، وصار للأزهر وحده الاشراف عليهم وتوجيههم بعد شهر من تعيينهم في وزارة الداخلية . ثم تزايد عددهم حتى صار قسم الوعظ قسماً كبيراً من أقسام ادارات الأزهر ، وصار يصدر مجلة خاصة يتولى تحريرها الوعاظ وغيرهم ، وهي مجلة نور الاسلام . وقد خصصت دروس للنساء زاد الاقبال عليها .

ورأت وزارة الصحة ، في أكثر من مناسبة ، الاستنجاذ بهم في مكافحة الأوبئة الواقدة والأمراض المتوطنة ، فيسرت لهم أن ينشوا مع الأطباء في جميع أنحاء البلاد ، ليرشدوا الناس الى ضرورة الأخذ بأسباب الوقاية والاقبال على العلاج . وكان لذلك أثره الذي سجلته وزارة الصحة مقروناً بالشكر والتقدير .

وتدل التقارير التي تتلقاها وزارة الداخلية كل عام عن حالة الأمن على أن الوعظ أثر ثمرات طيبة في هذا السبيل . وكثيراً ما استعان رجال

ولما تولى المرحوم فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم مشيخة الأزهر ، أسند إدارة هذه المجلة الى الأستاذ أحمد حسن الزيات . ثم تولى ادارتها بعده الأستاذ الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء ، ثم الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى عضو الجماعة وشيخ الحنابلة . ويتولى رئاسة تحريرها الآن الأستاذ أحمد حسن الزيات ، خلفا للأستاذ محب الدين الخطيب .

لجنة الفتوى بالأزهر

صدر قرار بتكوين هذه اللجنة في ١٣ من جمادى الأولى عام ١٣٥٤ للهجرة ، (١١ من أغسطس عام ١٩٣٥ م) . وكان الغرض منها سد حاجة كان يشعر بها المسلمون في الأقطار الشقيقة ، فقد كانت ترد على الأزهر استفتاءات كثيرة في مسائل دينية مختلفة ، وكان أصحاب هذه الاستفتاءات يطلبون الافتاء على مذهب معين ، أو من غير تقييد بمذهب معين ... لهذه الحاجة ، ولأهمية المسائل التي يطلب من الأزهر اصدار الأحكام فيها ، رأى فضيلة المفتور له الشيخ محمد مصطفى المراغى تكوين لجنة من العلماء الثقات الأئبات لتضطلع بهذا العبء الجسيم ، فأصدر قرارا بتكوين هذه اللجنة ، على أن تتكون من رئيس واحد عشر عضوا : منهم ثلاثة من علماء الأحناف ، وثلاثة من المالكية ، وثلاثة من الشافعية ، واثنان من الحنابلة .

وما زالت هذه اللجنة تقوم بمهمتها فتعقد الاجتماعات لبحث ما يرد اليها من المسائل ، وترد على ما يوجه اليها من استفتاءات ، ببحوث وافية مستفيضة ، ثم تجيب عليها ، وتبين حكم الشرع فيها ، اما وفق أحكام مذهب معين اجابة لطلب المستفتى ، واما بغير تقييد بمذهب معين بحسب

الأمن — ولا يزالون يستعينون — بالوعاظ في الصلح بين العائلات ، واطفاء نار الفتن ، وحقن الدماء ... هذا الى عملهم الأساسى فى تبصير الناس بشئون دينهم ، ووعظهم وارشادهم الى ما فيه خيرهم ، ومحاربة البدع والتفائيد الفاسدة الضارة .

وقد امتد نشاط الوعاظ الى الجهات النائية والأماكن البعيدة ، بل الى الشعوب العربية الشقيقة : فذهب بعضهم الى أريتريا ، وبعضهم الى لبنان ، وبعضهم الى السودان ... وهم فى حركة دائبة ونشاط متصل ولهم فى المواسم والمناسبات والحفلات صوت نافذ وتوجيه حميد . وقد كان عددهم فى عام ١٩٤٨ مائتين وثلاثين ، وعددهم الآن يبلغ نحو ٢٥٠ ، ولهم صندوق خاص يدفعون منه اعانات لأسر المتوفين منهم ، ومساعدات لأبنائهم على مواصلة تعليمهم ... بل يدفعون منه للمجلة فى بعض الأحيان .

مجلة الأزهر

وللأزهر مجلة تحمل اسمه ورسائله ، وتصل المسلمين به فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، فينقلون منها ، ويترجمون عنها ، ويجدون فيها البحوث الواسعة والمقالات الممتعة وقد أنشئت فى أول المحرم من عام ١٣٤٩ للهجرة (١٩٣٠ م) ، وكان اسمها فى بادىء الأمر « نور الاسلام » ، ثم رأى فضيلة الأستاذ المراغى — بعد أن أعيد الى مشيخة الأزهر عام ١٩٣٥ — أن يغير اسمها الى « مجلة الأزهر » . وكان ممن رأس تحريرها فى بادىء أمرها فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين الذى صارت اليه مشيخة الأزهر فيما بعد ، وتولى ادارتها ورئاسة تحريرها الكتائب العالم الفيلسوف الاسلامى المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى .

ما تقضى به القواعد العامة وفقا للكتاب والسنة
أو إجماع المسلمين أو القياس .

وقد قدر ما أصدرته اللجنة من الفتاوى كل عام
بنحو ٣٥٠ فتوى . وتعاقب على رياستها المغفور
لهم المشايخ : حسين والى ، محمد عبد اللطيف
الفحام ، محمد مصطفى المراغى ، محمد مأمون
الشناوى ، عبد الرحمن حسن ، عبد المجيد سليم ،
إبراهيم حمروش ، محمد العنانى ، محمد حسين
مخلوف .

وعمل أعضاء بهذه اللجنة أصحاب الفضيلة
المشايخ : محمود شلتوت ، عبد العزيز المراغى ،
محمد عبد اللطيف السبكى ، عبد الرحمن تاج ،
عبد الجليل عيسى وغيرهم ، وكلهم علماء متمكنون
راسخون فى العلم .

مكتبات الأزهر

وبكليات الأزهر ومعاهده مكتبات كبيرة .
ومكتبة الأزهر تعد الثانية بعد دار الكتب فى
الشرق ، وبها من المخطوطات عدد كبير . ويذكر
الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى أنه بلغ فى عام
١٩٤٣ أربعة وعشرين ألف مجلد .

ويرجع التفكير فى إنشاء هذه المكتبة الأزهرية
العامة الى الشيخ محمد عبده . فقد رأى ضرورة
جمع الكتب المتفرقة فى مكتبات الأروقة لحفظ
ما بقى من التراث العلمى لعلماء الأزهر ، وبخاصة
بعد أن ظهر أن كثيرا مما كانت تضمه الأروقة من
نفائس الكتب تسرب الى أيدي العلماء الأوربيين
من طريق سماسة الكتب ، كما ضاعت كتب
كثيرة ، وأتلفت الحشرات قدرا كبيرا ، وتقطعت
جلود كتب كثيرة ، وبليت أوراقها ، وتراكم عليها
التراب . وبعض الكتب كان فى عهدة أشخاص
لا أمانة لهم ، فباعوها بثمن بخس لمتصيديها
والمتربصين لها ، وتصرفوا فيها تصرف الملاك .

ويقول الشيخ أبو الوفا المراغى أمين هذه
المكتبة ، فى تقرير له ، أنه « حوالى سنة ١٢٧٠ هـ
(١٨٥٣ م) أمر ديوان عموم الأوقاف بجرد كتب
مكتبات المساجد والتكايا وأروقة الأزهر
وحاراته . وقيدت جميعها فى سجلين جامعين :
خصص أولهما لمكتبات الجامع الأزهر ، وثانيهما
لمكتبات المساجد والتكايا . وقد بلغ مجموع
المجلدات الموجودة فى ذلك الوقت . فى مكتبات
أروقة الأزهر وحاراته ، ١٨٥٦٤ مجلدا . فإذا
رجعنا الآن الى هذا السجل التاريخى فلا نجد
من أثنى الكتب وأنفسها الا أسماءها ، وكأن
هذين السجلين أنشئا ليكونا فى انواق مرشدا
لأيدي الاغتيال التى عمدت الى أنفس ما فى
المكتبات من المؤلفات الأصيلة القيمة فاتتهتها
اتتهابا . وأغرب من هذا أن نفس السجلين تسربا
أيضا الى أيد أجنبية خارج الأزهر ، ولم يعودا
اليه الا بالشراء سنة ١٩١١ ، ودفع لهما ثمن قدره
١٥٠ قرشا ، وأعيد قيدهما بالمكتبة » .

ويطول بنا الحديث اذا شرحنا كيف جمعت
الكتب ، وكيف استكملت الكتب التى وجدت
ناقصة ... فقد فصل ذلك كله الشيخ عبد الكريم
سلمان فى كتابه الذى أشرنا اليه ، وقال فيما
قال : « وانى لأعرف كتب كثيرة ، مما نجده الآن
كاملا ، كان الكتاب الواحد منها بعضه فى خزانة
فلان ، وبعضه الآخر فى خزانة فلان ، وباقية فى
خزانة فلان . ولم تجمع أجزاءه بعضها على بعض
الا بطريق المصادفة الحسنة ... الخ » .

ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن هذه الكتب بعد
تكوينها ، تلقت مكتبات كثيرة وقفها الخيرون على
العلماء وطلبة الأزهر ، منها :

غرباء تخرجوا في كلية الشريعة

تخرج في كليات الأزهر كثيرون من طلاب العلم الوافدين اليه من أنحاء العالم الاسلامي في الشرق والغرب ، وعادوا الى بلادهم علماء ... ففى كلية الشريعة تخرج من أبناء فلسطين كثيرون ، نذكر منهم المشايخ : عبد الرحمن محمد مراد ، محمد محمود الحاج قاسم ، محمد حرب خيس جوده ، كمال سعيد حمدان الأغا ، سليم أحمد محمد المصرى ، جمعة موسى عبد القادر ، حسن عبد اللطيف أحمد ، توفيق مخمود قاسم جرار ، رجب حامد بيوض التميمي ، محمد صالح يونس المحتسب ، توفيق محمود محمد عبد الفتاح عسليه ، واصف عبد الرحمن عبده ، واصف سيف الدين قمر الدين ، موسى حسن أبو السعود ، محمد قاسم عبد الله حسن أبو الحاج ، ناجى الحاج حسن عبد الله ، محمد الشيخ حسن أبو سردانه ، محمد بسام حنون ، نمر مصباح محمد النموره ، عدلى عبد القادر الجوهري ، محمد بشير المراد ، عبد النديم زلوم .

ومن أبناء اقليم سوريا المشايخ : محمد سياد المراد ، أحمد رشيد البيك ، محمد محمود الحامد ، محمد عوض المقداد ، محمد خير عبد القادر الجلاد ، عبد الستار السيد الحسيني ، فخر الدين محمد أسعد الصاحب ، محمد صلاح الدين للأزهر ، وآخرون كثيرون .

ومن أبناء شرق الأردن : محمد صالح مناع الرغبى ، يس ابراهيم القطان ، أنور اسماعيل البشماق ، غالب أيوب محمد هيكل ، محمد محمود محيلان رشدى .

ومن أبناء لبنان المشايخ : عبد الغنى محمد البارودى ، محمد أحمد عمر خالد ، مصطفى محمود الرافعى .

١ - مكتبة سليمان أباطة (باشا) ، وقد أهداها ورتته الى الأزهر عام ١٨٩٨ بناء على مشورة الشيخ محمد عبده ، وعدد مجلداتها ١٤٨٤ مجلدا .

٢ - مكتبة حليم (باشا) . وقد خص الأزهر منها ٢٨٥٧ مجلدا . وكثير من كتبها بخطوط موشاة بالذهب .

٣ - مكتبة الشيخ عبد القادر الرافعى ، وعدد مجلداتها ١٤٥٧ مجلدا .

٤ - مكتبة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية ، وعدد مجلداتها ٣٣٦٥ مجلدا .

٥ - مكتبة الشيخ الانبأبى شيخ الأزهر ، وعدد مجلداتها ١٤٥٢ مجلدا .

٦ - مكتبة نسيم أغا ، وعدد مجلداتها ألف مجلد .

٧ - مكتبة الشيخ العرومى شيخ الأزهر ، وعدد مجلداتها ٨١٨ مجلدا .

ثم مكتبات الشيخ ابراهيم السقا ، وابراهيم بك حفظى ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ الجوهري ، والشيخ محمد عبد اللطيف الفحام ، ورضوان باشا ، ومختار باشا ، وثابت باشا ، ورشيد باشا ، وبعض مكتبة مدرسة القضاء ، وبعض مكتبة زكى باشا ، ومكتبة رواق الصعايدة .

ويذكر الشيخ أبو العيون أن عدد مجلدات مكتبة الأزهر يبلغ الآن أكثر من ثمانين ألف مجلد . ولكن هذه المكتبة الضخمة لم ينشأ حتى الآن مكان لائق بها ، وانما هى تحتل مبنيين كبيرين من أبنية الأزهر : يعرف أحدهما بالمدرسة الأقبغاوية ، والثانى بالمدرسة الطيرسية .

ومن أبناء تركيا المشايخ : محمد فتحي مصطفى
سليم ، محمد عبد العزيز عطا ناجي ، حسن حسن
خرسا ... وآخرون .

ومن أبناء المغرب المشايخ : الهادي عبد الله
الرديمي ، الطاهر صالح مبيطة ، طاهر محمد
السنوسي البوصيري ، عبد العزيز النجار ،
محمد حموز ربوح ، السنوسي محمد النجار ،
أحمد محمد البلقيني التلمساني ، محمد علال
القنوتي ، ابراهيم أدهم الرفاعي ، محمد الهادي
أنديشة ، محمد الحاج سالم المسلاتي ، حسن
أحمد المقداسي ، محمد التسماني .

ومن أبناء السودان المشايخ : الأمين داود
محمد ، عثمان أحمد عبد الرازق ، طه محمد
المبارك ، مختار فضل بيرم ، ماهر خالد أبو بكر ...
وغيرهم .

ومن أندونيسيا المشايخ : أبو بكر أحمد
شهاب ، حسب الله جعفر عبد الله ، شمس الدين
عمر علي ، محمد طه يحيى ، الحاج عبد الغني
سندانج ... وغيرهم .

ومن الأفغان الشيخ : محمد هاشم المجدودي .
ومن اليمن : محمد علي محمد الجعفري العلوي .

ومن المملكة السعودية : محمد موسى علي ،
ابراهيم يوسف خان . ومن العراق : محمد محمود
الصواف . ومن ألبانيا : وهبي سليمان خليل
عادجي .

غرباء تخرجوا في كلية أصول الدين

أما كلية أصول الدين فقد تخرج فيها من أبناء
الهند المشايخ : أبو الحسنات محمد محيي الدين ،
محمد عمران خالد النادى ، سعد الدين
الأنصاري .

ومن أبناء أندونيسيا : اسماعيل محمد بندا ،

عبد الجليل حسن محمد ، عبد الرحمن اسماعيل
ناصر ، اسماعيل عمر عبد العزيز ، محمد طاهر
عبد المعين .

ومن أبناء اقليم سوريا : عبد الرحمن توفيق
عبد الرحمن الباني ، أنور محمد سليم عبد القادر .

ومن أبناء يوغوسلافيا : حسن سلام . ومن
الصين : أبو بكر هاغان حبن . ومن تطوان
بمراكش : محمد حداد محمد أمزيان .

غرباء تخرجوا في كلية اللغة

وأما كلية اللغة فقد تخرج فيها من السودان
المشايخ : سليمان علي ابراهيم ، عوض عقارب ،
امام عثمان محمد ، أحمد مصطفى الطاهر ، أحمد
محجوب محمد ، أحمد الخير أحمد ضرار ، يس
ابراهيم أحمد ، عبد الله محمد الشيخ ، محمد
الأمين محمد علي ، أحمد جمال الدين هلالى ،
عبد الرحمن ابراهيم الصائم ، عثمان سليمان
عثمان .

ومن المملكة السعودية : سيد طلعت علي
الزواوى ، محمد محمد سعيد الدفتردار .

ومن اليمن المشايخ : محمد صالح المسرى ،
يحيى أحمد زوباره ، عبد الرحيم عبد الرحمن ،
محمد علي الجفري العلوى .

ومن المغرب المشايخ : صالح أبو سدره ، محمد
الأمين محمد أحمد ، محمد المهدي المعطى صابر .
ومن طرابلس الغرب المشايخ : أبو بكر محمد
أبو بكر ، محمد علي العريفاتي ، مختار ساس
المغربى ، السنوسي أحمد التجلد . ومن لبنان :
الشيخ أديب توفيق سون . ومن الملايو :
اسماعيل عمر عبد العزيز . ومن شرق الأردن :
محمد جمال الدين . ومن فلسطين الشيخ
عبد الله علي البطران ، والشيخ عبد الرؤوف

عبد الله دراز ، والدكتور محمد يوسف موسى ،
والدكتور عبد الحليم النجار للتدريس فيها . كما
انتدبت المشايخ : ياسين محمد سلام مذكور ،
وزكريا البرى ، ومحمد المدنى وغيرهم لتدريس
الشريعة الاسلامية . وقد عين أكثر هؤلاء أساتذة
في هذه الجامعات ، ومنحوا امتيازاتها .

أروقة الأزهر

أصل معنى كلمة الرواق في اللغة : مقدم
البيت ، أو السترة في مقدمه ، أو الشقة التي
تكون دون العليا . ولكنها هنا تطلق على المسكن
الذى تقيم فيه طائفة من أبناء الأزهر . وقد
عرفنا أن أول مسكن بنى لطلاب الأزهر هو
الذى بناه يعقوب ابن كلس ... وقد تتابع البناء
المساكن الملاصقة بالأزهر لطلاب العلم فيه ، حتى
تكون منها اطار يحيط به من جوانبه المختلفة .
وتتصل هذه الأروقة بالمسجد اتصالا مباشرا .
ولها أبواب تفضى اليه من الداخل ، وأبواب من
الخارج . وبين هذه الأروقة ، وفي جوانب
المسجد ، ما يطلق عليه اسم « الحارات » ، وهى
أماكن كانت توضع فيها الخزائن ، ويقيم بها
الطلاب أيضا

ولكل طائفة من الطوائف التى تقيم بالأروقة
والحارات دفتر سجل فيه أسماءهم ، ويكون
تحت يد تقييهم ، وشيخ يحكم فيهم ويدافع عنهم ،
ويخاطب في شأنهم من قبل شيخ العموم (شيخ
الأزهر) أو مشايخ المذاهب .

ولكل طائفة أوقاف من العقار وغيره ، بصرف
عليهم من ريعها بشروط يقررها الواقف . عدا
الأوقاف العامة التى يشترك في ريعها أهل الأزهر
كافة . ولا يزال هذا النظام سائدا حتى الآن .
ويبلغ عدد الأروقة تسعة وعشرين رواقا ،

الليدى ومن البابا : الشيخ حسن خوجا ومن
الكويت : عبد العزيز حسين عبد الله .

ومن اقليم سوريا المشايخ : نصوح حسنى
السباعى ، عبد الرحمن رافت الباشا ، محمد
كامل الحمامى ، محمد أمين المصرى الميرى .

ومن أندونيسيا المشايخ أبو بكر أحمد
شهاب ، حامد محمد حامد العلوى ، مختار لميتنغ
ليلوماليم

ومن يوغوسلافيا توفيق اسلام يحيى ومن
القوقاز : برهان الدين محمد الداغستاني .

ثمرات الجامعة الحديثة

هؤلاء بعض ثمرات الجامعة الأزهرية
الحديثة . وقد نقلنا أسماءهم من كشف محرر
بيان الذين تخرجوا في هذه الكليات الثلاث منذ
انشائها حتى عام ١٩٤٨ . هذا عدا الذين يتخرجون
في القسم العام — وقد صار فيما بعد معهد
البعوث — فقد تخرج فيه من هؤلاء ٤٧٧ عالما في
الفترة بين عامى ١٣٣٤ — ١٣٦٨ للهجرة ، كما ذكر
فضيلة الشيخ أبى العيون رحمه الله ، وقد كان
مكرتيرا عاما للأزهر .

وقد انفسح مجال العمل أمام حريجي هذه
الكليات من المصريين وغيرهم ... فأصبح
المتخرجون في كلية اللغة العربية يعمسون في
مدارس الدولة ، وكذلك المتخرجون في كليتى
الشريعة وأصول الدين . وقد زاد عددهم في
وزارة التربية والتعليم حتى أصبح لهم في كل
مدرسة مكان .

في الجامعات

وقد استعانت جامعات القاهرة والاسكندرية
وعين شمس — ولا تزال تستعين — بأبناء
الأزهر ... فانتدبت المرحوم الدكتور محمد

أشهرها رواق الصعايدة ، بل هو أكثرها أهلا وأوقافا ، وأوسعها دفقرا .

وهذا الرواق عن يمين الداخل من باب الصعايدة ، المواجه لشارع الباطنية ، يصعد اليه الداخل نحن عشرين سلما فيجد ايوانا متسعا بوسطه عمود من الرخام ، وبهذا الايوان ايوان صغير كانت في داخله خزانة كتب يستعير منها الطلاب والمدرسون ، ثم ضمت هذه الكتب الى مكتبة الأزهر مع غيرها من الكتب التي كانت في الأروقة الأخرى .

وقد أنشأ هذا الرواق الأمير عبد الرحمن كتحدا مع ما أنشأ من العمارات الأخرى في الأزهر ، ووقف عليه عدة أوقاف . ثم اقتدى به أهل الخير ، فوقفوا عليه عدة أوقاف كذلك ، ورتبوا له جريات يومية ومرتببات سنوية .

ثم هناك الى ذلك : رواق الحرمين ، رواق الشوام ، رواق الدكارة السورية ، رواق المغاربة ، رواق السنارية ، رواق الأتراك ، رواق الجاوة ، رواق الجبرتية ، رواق الهنود ، رواق البغدادية ، رواق البحيرة ، رواق الفيومية ، رواق الحنفية ، رواق الفشنية ، رواق الشراقة ... وهكذا الى تسعة وعشرين رواقا كما قدمنا .

ومن الأروقة الحديثة : الرواق العباسي ، وكانت تعقد فيه دروس الشيخ محمد عمده في التفسير والبلاغة ، ويحضرها كبار المثقفين في مصر ، فكان لها شأنها في توجيه الرأي العام وإثارة الأذهان .

معاهد الأزهر

قبل أن يدخل الأزهر في طور التنظيم والإصلاح ، كانت بعض المساجد ، في المدن المختلفة ، قد تحولت الى معاهد تدرس فيها العلوم الشرعية والعربية ،

ويتولى التدريس فيها علماء من الأزهر أو من المتخرجين فيها . ومن هذه المساجد : الجامع الأنور بالاسكندرية ، والجامع الدسوقي بدسوق ، والجامع الأحمدى بطنطا ... هذا الى مساجد أخرى في دمياط وأسيوط وقنا .

وفي ٢٩ من المحرم عام ١٣٢١ للهجرة (٢٧ ابريل عام ١٩٠٣ م) ، صدر قرار من الخديو بالحق التدريس والامتحان في الاسكندرية بالجامع الأزهر . وسافر شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الى الاسكندرية ، وشكلا لجنة برئاسة شيخ الأزهر من أكابر علماء الاسكندرية ، دعى اليها الشيخ أحمد باشا ليعلم هل يقبل أن يكون الجامع الأنور ، الموقوف للتدريس من جده ، خاضعا للتنظيمات الجديدة في الاسكندرية أم لا ؟ فتردد في الأمر أولا ، ثم عاد وأمضى على المحضر بأنه قابل لهذه التنظيمات .

ثم اشتغلت اللجنة بعد ذلك في حصر العلماء الموجودين ، ورتبت درجاتهم على أساس شهادة لجنة من العلماء الاسكندريين ... وبذلك صار المعهد تابعا لإدارة الأزهر ، خاضعا لإشرافها .

كما ضم اليه المعهدان الأحمدى والدسوقي ، ومعهدا دمياط وأسيوط ، وأنشئت بعد ذلك معاهد كثيرة أخرى في شبين الكوم ومنوف ودمنهوور والمنصورة والزقازيق وسمنود والمحلة وأبى كبير وبنها وقنا وسوهاج والمنيا وبني سويف . وضمت اليه معاهد حرة : كمعهد المنشاوى وقوص وبني عدى وأولاد طوق شرق وبلصفورة .

وهذه المعاهد هي التي تغذى كليات الأزهر بالطلاب بعد نجاحهم في امتحان الشهادة الثانوية ، وتتغذى بدورها من مكاتب تحفيظ القرآن في القرى .

ومما تجدر ملاحظته أن الحركة التعليمية في

رابعا - أن تكون درجة الامتحان في المطالعة والاملاء والخط والحساب ٢٠ للنهاية الكبرى و١٠ للنهاية الصغرى .

خامسا - أن يكون امتحان الحساب دالا على المام الطالب الماما تاما بقواعده الأربع الأصلية ، مع القدرة على حل المسائل والتمرينات فيها .

سادسا - أن يقصر امتحان الاملاء والحساب على الامتحان التحريري ، وأن يقصر امتحان العيان على حفظ القرآن الكريم .

المكفوفون في الأزهر

ويكاد الأزهر يمتاز عن غيره من المعاهد العلمية والجامعات بأنه أول جامعة عنيت بالمكفوفين ، وفسحت لهم المجال لابراز مواهبهم وملكاتهم . فهم في المنهج التعليمي كالمبصرين فيما عدا المواد التي لا بد فيها من الابصار .

وقد تخرج فيه كثيرون من المكفوفين طارت شهرتهم في العالم الاسلامى والعربى ، ووصل بعضهم الى مشيخة الأزهر ، كالشيخ القويسنى ، ومنهم من كان صاحب مدرسة في الأدب كالشيخ حسين المرصفى . وقد عهد اليه بالتدريس في دار العلوم عند بدء انشائها . ومنهم من كان شاعرا له في الأوساط الأدبية منزلة مرموقة كالشاعر العالم الراوية الشيخ أحمد الزين . ومنهم من كان حكيما فيلسوفا كالشيخ يوسف الدجوى . ومنهم من أسقط في الشهادة العالمية ، ثم لم تقف به همته حتى أحلته منصب الوزارة ، وعرف بلقب عميد الأدب العربى ، وهو الدكتور طه حسين . ومنهم من أجاد عدة لغات ، ونبغ في الخطابة والشعر كالشيخ صاوى شعلان الواعظ العام بالسجون .

وقد عرف غير هؤلاء كثيرون ، كالمشايع : على الصالحى ، ومحمد ماضى الرخاوى ، وابراهيم

الأزهر وفى معاهده ، وفى المكاتب التى تمدده هذه المعاهد بحاجتها من الطلاب ، لم تضعف ... لا فى عهد « دنلوب » حين كان التعليم يهدف الى هدم كل مقومات القومية العربية والاسلامية ، ولا فى عهد غيره من الوزراء الذين اتجهوا بسياسة التعليم فى مصر اتجاها يجافى قوميتها العربية وروحها الاسلامى ... بل انه حتى بعد تقرير مجانية التعليم ، وامداد طلاب المدارس بالأغذية والكتب ، واغلاق المكاتب التى كانت تقوم بتحفيظ القرآن ، لا يزال الأزهر يتلقى كل عام فيضا من أبناء الشعب .

وهكذا كانت المكاتب التى ينشئها القرويون فى القرى لتحفيظ القرآن ، وكانت المعاهد الدينية التى كثر انشاؤها بين حرة ونظامية ، تحديا واضحا من الشعب المصرى العربى الاسلامى للتوجيه الاستعمارى . وكان الأزهر ومعاهده ورواقده قلاعا عربية اسلامية تدرس فيها العلوم العربية ، ويصان فيها التراث الاسلامى . وكان أبنائه وقود كل حركة ثورية ضد الاستعمار وأعوانه ... وبعبارة أدق وأحق كان الأزهر هو القومية العربية بكل ما يعرف للقومية من مقومات .

شروط الالتحاق بالأزهر

أما شروط الالتحاق بالأزهر فهى - كما قرر المجلس الأعلى للأزهر فى سبتمبر عام ١٩٣٦ م - ما يلى :

أولا - ألا تقل سن الطالب عن اثنتى عشرة سنة ، وألا تزيد على ست عشرة سنة ، وأن يكون خاليا من الأمراض المعدية .

ثانيا - ألا تقل قوة بصره فى مجموع العينين معا عن الثلاثين ... وهذا فى غير العيان من الطلبة .

ثالثا - أن يكون حافظا للقرآن الكريم كله (ويعنى الأغراب من شرط حفظ القرآن الكريم) .

الحديدى ، وسالم البولاقى ، وعبد المطلب برعى .
ولا يتسع المقام لاستيعاب العلماء الأعلام من هؤلاء
المكفوفين الذين تخرجوا فى الأزهر .

وقد ألف الأستاذ أحمد الشرباصى كتابا ضخما
سماه « فى عالم المكفوفين » فليرجع اليه من يريد
الاستزادة وقد نوه ثوقى بعقوبة هؤلاء فقال
بخطاب فؤاد بمناسبة اصلاح الأزهر عام ١٩٢٤ :

والله ما تدرى لعل كفيفهم
يوما يكون أبا العلاء المبررا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد
غبنا ... وجل المشتري والمشتري

مبانى الأزهر

لم يكن الأزهر القديم هو هذا الصرح الذى
يواجهك بمآذنه العالية وقبابه الضخمة ، وتحيط به
سلسلة من المدارس (المساجد) والأبنية التى أعدت
لمسكنى الطلاب فيه ، وعرفت باسم الأروقة ... وإنما
كان مسجدا ، كأي مسجد ، بنى ليكون المسجد
الجامع فى العاصمة ثم امتدت اليه يد التجديد
والتعمير والانشاء ، فرمت ما تصدع منه ،
وأدخلت فيه ، وأضافت اليه ، وألحقت به ... حتى
صار هذا الصرح الكبير ، وهذه المدينة الجامعية
التي كانت تضم آلاف مؤلفة من الطلاب المختلفى
الألوان والأجناس .

وقد ذكرنا بعض ما أدخل فيه من عمارات .
والآن نعال معى فى زيارة لهذا المسجد لتعرف
بعض جوانبه ولواحيه ، وبعض ما أدخل المصلحون
فيه .

ان أول ما ستقبلنا عندما نصل الى نهاية شارع
الأزهر هو باب الأزهر الكبير ، وهو تكون من
بابين واسمين يطلان على الميدان فاذا دخلنا منهما
أو من أحدهما ، وجدنا أنفسنا فى دهليز يفصل بين

جناحين من الأبنية عن يمين وشمال ، ووجدنا أمامنا
بابا آخر كبيرا يصلنا بصحن المسجد ... وهذا الباب
هو أول حدود المسجد التاريخى . أما الأبنية التى
تقوم على جانبي هذا الدهليز ، فقد أنشئت فى
القرن الثامن للهجرة وما بعده ... فالجناح الأيمن
— ما عدا منارتيه — أنشأه الأمير طيبرس فى عام
٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) والجناح الأيسر بمنارته أقامه
الأمير أقبا فى عام ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) . والباب
الداخلى بما فوقه من منارة عالية جميلة الى يمين
الداخل ، من عمل السلطان قاتباى عام ٨٧٣
لهجرة (١٤٦٨ م) أما المنارة التى تلبها فهى من
صنع السلطان الفورى عام ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) ،
وهى ذات برجين نوأمين .

مدرستان

ان هذين الجناحين اللذين تراهما عن يمين
وشمال كانا مدرستين وللمدرسة فى تلك العصور
مفهوم غير مفهومها الآن ، اذ كانت الثقافة العقلية
متصلة بالتهدى الروحى ... ولهذا نجد فى هاتين
المدرستين محرابين أنيقين من الرخام والذهب ،
وهما الآن مكان المكتبة الأزهرية التى نحدثنا
عنها

هذه هى الزيادات التى نجدها أول ما ندخل
الأزهر ، فإد تركناها وعبرنا السطح الى المقصورة
وجدنا محرابا قائما فى وسط المصلى غير متصل
بجدار ، كما هو الشأن فى كل محراب ، وخلفه
أرض ترتفع درجتين عن الأرض الممتدة بين هذا
المحراب ، وتقوم فيها صفوف طويلة من الأعمدة
الرخامية توازى أعمدة الأرض المنخفضة ، ثم نجد
محرابا آخر مستندا كالعادة الى جدار ، وإلى
جواره منبر

ان هذا الايوان المرتفع بما فوقه ، والجدار

المتصل ببابه ، والمنارتين اللتين فوقهما ، كلها أدخلها
الأمير عبد الرحمن كتحدا عام ١١٦٧ للهجرة
(١٧٥٣ م) .

فاذا اقتربنا من جدار هذه المقصورة الشمالى
الشرقى وجدنا بابا صغيرا يوصلنا الى مبنى جميل
أقامه الأمير جوهر قانقباى المتوفى عام ٨٤٤ للهجرة
(١٤٤٠ م) ليكون مدرسة ، ولكن فيه كذلك
عناصر المسجد الكبير ، وفيه قبة بانيه وقبة تقوم
فوق هذا القبر .

وقد جدد بناء أحد البابين القائمين فى جدار
القبلة عام ١٢٨٢ للهجرة (١٨٦٥ م) فى عهد
اسماعيل . وفى عام ١٣٠٦ للهجرة (١٨٨٨ م) ،
جدد بناء هذا الايوان فى عهد توفيق .

ابنية حديثة حول المسجد

وفى خارج نطاق المسجد مجموعة من الأبنية
الحديثة تشرف عليه من الشمال ومن الشمال
الشرقى . فقد أنشئ فى عامى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ أربع
عمارات كبيرة لسكنى الطلاب . ثم بنى بعد ذلك
مدرج فخم يسمى ألفى مستمع ، ليكون قاعة
للمحاضرات ، وكلية للشريعة الاسلامية ، وكلية
للفقه العربية . أما كلية أصول الدين والمكتبة
والمعهدان الابتدائى والثانوى والمستشفى والحديقة
فلا تزال خطوطا فى الورق الذى وضع فيه التصميم
الأساسى لمباني الجامعة الأزهرية .

هذه هى ملامح الأزهر قديما وحديثا . ولو
تبعنا التاريخ بالتفصيل لتكميل الصورة وتلوينها ،
لكان علينا أن نؤرخ مصر بكل مظاهر النشاط
فيها منذ أنشئ الأزهر حتى الآن ... فقد كان ،

وكان أبنائه ولا يزالون ، بمثابة الجذور الضاربة
فى تربة مصر ، الممتدة فى أطباقها وأعماقها ... حتى
فى العهود التى وصف فيها بالجمود والتخلف .

وبحسب القارىء أن يقرأ أسماء الزعماء والعلماء
والكتاب الذين تدين لهم الأمة العربية بنهضتها ،
فسيجد أنهم يدينون ، مع انفصالهم عن الأزهر ،
بما للأزهر عليهم من فضل ... فليس عرابى ، وسعد
زغلول ، والمنفلوطى ، والبشرى ، وطه حسين ،
وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، وأمين
الخولى ، وأحمد حسن الزيات ... الا أزهريين
تلقوا تربيتهم فى الأزهر على يد الأزهريين .

وما كانت الجامعة ودار العلوم ومدرسة القضاء
فى بدء نشأتها الا فصولا تابعة للأزهر . فقد كان
يوكل الى المبرزين من علمائه التدريس فيها ...
بل ما كانت النهضة فى احياء الكتب العربية الا على
يد علماء الأزهر . وقد عبر شوقى عن هذه الحقيقة
فقال :

ما ضرنى أن ليس أفقك مطلقى

وعلى كواكبه تعلمت السرى

هذا الى أثر الأزهر فى الصحافة منذ كانت لمصر
صحافة حتى الآن ، وفى الاذاعة ، وفى الجمعيات
الدينية المنبثة فى أنحاء البلاد ، وفى حقول التعليم
بوزارة التربية والتعليم . والامل فى مصر وفى
الشعوب العربية والاسلامية أن توليه من عنايتها
ما يمكنه من متابعة جهوده وجهاده ... فان رسالته
هى رسالة العروبة والاسلام ، وستبقى رسالته
ما بقيت العروبة وبقي الاسلام .

ميد الرحيم فوده

جامع آق سنقر

وصف المسجد

وضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة :
أربعة ايوانات يتوسطها صحن مكشوف ، أكبرها
ايوان القبلة المشتمل على رواقين . أما الايوانات
الثلاثة ، فكل منها رواق واحد . وللجامع ثلاثة
أبواب في واجهاته الغربية والبحرية والقبليّة
وميضاته منغزلة عنه .

وتعد الواجهة الغربية أهم واجهاته ، بها الباب
العمومي المحمول عقده على كوابيل طريفة . وعتب
الباب ملبس بمزرات رخامية خضراء . وعلى
يساره قبة علاء الدين كجك المحلاة شباييكها
بمزرات رخامية ملونة ، ما بين خضراء وبياض ،
يعلوها شباك مستدير لبس ما حوله برخام ملون
مزخرف ، يغطيها مقرنص واحد . وبها لوح رخامي
مكتوب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . كل نفس ذائقة
الموت . هذه القبة المباركة عمرت لدفن العبد الفقير
الى الله تعالى مولانا السلطان السعيد الشهيد الملك
الأشرف علاء الدين كجك » . وكانت وفاته في
شهر جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة .

وعلى يمين الباب شباك حليت أعتابهما
بمزرات رخامية خضراء ، يغطيها مقرنص واحد .
وتنتهى الواجهة بمنارة رشيقة مكونة من ثلاث
دورات : بدن الدورة الأولى مستدير ، والثانية
قنوات مستطيلة ، والثالثة مسدسة فوقها خوذة
خشبية مغلقة بالرصاص .

الأمير آق سنقر الناصري ، أحد ممالك الناصر
محمد بن قلاوون ، عينه في عدة وظائف من أمير
مائة الى مقدم وأمير شكار (وهو المشرف على
شئون الصيد) . وزوجه باحدى بناته . ثم عين
واليا لغزة بعد وفاة الناصر ، ثم عين أمير آخور في
دولة الصالح اسماعيل ، ثم ولى نيابة طرابلس .
وفي دولة الكامل شعبان تلالاً نجبه ، وعمل
على انتقال الملك الى المظفر حاجي ابن الناصر
محمد بن قلاوون ، حتى صار نافذ الكلمة ، ولعب
دورا كبيرا في سياسة الدولة الى أن قبض عليه في
ربيع الآخر عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) ، وقتل رحمه
الله ، ودفن في هذا المسجد .

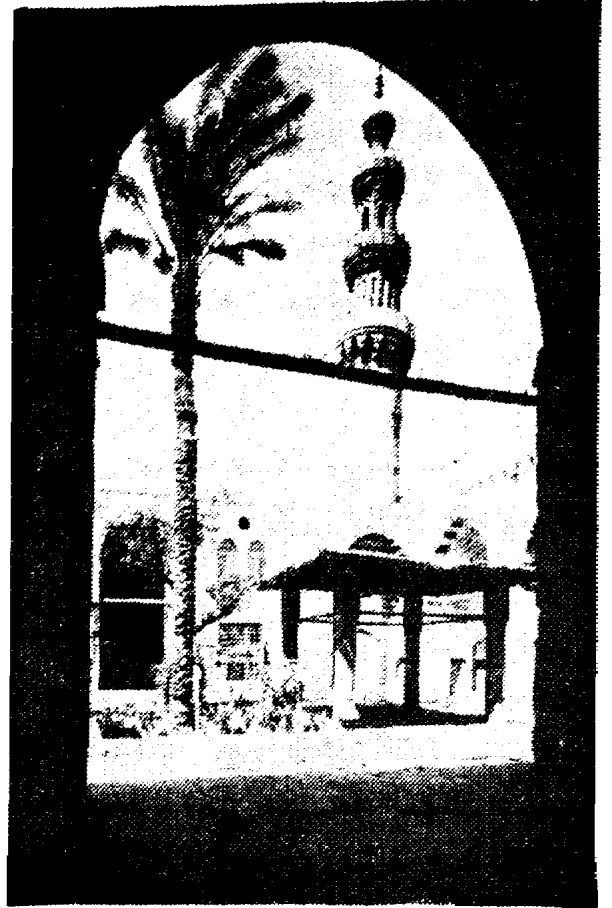
تاريخ انشاء المسجد

شرع الأمير آق سنقر الناصري في ١٦ من
رمضان عام ٧٤٧ هـ (١٣٤٧ م) في بناء هذا
الجامع ، وأنشأ بجواره مكتبا وسيلا ومكانا
ليدفن فيه ، ونقل اليه ابنه . وقد اهتم بعمارته
اهتماما كبيرا حتى انه كان يشرف على العمارة
بنفسه ، وافتتحه للصلاة في يوم الجمعة ٣ من
ربيع الأول عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ، وأوقف
عليه ضيعة من قرى حلب للصرف عليه ، وتعميره .
وفي عام ٨١٥ هـ (١٤١٣ م) أنشأ في وسطه
الأمير طوغان الدوادر فسقية أقام فوقها سقفا
محمولا على عمد لم يبق لها أثر اليوم ، وربما
حلت محلها المظلة الموجودة في وسط الجامع .

عليه لوحة تقرأ فيها : « هذا قبر المرحوم آق سنقر
الناصرى ، المعروف بجامع النور ، وكان ابتداءه
سادس عشر رمضان سنة ٧٤٧ هـ ، والفراغ في
سنة ٧٤٨ هـ » .

ومن المؤكد أن هذه المقبرة أنشئت في وقت غير
معلوم ، لأنه معلوم أن آق سنقر أعد لنفسه مقبرة
بجوار الجامع ، حلت محلها الآن الأبنية التي
تحجب بقية الواجهة القبلىة على الأرجح ... هذا
الى أن المقبرة في وضعها الحالى هى مقبرة ابراهيم
أغا الذى بخل على المنشئ الأصلي بمقبرة تتناسب
وعمله الخيرى العظيم .

والايوان الشرقى أكبر الايوانات ، وهو يشتمل
على رواقين كانت عقودهما محمولة على أكتاف
حجرية مثمنة وسقفها معقودة . وما زال الرواق
أمام المحراب محتفظات بأصله لم يتغير . أما الرواق
الثانى : المشرف على الصحن ، فإن عقودها استبدلت

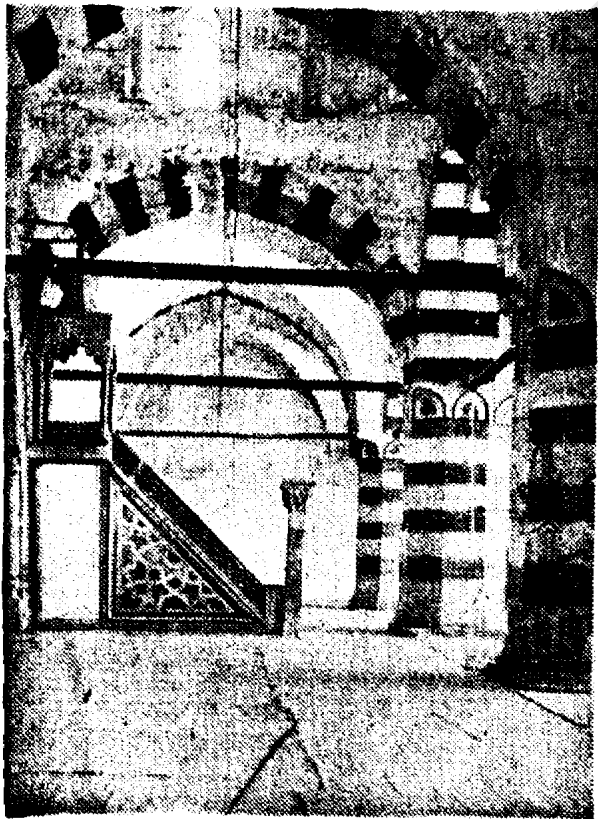


جامع آق سنقر

وعلى يسار الداخل من الباب العمومى مدخل
قبة السلطان الملك الأشرف كجك بن السلطان
الملك الناصر محمد بن قلاوون . وهى قبة طريفة
بها ايوان ودوائر وبخاريات جصية .

وعلى يمين الداخل بمؤخر الايوان القبلى حجرية
أنشأها ابراهيم أغا مستحفظان عام ١٠٦٢ هـ
(١٦٥٢ م) ، كسيت جدرانها من أسفل بوزرة
رخامية ، وبقية الجدران بالقاشانى حتى السقف .
وبها محراب رخامى ، ووسطها قبر من الرخام
أنشأه فى حياته عام ١٠٦٤ هـ (١٦٥٣ م) .

وفوق شباك المدفن لوحة رخامية تحمل تاريخ
عمارة ابراهيم للمسجد عام ١٠٦١ هـ (١٦٥٠ م) .
ويجاور هذا المدفن الباب القبلى للجامع ، يلاصقه
بناء مربع بسيط بداخله قبر تسوده البساطة ،



المنبر فى جامع آق سنقر

يسقف من الخشب ، وبقي طرفاه على أصلهما ، وأبدلت بدعائمه عمد رخامية واكتاف حجرية مربعة ، وكذلك الرواق القبلى والبحرى . أما الرواق الغربى فانه محتفظ بكثير من تفاصيله القديمة .

وهذا التغيير أحدثه ابراهيم آغا مستحفظان فى عمارته الكبيرة التى أجراها بالجامع عام ١٠٦١ هـ - ١٠٦٢ هـ (١٦٥٠ - ١٦٥١ م) كما هو منقوش فى غير موضع بالجامع . ولم يقتصر على هذه العمارة ، بل كسا الجدار الشرقى حتى السقف بالقاشانى الملون الجميل ، وهى أكبر مجموعة منه وجدت فى أثر واحد بمصر . ويزيد فى أهمية هذه المجموعة أنها عملت خصيصا لهذا الجامع برسوم موضوعة ... ولذلك عرف الجامع - وخاصة عند الزائرين الأجانب - « بالجامع الأزرق » ، نسبة الى مجموعة القاشانى العظيمة الموجودة فيه .

ومما يسترعى النظر فى هذا الايوان ، المنبر الرخامى الملون ، ودرازينه الحافل بالزخارف البارزة المورقة وعناقيد العنب . وهو أقدم منبر

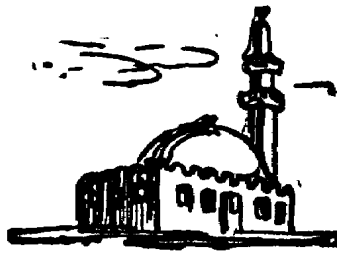
رخامى باق فى مساجد مصر ، يليه منبر مدرسة السلطان حسن .

يجاور المنبر محراب كبير كسى بأشرطة دقيقة من الرخام والصدف . وقبته وغطاؤه ، المعبر عنه بالطاقيّة ، رخامى محلى بزخارف نباتية ملونة بارزة ، لعلها الوحيدة من نوعها . وقد ثبت على يسار هذا المحراب لوح من الرخام مكتوب فيه : « رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المحراب المبارك ، فى ليلة السبت تاسع شهر ذى الحجة الحرام سنة ثمان وستين وثمانمائة - وهو قائم يصلى - معمر هذا الجامع الشريف ابراهيم آغا مستحفظان حالا فى تاريخ ١٠٦٢ هـ » .

ويعلو المحراب قبة كبيرة مقرنصها كذلك من طاقة واحدة . وغريب أن نرى مقرنصات قباب هذا المسجد ، وقبته مسجد السلطان شعبان وتنكزبا من طاقة واحدة . وبسّوخر هذا الايوان دكة المبلغ ، وهى من الرخام .

وقد أجرى بالجامع عمارة هامة فى سنة ١٣٠٧ هـ ، أعادت اليه رونقه وبهاءه .

حسن مبد الوهاب



مسجد السيدة نفيسة

أجمع المؤرخون على صحة تشريف السيدة نفيسة أرض مصر ، ودفنها في هذا المشهد . فهو يقينا أصح المشاهد .

وهو مشهد يغمره النور ، ويحف به الوقار والجلال ، مشتهر بأجابة الدعاء فيه . وكيف لا وقد ثوت فيه فرع الدوحة المحمدية السيدة الطاهرة العالية القدر نفيسة ابنة الامام الحسن ابن زيد بن حسن السبط ابن أمير المؤمنين على ابن أبي طالب « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » .

ولدت رضى الله عنها بمكة عام ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ، ونشأت بالمدينة ، ولازمت قبر النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت على جانب عظيم من التقوى والزهد ، تحفظ القرآن وتجيّد تفسيره . صوامه قوامه ، حجت ثلاثين حجة ، وتحققت أمنيته ، فزارت قبر الحليل ومعها زوجها اسحاق المؤمن بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الامام الحسين ، ثم رحلا الى مصر . وقد احتفى بها أهل مصر ، واستقبلوها أحسن استقبال .

كان تشريفها أرض مصر في شهر رمضان عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) ، وقيل عام ١٩٦ هـ (٨١٢ م) ، فقصدها العلماء والصالحون والمتبركون بها . وكان الامام الشافعى يزورها ، ويطلب منها الدعاء . وقيل انه سمع عليها الحديث ، وانه كان يصلى بها التراويح في شهر رمضان بسجدها ، وانها صلت عليه مأمومة يوم وفاته رضى الله عنه .

أقامت بمصر وسط تكريم المصريين وتعلقهم بها ، وحفرت قبرها بنفسها ، وداومت على قراءة القرآن فيه . فلما كانت أول جمعة من رمضان عام ٢٠٨ هـ (يناير عام ٨٢٤ م) ، وصلت في قراءتها في هدأة الليل الى سورة الأنعام ، وعند قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » غشى عليها ، وتشهدت شهادة الحق ، وانتقلت الى الرفيق الأعلى .

وبعد وفاتها شيد مشهدها أمير مصر عبيد الله بن السرى بن الحكم . ثم جدد انشاءه أمير الجيوش بدر الجمالى عام ٤٩٢ هـ (١٠٨٩ م) . وفى عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) جدد القبة الخليفة الحافظ لدين الله ، وكسا المحراب بالرخام . وقد بقى من هاتين العمارتين ، بمتحف الفن الاسلامى ، محراب خشبى متنقل ، به زخارف دقيقة وكتابات كوفية آية فى الدقة والجمال يقرأ منها : « ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » ، ومصراغان خشبيان دقت حشواتهما بزخارف نباتية ، ومكتوب بوسط كل حشوة بالخط الكوفى « بركة » .

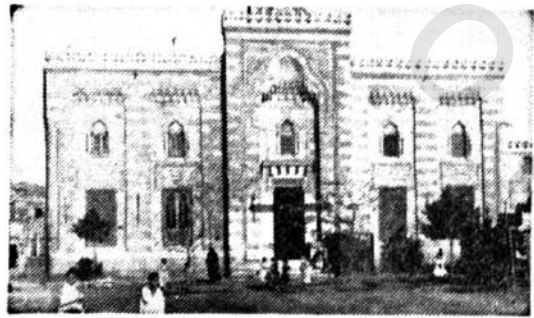
وقد بلغ من تقديس هذا المشهد أن أخذ من يعتدى على حرمة بالشدة . ففى عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) تسلل الى المشهد لصوص ، وسرقوا ١٦ قنديلا من الفضة . وبعد القبض عليهم اعترف أحدهم بأنه هو السارق فشنق أمام المشهد .

وفي عام ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) أنشأ الناصر محمد بن قلاوون مسجداً بالمشهد ، صرف على انشائه من الهبات المقدمة للمشهد ومن النذور . وقد زار المشهد الرحالة المغربي خالد البلوى عام ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) ، ووصفه وصفاً فنياً فقال : « شاهدنا المشهد العظيم ... مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها . فرأيت مسجداً عظيماً غاية في الحسن ، فيه من الذهب وأنواع النحاس ما لا يحصيه العد ولا يجمله ، يشهد إليه الداخل بعد اجتياز ثلاثة أبواب متقابلة بديعة ... وفي قبلة المسجد ستار من الحرير مكتوب فيه بخيوط الذهب : « هذا مشهد السيدة نفيسة ابنة الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم » ...

« وفي داخله مسجد آخر أصغر منه حجماً ، وأتم حسناً ، وأعظم اتقاناً وصنعة . في جدار قبلته باب بديع يؤدي إلى قبة عجيبة تتوقد ذهباً ، وتتلألأ جمالاً ...

« وتحت القبة الضريح المبارك ، وحوله الرخام البديع المجزع الغريب الترصيع ، وشبابيك العود البديعة التخريم ، وثريات الفضة والذهب ، وقناديل التبر الخالص الأبريز » .

هذا وصف خلّاب للمشهد النفيسى والمسجد الذى شيده الناصر محمد بن قلاوون . وقد بقى من عمارة الناصر محمد شعاع من الخشب دقيق



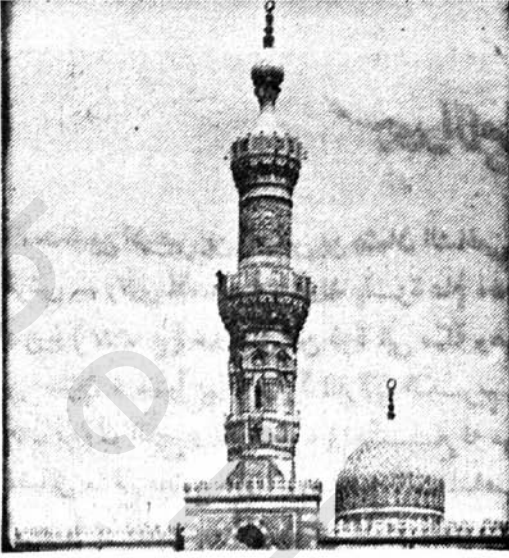
الواجهة الغربية للمشهد النفيسى

الصنعة ، حوى أدق خراط مكتوب عليه بالخط الكوفى المربع : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيرا » ، ومكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم . رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد . هذا مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد ابن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليهم أجمعين . توفيت السيدة نفيسة صلوات الله عليها في شهر رمضان المعظم سنة ثمان ومائتين . كما حلى ظهر هذا الشعاع بزخارف وكتابات تخللتها زخارف آية في الروعة ، ومكتوب أعلاه : « بسم الله الرحمن الرحيم . يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً ان الله عنده أجر عظيم . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً » .

ومن المرجح أن هذا الشعاع كان يعلو مدخلا مؤدياً من المسجد إلى المشهد ، كما تحلف منه شبك كتب باطاره المزخرف آتات من القرآن ، واشتمل أعلاه وأسفله على حشوات مسددة حفرت بزخارف نباتية دقيقة .

ويلاحظ من المخلفات المعمارية الباقية من العمارات القديمة لهذا المشهد أن المهندس والصانع تكاتفاً على اخراج مصنوعات اتسمت بالدقة والجمال ، بما يناسب مشهد سيدة جليلة . وهذا ملاحظته في كثير من المنشآت المعمارية التى شيدت للنساء اللاتى أمرن بتشيدنها .

وأدرك هذا المشهد فى روعته الرحالة عبد الغنى النابلسى ، وزاره عام ١١٠٥ هـ (١٦٩٢ م) ، وقال : « دخلت الى مزارها المعمور فاذا هو ملآن بالناس وحوله ، مع كمال الخضوع . والنساء هناك وحدهن تقرأن لهن القرآن امرأة حافظة بالصوت



مئارة وقبة المشهد النفيسى

والمسجد من الداخل مستطيل يشتمل على أربعة أروقة ذات عقود حجرية محكمة ، وعمد رخامية مشننة ، يحيط به من أعلى شبايك ذات مروحة مخوصة ، بداخلها جص وزجاج ملون . ويقرأ على عتب الباب المؤدى الى القبة

هذا مقام نفيسة العلم التى

برحابها تنزل الرحمات

والمحراب مكسو بالقاشانى الحديث ذى الألوان البديعة والرسوم الجميلة وكتب فيه : « كلما دخل عليها زكريا المحراب » .

ولا يسعنى الا الاشادة بجمال عمارة هذا المسجد ، ورشاقة منارته وجمال قبته . وأتمنى مخلصا أن تعود وزارة الأوقاف الى سنتها الأولى ، فتشيد مساجدها على الطراز العربى الصحيح ، كما شيدت هذا المسجد ومساجد السيدة سكيئة والسيدة زينب وأولاد عنان والعباسى بالظاهر ، ووزارة الأوقاف ، ان فعلت ذلك ، تصون الفن الاسلامى ، وتبقى على الأيدى العاملة فيه .

حسن محمد الربيع

العالى . وكوكب الهية والجلال فى سماء تلك الحضرة متلالى . ثم دخلنا الى معبدها هناك ، وصلينا ركعتين بقصد حصول البركة . ثم أنشد قصيدة فى مدحها ، أولها :

نور قلب الموحدين نفيسة

تتجلى بها الأمور النفيسة

وبها تكشف الكروب وينجو

قاصدوها من الأمور الخسيسة

ومن طريف ما يذكر أن نساء مصر منذ القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) خصصن لزيارة السيدة نفيسة يوم الأربعاء ، ولزيارة الامام الحسين يوم الاثنين .

وفى عام ١١٧٠ هـ (١٧٥٦ م) أقام والى مصر على باشا حكيم بوابة على الساحة الفضاء التى كانت أمام المسجد ، ونقش عليها أبياتا من الشعر تضمنت ان ما ناله من عز ببركتها .

وفى عام ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ م) جدد المسجد والمشهد الأمير عبد الرحمن كتحدا ، مجدد مشاهد مصر ومزاراتها ، وكسا باب القبة بالقاشانى . وقد نقلت منه قطع هامة الى متحف الفن الاسلامى كمابقى من عمارته أربعة مصاريع مكسوة بالنحاس من أجمل المصاريع التى عملت فى عصره ، وما زالت موجودة بالمسجد .

وفى عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) جددته وزارة الأوقاف تجديدا راعت فيه أصول العمارة الاسلامية ، وهذا يبدو جليا فى طراز الواجهة الغربية ، والمنارة الرشيقة ، والقبة الحافلة بالنقوش ... بل وفى المسجد جميعه ، وأدخلت فى عمارتها عمودين من السماق الأحمر السادر ، يحملان عقد الايوان أمام القبة .

وعلى القبر النفيسى مقصورة من النحاس عملت

عام ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) .

مسجد الإمام الشافعي

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : « قلت لأبي أي رجل كان الشافعي ، فاني سمعتك تكثر من الدعاء له ؟ فقال : يابني كان الشافعي كالشمس للدنيا ، والعافية للبدن ... فهل من هذين من خلف أو عنهما من عوض ؟ » .

وقال يونس بن عبد الأعلى : « لو جمعت أمة لوسعهم عقل الشافعي » !

قدم مصر عام ١٩٩ هـ للهجرة ، وقيل ٢٠١ هـ (٨١٦ م) ، ونزل بها ضيفا على أبي عبد الله بن الحكم الفقيه المالكي المصري . وأخذ عنه مجموعة من العلماء ، ولم يزل بها الى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب عام ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ، ودفن وسط قبور بني عبد الحكم في القرافة الصغرى ، وبنوا على قبره قبة .

وقد ظلت هذه المقبرة موضع تكريم الزائرين ، يقصدونها بالزيارة والتبرك بهذا الامام العظيم ، حتى عنى بها صلاح الدين ، كما عنى بنشر مذهبه ... ففي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) جدد صلاح الدين قبر الشافعي رضى الله عنه ، وأقام عليه تابوتا من أجمل وأدق التوايت الخشبية . وفي العام ذاته شرع في بناء المدرسة الصلاحية بجوار قبر الشافعي ، برسم الفقهاء أصحاب الشافعي . وكان الفراغ منها في عام ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) ، وعرفت بتاج المدارس ، فقد كانت معقلا لنشر مذهب الشافعي .

وقد تعاقب على التدريس فيها أئمة علماء المذهب حتى نهاية القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر

محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان الشافعي ، القرشي - رضى الله عنه - ولد بغزة عام ١٥٠ للهجرة (٧٦٧ م) ، وحمل من غزة الى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم ، وكان آية في الفهم والحفظ ، واجتمع له من الفضائل ما لم يجتمع لغيره . ومذهبه ثالث المذاهب الأربعة في القدم ... أخذ عن الإمام مالك ، ثم استقل بمذهب خاص . ودخل الى العراق بعد مالك ، ولقى أصحاب الامام أبي حنيفة ، وأخذ عنهم ، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق ، وخالف مالكا رحمه الله في كثير من مذهبه .

ويذكر أصحاب الطبقات أن ظهور مذهبه كان أولا بمصر ، وكثر أصحابه بها . ثم ظهر بالعراق ، وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان والشام واليمن وغيرها . ولما قدم مصر انتشر مذهبه .

وكان رضى الله عنه كثير المناقب ، جم المفاخر ، عالما بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة - رضى الله عنهم - وآثارهم . قال عنه الامام أحمد بن حنبل : « ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي » . وقد أجمع علماء الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو والقراءات على عفته وأمانته وعدله وزهده وعلو قدره . وقال الزعفراني : « كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعي فأيقظهم ، فتيقظوا » .

وفي عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) ، تم تجديد المسجد على ما هو عليه الآن ، وهو مسجد جميل واجهاته مبنية بالحجر ، وحليت أعتاب الشبايك بكتابات كوفية ، وله منارة رشيقة عملت على مثال المنارات المملوكية .

تابوت الشافعي

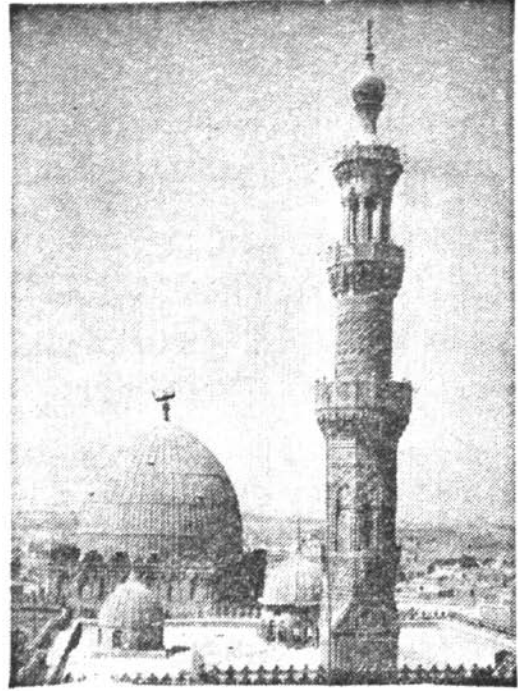
تخلف من عمارة صلاح الدين الأولى لضريح الشافعي ، تابوت خشبي فاخر مستطيل غطاؤه هرمي حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية . وأوجه هذا التابوت جميعها مكونة من أطباق عريية كبيرة ، منقوشة بزخارف نباتية دقيقة ، من غصون مفرغة وأوراق مفرقة في مجاميع متسائلة ، تتخللها أشكال نجمية ومسدسة .

وأهم الكتابات به النص المشتل على تاريخ صناعة التابوت واسم الصانع وهو :

« عمل هذا الضريح المبارك للإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن



فصائل من تابوت الإمام الشافعي



مسجد الإمام الشافعي: قبه ومغارته

للميلاد) . وكانت موضع رعاية ملوك مصر وأمرائها ... فقد جدها السلطان قايتباي ، كما جدها صاحب الخيرات الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٦ هـ (١٧٦٣ م) ، وأنشأ سيلا على يسار باب القبة لا يزال باقيا حتى الآن هو والكسوة الرخامية للباب الخارجي للقبة بمصراعيه المغشيين بالفضة . وتقش على أعتاب باب المسجد الذي كان جده محل المدرسة الصلاحية مانصه :

« مسجد الشافعي بحر علوم

أشرقت شمس بنور محمد »

وعلى عتب آخر :

« أكرم به من مسجد مصباحه

كنز الهدى المولى الهمام الشافعي »

وتخلف من المدرسة الصلاحية النص التاريخي المكتوب بالنسخ الأيوبي المتضمن انشاءها عام ٥٧٥ هـ ، وهو مودع بمتحف الفن الاسلامي .

النباتية تتوسطها اثنتا عشرة حشوة لجمية آية في الدقة والجمال .

وفي عام ٨٨٥ هـ (١٤٨١ م) أمر السلطان قايتباي باصلاح القبة ، ولعله هو الذى كساها بالقاشانى .

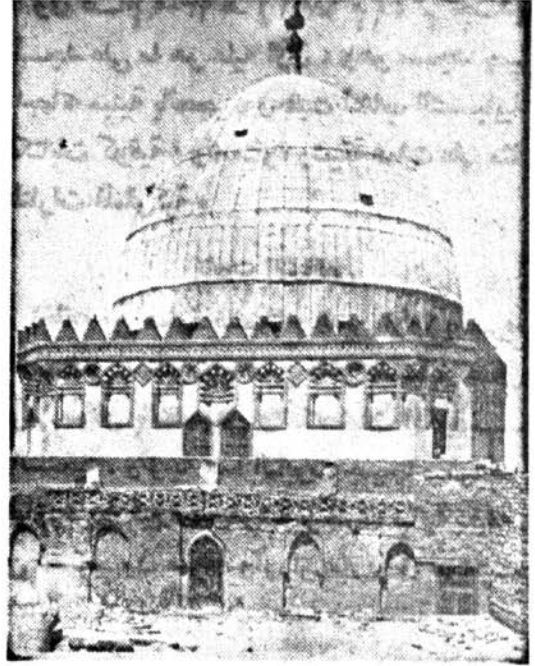
القبة

في عام ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) أنشأ هذه القبة السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل لما دفنت أمه هناك .

وهى قبة كبيرة من أجل وأجل القباب بمصر . وكما تفنن المهندس في زخرفتها وتقوشها ، كذلك بذل قصارى جهده في تخفيف كتلة البناء الضخمة التى سيحملها مربع القبة ، وحليت من الخارج بزخارف وكتابات وشرفات مسننة منقوشة . وهذه القبة خشبية ومكسوة بالرصاص ، ولعلها أقدم قبة خشبية ، وكانت مكسوة بالقاشانى قبل كسوتها بالرصاص ، وكسيت جدرانها الداخلية بالرخام . وبجدارها الشرقى ثلاثة محاريب ، أطواقها خشبية منقوشة ، ثم محراب رابع أحدث منها لتصويب القبلة .

ويحيط بالمربع أعلى الوزرة افريز خشبى منقوش بزخارف بارزة ، كما يحيط بها افريز آخر خشبى أسفل رجل المقرنص ، وبقيّة جدران القبة منقوشة وبها كتابات بالخط الكوفى الأندلسى . وفي عام ١١٨٦ هـ (١٧٧٢ م) أجرى على بك الكبير بها عمارة كبيرة ، فقد كشف ما عليها من الرصاص القديم من أيام الملك الكامل ، وقد تشعث ، فجدد ما تحته من خشب القبة البالى بغيره من الخشب النقى الحديث ، ثم كساه بالرصاص ، وجدد تقوش القبة الداخلية بالذهب واللازورد .

ومركب على باب القبة مصراعان آخران من الخشب المجمع ، دقت حشواتها « بالأويع » الجميلة



قبة الامام الشافعى

شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن الهاشم ابن المطلب بن عبد مناف رحمه الله — صنعة عبيد النجار المعروف بابن معالى — فى شهور سنة أربع وخمسين وخمس مائة ، رحمه الله ، ورحم من ترجم عليه ، ودعا له بالرحمة ، ولجميع من عمل معه من النجارين والنقاشين ولجميع المؤمنين .

وحول هذه التابوت مقصورة خشبية منقوشة ، أقامتها لجنة الآثار العربية لحماية هذا التابوت عام ١٣٢٩ للهجرة .

وابن معالى هذا من أسرة نبغت فى صناعة النجارة ، قرأت اسم أحد أفرادها على منبر نور الدين الشهيد فى المسجد الأقصى ونصه « صنعة سليمان ابن معالى » .

وبهذه القبة تابوت آخر فوق قبر أم الملك الكامل لا يقل أهمية عن تابوت الشافعى ، حليت جوانبه الأربعة بحشوات دقت « بالأويع » ذات الفروع

من نوع دقة تابوت أم الكامل ، لهما صنوان مثلهما
نقلا الى مسجد الامام الليث . ومنقوش على هذين
المصراعين في أربع حشوات تاريخ الفراغ من القبة
« وذلك لسبع خلون من جمادى الأولى سنة ثمان
وستمائة » ثم مانصه :

الشافعى امام الناس كلهم
فى العلم والحلم والعلماء والباس
له الامامة فى الدنيا مسلمة
كما الخلافة فى أولاد عباس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه
خير المذاهب عند الله والناس

العشارى فوق القبة

اشتهرت قبة الشافعى بالعشارى فوقها ، وهو
مركب صغير مثبت فى هلال القبة تتدلى منه سلسلة
حديدية ، يقال أنها أعدت ليتسلقها من يريد
الوصول الى هذا المركب لوضع الماء والجبوب
للطيور على ما يزعمون ... وهو ما يصعب

تصديقه . وهذا المركب موضوع فى هلال القبة منذ
انشائها ، لأن الامام البوصيرى صاحب البردة
المتوفى عام ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) غابها ، وأنشد
فيها :

بقبة قبر الشافعى سفينة
رست فى بناء محكم فوق جلود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره
استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى
وتبعه شعراء القرنين الثامن والتاسع للهجرة
(الرابع عشر والخامس عشر للسيلاذ) فى وصفها ،
فقد أنشد فيها الأديب الكاتب ضياء الدين بن الفتح
موسى بن ملهم :

مرت على قبة الشافعى
فعاين طرفى عليها العشارى
فقلت لصحبى لا تعجبوا
فان المراكب فوق البحار
ومن هذه الأشعار نستنتج أن هذا المركب رمز
لعلمه الفياض ، وكناية عنه ، لأنه بحر علوم .
حسن عبد الوهاب



مسجد الإمام التليث

الإمام الكبير الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي — نسبة إلى فهم ، وهم بطن من قيس عيلان — الأصفهاني الأصل ، المصري ، فقيه مصر ، وأحد أعلامها . كنيته أبو الحارث ، وهو من تابعي التابعين .

ولد في شعبان عام ٩٤ هـ (٧١٣ م) حسب روايته . وقيل أنه من أهل قلقشندة إحدى قرى الوجه البحري ، وبها ولد .

كان من الشخصيات المبرزة في مصر . وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يتأسف على فوات لقائه .

وكان ، مع علمه وثرائه ، زاهدا جوادا . فقد كان دخله كل سنة نحو مائة ألف دينار . وما وجبت عليه زكاة قط ، لأن الحول لا ينقضي حتى كان ينفقها ، ويتصدق بها حتى لقب بأبي المكارم . وقيل أن الأمام مات كما كتب إليه من المدينة « بلغني أنك تأكل الرقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشي في الأسواق » . فكتب إليه الليث بن سعد :

« قل من حرم زينة الله » الآية . وقد أجمع العلماء على إمامته في الفقه والحديث . وقال يحيى بن بكير : « ما رأيت أحدا أكمل من الليث بن سعد ... فقد كان فقيها عربى اللسان ، يحسن القرآن والفقه والنحو ، ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة بها » .

توفي إلى رحمة الله يوم الخميس منتصف شهر شعبان عام ١٧٥ هـ (٧٩١ م) ، ودفن يوم الجمعة

بالقرافة الصغرى . وقد أسف عليه أهل مصر ، وصاروا يعزى بعضهم بعضا .

ويروى أن الإمام الشافعي لما وقف على قبره قال : « لله درك يا امام . لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم » .

موقع المسجد وتاريخه

بعد أن انتقل إلى رحمة الله تعالى الليث بن سعد ، دفن في مقابر الصدفين بالقرافة الصغرى . وكان قبره كالمصطبة مكتوب عليه : « الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصري ، مفتي أهل مصر » .

وبعد عام ٦٤٠ هـ (١٣٤٢ م) أقام أبو يزيد المصري ، كبير التجار ، بناء على القبر . واستمر أهل الخير يتبارون في زيادة هذا البناء .

وحوالى عام ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) ، جدد قبه الحاج سيف الدين المقدم . أخبرنا المقرئ المؤرخ عن عمارة أجريت بالمسجد في دولة الناصر فرج بن برقوق ، على يد الشيخ أبى الخير محمد بن الشيخ سليمان المادح ، في شهر المحرم عام ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) .

ويوجد بالمسجد باب صغير مبنى بالحجر أمام باب الضريح ، وجهه من الخارج محاط بالنقوش ، ومكتوب على جانبيه آيات من القرآن ، وبأعلاه : « هذا مقام السيد الإمام الليث بن سعد . نفعا الله به آمين » ، وفوق العتب هذا النص :

أبو سعيد جقمق ، أن قام شخص ما - ولعله أبوبكر ابن يونس - بمحو اسم الناصر فرج ، وأثبت اسم سلطان وقته الظاهر محمد . كما محو اسم سلفه أبي الخير المادح ، ثم فاته تغيير التاريخ . فتم ذلك - مع أسباب فنية أخرى - عن هذه السرقه التاريخية .

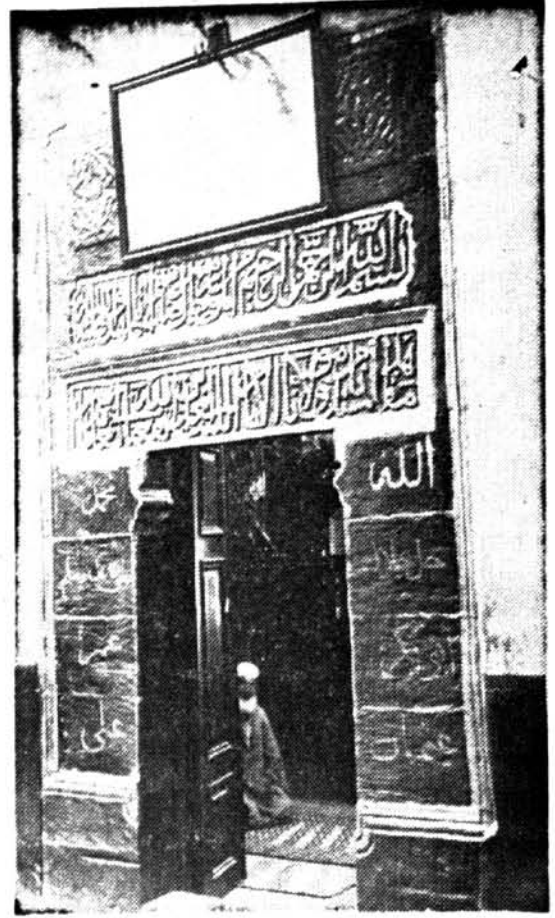
وفي عام ٨٣٣ هـ (١٤٢٨ م) جددته السيدة مرجا بنت ابراهيم بن عبد الرحمن . وفي عام ٨٣٤ هـ (١٤٢٩ م) أنشأ الأمير يشبك بن مهدي - أحد أمراء الملك الأشرف قايتباي - منارة في الضرف القبلى الغربى للمسجد الحالى ، منعزلة عنه الآن ، وقائمة على ساباط ، ولها قاعدة مربعة تعلوها كسرات هرمية ، وبكل من أضلاع المثلث بخارية منقوشة .

وفي عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) جدد المسجد السلطان الغورى . ولم يبق من عمارته سوى الباب الثالث الكبير المؤدى الى المسجد . وهو مبنى بالحجر ، وبه دائرتان بهما اسم الغورى ، كما كتب على جانبيه تاريخ العمارة ، ونصه :

« أمر بإنشاء هذا الباب الشريف ، من فضل الله تعالى ، سيدنا ومولانا ومالك رقابنا ، السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى - عز نصره - وكان الفراغ من انشاء هذا المكان فى سنة احدى عشرة وتسعمائة » .

وفي القرن العاشر أجرى به عمارة الشيخ بدر الدين محمد الغورى شيخ المقامين : الشافعى والليث . وفى شهر ذى القعدة عام ١١٣٨ هـ (١٧٢٦ م) جدد المسجد والقبه الأمير موسى جوربجى مرزة مستحفظان . ومن أثر هذه العمارة المقصورة الموجودة حتى الآن .

وفي عام ١١٩٤ هـ (١٧٨٠ م) أجريت عمارة



باب قبة الامام الليث

« جدد هذا المقام المبارك فى أيام سيدنا ومولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر محمد - عز نصره - على يد الفقير الى الله تعالى أبو بكر بن يونس ، شيخ القرافتين خادم السيدين الامامين الشافعى والليث بن سعد ، لطف الله به ، فى شهر المحرم عام أحد عشر وثمانمائة » .

ومن المرجح أن هذا الباب قد تخلف من العمارة التى أجريت بهذا المسجد فى القرن السابع للهجرة ، يؤيد ذلك أسلوب الكتابة على جانبيه ونقوشه .

ولكن التناقض الموجود فى هذا النص يحملنى على القول بأنه حدث فى دولة الملك الظاهر

بالمسجد ، كما أجريت به عمارة أخرى في عام ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م) بقيت منها لوحتان على الباب الخارجى تضمنتا آياتا من الشعر في مدح الامام الليث .

وكذلك أجرى به عمارة الأمير مصطفى أغا قردزلى عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ م) . وبقي من عمارته لوح رخامى مكتوب فيه :

« هذا مقام فيه ليث ضارى

أعنى وليا من عباد البارى »

وقد غيرت أعمال الاصلاح التى توالى على هذا المسجد فى بنائه وبدلت ، ولم تبق من عمارته القديمة الا أجزاء بسيطة ، سنتناولها بالشرح حينما نقف أمامها .

فالقادم الى المسجد يهبط بضع درجات ، فأول ما يصادفه باب حديث ثبت عليه لوحتان مؤرختان عام ١١٩٤ و عام ١٢٠١ يقرأ على السفلى منهما :

اذ رمت المكارم من كريم

فيمن من بنى للفضل بيتا

فذاك الليث من يحى حماء

ويكرم جاره حيا وميتا

يلى هذا الباب باب آخر حديث أيضا ، يؤدى الى طرفة كبيرة بها عمودان رخاميان ، ثم باب ثالث بارز مبنى بالحجر أنشأه الغورى عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) ، وركب عليه فى وقت ما مصراعان من الخشب بهما « أويمة » دقيقة ، وتاريخ عام ٦٠٨ ، واسم الامام الشافعى . وهما منقولان اليه من

مسجد الامام الشافعى ، لأنهما طبق الأصل من صنوهما هناك .

وهذا الباب يؤدى الى المسجد ، وهو مستطيل على يمين الداخل باب الضريح ، وهو حجرة مربعة أقيم بوسطها قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة رخامية ، قواعدها وتيجانها مزخرفة ، وبها كتابات أيوية بالخط الكوفى ، نقرأ فيها : « بركة كاملة ... نعمة شاملة » ، لعلها باقية من عمارة عام ٦٤٠ هـ . ويعلو القبة سقف منقوش مكتوب .

وتحت القبر تركيبة رخامية كتب بدائرها آية الكرسي ، وحوله مقصورة خشبية مطعمة بالصدف عليها تاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١١٣٨ . وهو تاريخ العمارة التى أجراها الأمير موسى جوريجى .

وأمام هذه القبة قبة صغيرة فيها قبر محمد ابن هارون الصدفى ، والامام المحدث شعيب ابن الامام الليث بن سعد ، ومكتوب على بابها : « هذا مقام سيدنا ومولانا الشيخ شعيب ابن الامام الليث بن سعد ، نفعنا الله ببركاتهم » .

اما بقية المسجد ، بمحراجه ومنبره ، فحديثه ترجع الى عمارة المرحوم اسماعيل بك بن المرحوم راتب باشا الكبير عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) ، وهو الذى جدد الايوان بالقبة أيضا .

وقد كان ملوك مصر يقصدون قبر الامامين : الليث والشافعى للزيارة والتبرك ، خصوصا السلطان قايتباى والسلطان الغورى . وكثيرا ما كانت تقرأ ختمات القرآن ، وتوزع الصدقات تقربا الى الله تعالى .

حسن عبد الوهاب

مدرسة وقبة وبيمارستان المنصور قلاوون

المنصور قلاوون

هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى^١ الصالحى ، أحد ممالك الأتراك البحرية . اشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلى بألف دينار ، ثم امتلكه الصالح نجم الدين عام ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، فجعله من جملة البحرية ، وترقى فى الوظائف الى أن عين أتابك^٢ العساكر .

وفى عام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) عين ملكا على مصر ، ولقب بالملك المنصور ، فكان عصره عصر رخاء ورفاهية : انتعشت فيه الفنون ، وازدهرت العمارة . وحارب التتار وهزمهم فى حمص ، كما هزم الصليبيين فى مواقع كثيرة .

انتقل الى رحمة الله تعالى ليلة السبت ٦ من ذى القعدة عام ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) بعد أن حكم احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ، ودفن فى تربته التى أنشأها فى شارع بين القصرين .

أقيمت هذه المجموعة على رقعة من أرض القصر الفاطمى الصغير الغربى . وكان على جزء منها قاعة كبيرة لست الملك ، أخت الحاكم بأمر الله ، ثم آلت ملكيتها الى الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية .

ولقد غلب اسم البيمارستان على المجموعة ، لأنه السبب فى انشائها .. ذلك أن المنصور قلاوون — وقت أن كان أميرا عام ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) —

(١) الألفى ، لأنه اشترى بألف دينار .

(٢) أتابك : أكبر الامراء القدمين .

أصابه ، وهو بدمشق ، مرض فعولج بأدوية أخذت له من بيمارستان نور الدين الشهيد . وبعد ابلاله من مرضه زار البيمارستان فأعجب به ، ونذر أن أتاه الله ملك مصر أن يبنى بها بيمارستانا .

فلما ولى الملك شرع فى الوفاء بنذره ، ووقع اختياره على الدار القطبية وغيرها لانشاء بيمارستان ومدرسة وتربة ، وعهد الأمير الى علم الدين سنجر الشجاعى بالتنفيذ .

وكان البدء فى هذه العمارة فى شهر ربيع الآخر عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٣ م) ، والفراغ منها فى جمادى الأولى عام ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ م) ، أى أن القبسة والمدرسة والبيمارستان استغرق بناؤها ١٤ شهرا . ولم يكن هذا تقدير المؤرخين فحسب ، بل نقش على عتب الباب الرئيسى ما نصه :

« أمر بانشاء هذه القبة الشريفة المعظمة ، والمدرسة المباركة ، والبيمارستان المبارك : مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى . وكان ابتداء عمارة ذلك فى ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، والفراغ منه فى جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وستمائة » .

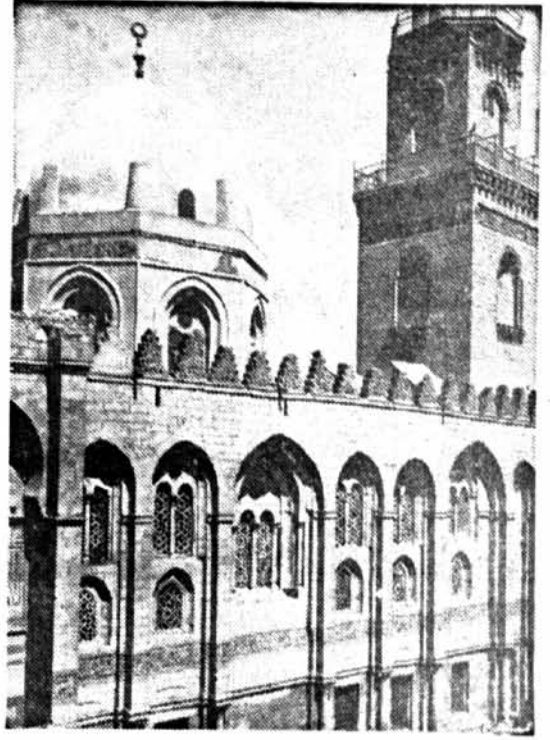
كما نقش على بقية المجموعة تاريخا البدء فيها والفراغ منها . وهى مستندات قوية . ولكن عظم مساحة هذه المجموعة ، وكثرة زخارفها ودقتها تجعلنى أتشكك فى تصديق ذلك . وكل ما أستطيع الأخذ به أن هذه التواريخ كتبت عند الفراغ من

والناظر الى هذه المجموعة يرى منظرا من أروع المناظر الاسلامية بالقاهرة . فقد اشتملت الواجهة على عقود محمولة على عمد رخامية ، وبداخل تلك العقود شبابيك مفرغة بأشكال هندسية ، يحليها طراز مكتوب به اسم المنشئ وألقابه وتاريخ الانشاء ، وتنتهى من أعلاها بشرفة مستننة حلى وجهها بزخارف . وهى واجهة ذات طراز غير مألوف فى عمارات مصر ، وهذا بلا شك من ظواهر التأثيرات السورية عليها .

وعلى الطرف البحرى للواجهة المنارة المكونة من ثلاثة أدوار : الأسفل والأوسط مربعان فتحت بهما شبابيك تنوعت عقودها ، والثالث مستدير به نقوش دقيقة وكتابات فى الجص ، متوج بكرنيش مصرى الطراز . أما خوذتها فليست منها ، ولعلها كانت مخوصة مثل منارات الجاولى وبيبرس الجاشنكير ، وهو الطراز الشائع فى هذه الفترة . وهذه المنارة أنشأها ابنه الناصر محمد بن قلاوون فى عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) على اثر سقوطها فى زلزال عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) . ونقش تاريخ التجديد فى أربعة أسطر تحيط بمربع الدائرة المولوى أسفل المقرنص .

ويتوسط هذه الواجهة الباب الذى يسلك منه الى المدرسة والقبة والبيمارستان ، وهو مكسو بالرخام الملون ، وعلى مصراعيه كسوة نحاسية مفرغة برسوم هندسية جميلة ، وسماعته على هيئة رأس حيوان .

وهذا الباب يؤدى الى دهليز له سقف خشبى جميل ، فتحت على جانبيه أبواب وشبابيك متقابلة للتربة والمدرسة ، ينتهى الى باب يؤدى الى البيمارستان حلى عقده بنقوش .

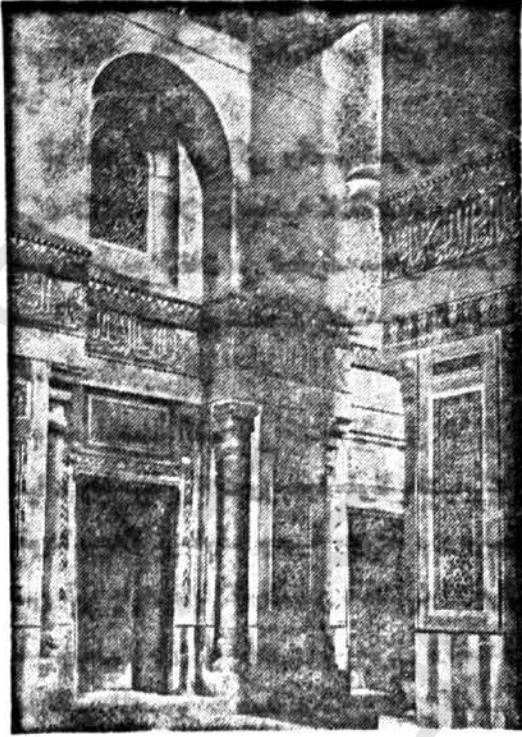


قبة المنصور قلاوون

كتلة البناء لا الزخرف . وقد قوى هذا الشك هندى وعززه ، أنه لما توفى عام ٦٨٩ هـ أودع جثمانه القلعة ، واستمر بها الى أن نقل الى قبة مسجده فى غرة شهر المحرم سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) .

ان هذه المجموعة تمت بناء ورخاما وزخرفا فى أول عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، وتكون استغرقت سبع سنين وثمانية شهور ، وهى المدة المعقولة لبناء هذه المجموعة الشامخة الحافلة بمختلف الفنون الدقيقة ، وفى خلالها أقيمت الدروس بالمدرسة وبالبيمارستان .

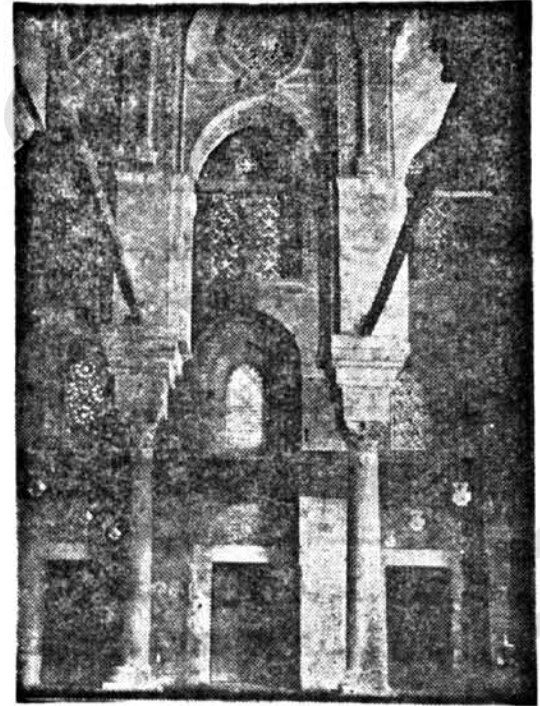
والواقف أمام هذه البناية الجليلة يرى قسمين : الأول — وهو القبلى — واجهة المدرسة ، والثانى — وهو البحرى — واجهة التربة تعلوها قبة كبيرة . وفيما بين هذين القسمين الباب الذى يسلك منه الى المدرسة والقبة والبيمارستان .



داخل مسجد المنصور قلاوون

وللتربة بابان مفتوحان على هذا الدهليز ، يدخل إليها مباشرة من أولهما ، ومن الثاني الى الايوان الموجود أمامها . وقد أدخل الأمير عبد الرحمن كتحدا في عمارته التي أجراها عام ١١٧٤ هـ (١٧٩٦ م) تغييرات على هذا الباب . وعلى باب المدرسة المقابل له ، كما هدم قمة القبة الكبيرة .

وتصميم هذه القبة غريب بالنسبة لغيرها بمصر: فالقاعدة مربعة أقيم بوسطها أربعة عمد ضخمة من الجرانيت متقابلة مذهبة نيجانها ، وأربعة أكتاف من البناء ، في نواصي كل منها أربعة عمد رخامية كسيت جوانبها بوزرة رخامية دقيقة مطعمة بالصدف ، يجمعها من أعلى أفرز رخامى دقيق ، فوقه طراز مذهب ، فطراز آخر به آيات من القرآن بحروف مذهبة على أرضية زرقاء . وبقية الأكتاف مكسوة بالخشب المنقوش .



داخل مدرسة المنصور قلاوون

وهذه الأكتاف تحمل مع العمد عقودا حلى باطنها بزخارف جصية ، كما حليت حافتها الخارجية بهذه النقوش ، وفتح بأضلاع المثلث شبايك قنديلية من الجص والزجاج الملون أحيطت بزخارف جصية مورقة ، ثم بمقرنص خشبي ... فالقبة .

وقمة هذه القبة أعادت بناءها لجنة حفظ الآثار العربية على مثال قبة الأشرف خليل بن قلاوون المعاصرة لها . وقد غطى ما حول المثلث بأسقف خشبية مذهبة بعضها على هيئة قصع نقش بها اسم المنصور قلاوون ، وبعضها من برطوم ومربوعات . أما جدران القبة وفتحات الشبايك المحيطة بها ، فقد كسيت بوزرة رخامية مطعمة بالصدف من أدق أعمال الرخام بالآثار الاسلامية بمصر : نقش بعضها على هيئة رسوم هندسية ، وبعضها

كتب به بالخط الكوفي المربع « محمد » مكررة ثمانى مرات ، بعلوها افريز رخامى دقيق الصنع للغاية .

أما المحراب فهو أكبر وأفخم محراب فى آثار مصر ، تكتنف كلا من جانبيه ثلاثة عمد رخامية ، وبتجويفه أربع طبقات من تجاويف محارية مذهبة ، محمولة على عمد رشيقة ، وبقيته من الرخام والصدف الدقيق .

ومن أرضية القبة الى قبتها لا ترى الا لونا زاهيا ، وتذهيبا براقا ، وزجاجا ملونا بالشبايك ، وغقودا محلاة بزخارف جصية مورقة . وبوسط المثنى قبر عليه بقايا تابوت من الخشب المنقوش والمكتوب بالخطين الكوفى والنسخى . وقد دفن بهذا القبر المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد وحفيده عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون .

المدرسة

وأمام باب القبة باب المدرسة المنصورية ، ويتوصل اليها أيضا من باين مقابلين لبابى القبة ، وقد كانت تخربت ، فعنيت ادارة حفظ الآثار العربية باصلاح الايوان الشرقى ، وذلك فيما بين عامى ١٩١٦ - ١٩١٩ .

ونلمس فى هذا الايوان نظاما خاصا لم يسبق له مثيل . فقد أقيم على فتحته عمودان يحملان عقدتين كبيرين بكل منهما فتحتان معقودتان مستطيلتان يعلو ذلك شبك مستدير ، يكتنفه كثفان بكل منهما ثلاثة شبايك كل منهما فوق الآخر . ولا شك أن هذه العقود والشبايك كانت محلاة بزخارف جصية ، كما تنبىء بقاياها .

وينقسم الايوان الى ثلاثة أروقة ، أوسطها

أكبرها ، وسقفه محمول على عمد رخامية ، تعلوها عقود حليت هى والشبايك المستديرة التى بأعلاها بزخارف جصية . كما توجد كوابيل متقابلة بوجه أرجل العقود أعلى الأعمدة على استواء مبدأ الطارات المنتهية بها الواجهتان القبلى والبحرى من الايوان . والقسم الأوسط فى الايوان ، وان غطى فى عمارته الأخيرة بسقف مستو ، الا أن العقد الدائر بالشبايك الثلاثة فوق المحراب يدل على أن هذا السقف كان مغطى بقبو معقود .

والمحراب مثل محراب القبة ، الا أن طاقيته وتواشيحه من الفسيفساء المذهبة ، يجاوره منبر بسيط ليس بالمنبر الأصلى ، بل عمله الأمير أزبك بن ططخ عام ٨٩٩ هـ (١٤٩٤ م) أثناء عمارته للمدرسة ، وعمل قبة أعلى الفسقية التى كانت بالصحن .

وبعد الفراغ من المدرسة والقبة عين بهما المدرسين لمختلف العلوم ، كما خصص مدرسين لتعليم الأطفال بكتاب السبيل ... فهى - والحالة هذه - جامعة للطب وللمختلف العلوم .

وقد ألحق بواجهة هذه المدرسة سبيل أنشاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون على روح والده عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) ، ووضع هذا ، وان جاء مشوها للواجهة ، الا أنه تخلص به من حوض كان معدا لشرب الدواب .

البيمارستان (المستشفى)

كان الدافع الأول لانشاء هذه المجموعة هو البيمارستان ، ولذلك كان البدء به فى أول ربيع الآخر عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) . وقد أعد لمعالجة جميع الأمراض ، ولتدريس الطب . وظل

البيمارستان يؤدى وظيفته الى عام ١٨٥٦ م حيث دب اليه الانحلال ، فلم يبق به سوى المجانين الذين نقلوا منه الى ورشة الجوخ فى بولاق ، ثم نقلوا الى العباسية عام ١٨٨٠ . ثم تحول البيمارستان لمعالجة سائر الأمراض ، ثم اقتصر على معالجة أمراض العيون .

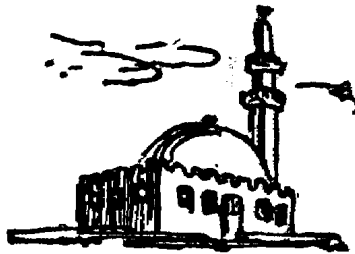
وفى سنة ١٩١٥ أقامت وزارة الأوقاف بقسم من البيمارستان مستشفى لمعالجة أمراض العيون ، وهو الباقي الى الآن .

ولم يبق من البيمارستان القديم سوى قسم من الايوان الشرقى به فسقية رخامية ، كانت تنساب اليها المياه على سلسيل صغير ، تندفع منه

الى مجرة من الرخام الدقيق . كما يوجد به شبايك أحيطت أفاريزها بكتابات كوفية . وكذلك توجد بقايا من الايوان الغربى ، وبها سلسيل حليت حافته بحيوانات تنحدر عليه المياه الى فسقية ، فمجرة من الرخام تتلاقى مع المجرة المقابلة لها . ومثل هذا موجود فى قصر الحمراء بالأندلس .

ومما يؤثر عن المنصور قلاوون أنه لما زار البيمارستان عقب فراغه تناول قدحا من شراب البيمارستان وشربه وقال : « قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى ، وجعلته وقفا على الملك والمملوك ، والذكور والاناث ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والجندى والأمير » .

حسن عبد الوهاب



خافاه بيسر الجاشنكير

الموبقات ... ففى عهده أبطلت الخمارات ، ومواطن الريب ، وأريقّت الخمر ، وفى أيامه عمل جسرا من قلوب الى مدينة دميّاط ، وهو مسيرة يومين ، وجدّد جامع الحاكم .

ولمحبّة الشعب للناصر محمد بن قلاوون لم يتعاونوا مع بيسر ، وكاتبوا الناصر ، وتغلب عليه الأمراء والممالك مما اضطره لترك المملكة فى رمضان عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، حينما علم بقدوم الناصر محمد من الشام .

وفى أول شوال عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) قدم الملك الناصر محمد الى قلعة الجبل ، واستولى على ملك مصر للمرة الثالثة . ثم قبض على بيسر الجاشنكير فى شرقى غزة ، وأحصر الى القلعة فى ١٣ من ذى لقعدة عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، وقتل ليلة الجمعة ١٥ من ذى القعدة عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، ثم دفن بتربة الفارس أقطاى ، ثم نقل الى تربته المجاورة لزواية الشيخ أبى السعود ابن أبى العشائر بالقرافة ، ثم نقل مرة نالّة الى قبة هذه الخانقاه .

بدأ فى انشائها الأمير بيسر الجاشنكير فى عام ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) قبل أن يلى السلطنة ، وأنشأ بجانبها رباطا كبيرا يتوصل اليه من داخلها ، وألحق بها فبه كبيرة يقول المقرئى انه ركب على أحد شبابيكها الشباك الكبير الذى كان بدار الخلافة فى بغداد ويجلس الخلفاء فيه كذلك أخذ من دار الوزارة أنقاضا ، كما اشترى كثيرا من الدور المشهورة ، وأخذ أنقاضها وأدخلها فى عمارة

أنشئت هذه الخانقاه على رقعة من أرض دار الوزارة الكبرى الفاطمية التى أنشأها الوزير الأفضّل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، والتى كانت تمتد — على وجه التقريب — من وكالة ذى الفقار حتى حارة الروم الجوانية .

منشئ الخانقاه

السلطان الملك المظفر ركن الدين بيسر ابن عبد الله المنصورى الجاشنكير . اشترى الملك المنصور قلاوون صغيرا وألحقه بخدمته ، وظل يتنقل فى الوظائف الى أن عينه جاشنكيرا .

ولما قتل الأشرف خليل بن منصور قلاوون كان ممن ساعد فى القبض على المعتدين عليه . وقتل الأمير بيدار وغيره .

ولما ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر للمرة الثانية ، تلالا نجم بيسر ، ورعى الى وظيفة استادار^٢ . وحج عام ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) ، فقضى على كثير من الخرافات الشائعة هناك

وفى عام ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) خرج الناصر محمد الى الكرك ، وكتب الى أمراء مصر بتنازله عن الملك ... فاستقر رأيهم على تولية بيسر الجاشنكير ، ولقب بالملك المظفر ، وذلك فى يوم السبت ٢٣ من شوال عام ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م)

وكان موصوفا بالعقل والميل الى الخير ، ومحاربة

(١) جاشنكير : الأمين على تدوق الاطعمة والمشروبات قبل تقديمها للسلطان .

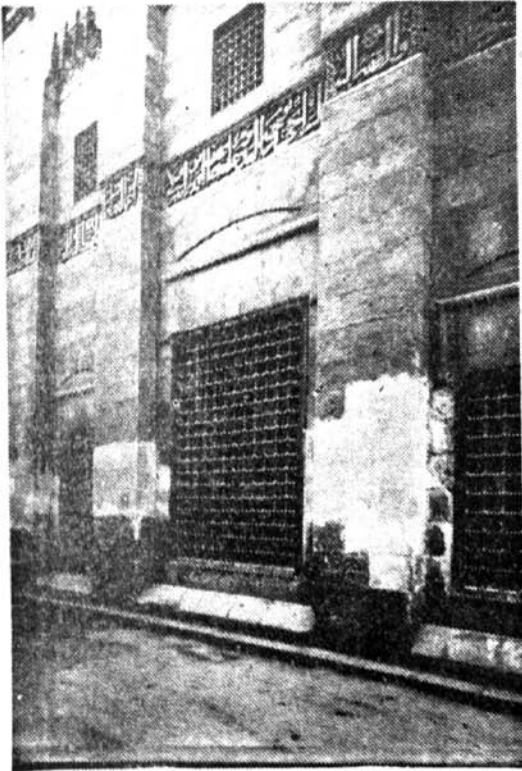
(٢) استادار : وظيفته الاشراف على الشؤون الخاصة بالملك .

وقد بقيت الخانقاه ، وهدم الرباط وحل محله
ربع السلحدار .

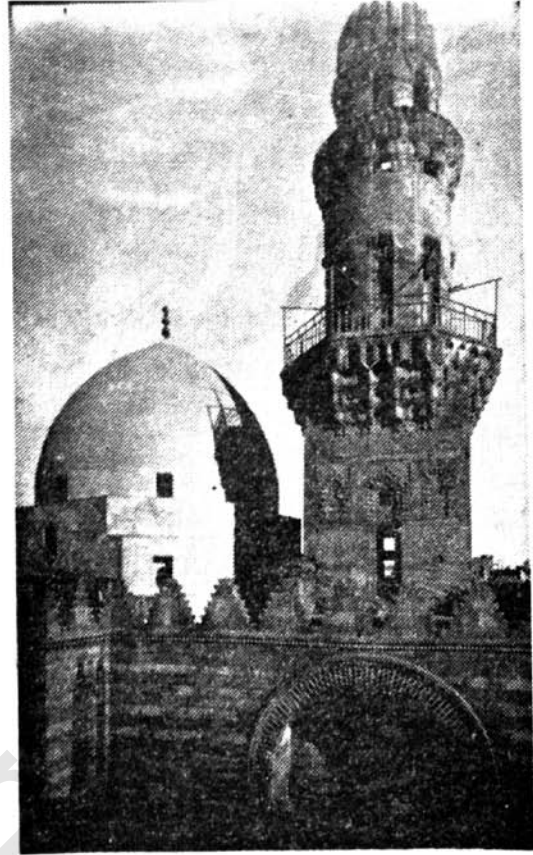
وصف الخانقاه

قبل الدخول في وصفها نلقى نظرة على الواجهة
الغربية ، وهي العمومية ، فنرى واجهة كبيرة
مبنية بالحجر ، ينتهي طرفها القبلي بباب كبير
كسى بالرخام ، وكتب عليه آيات من القرآن
بالرخام الأبيض الملبس في الرخام الأسود ، وبه
مقرنصات .

ويكتنف الباب من جانبيه صفوف مجوفة مكسوة
بالرخام ، مخلق بها عمد وتيجان رشيقة . ويعطى
هذا المدخل عقد مجيدى كبير بداخله مقرنص .
وفي هذا الباب نرى تطورا جديدا وابتكارات في
المدخل العامة نهج على منوالها بعد ذلك .



خانقاه بهيرس الجاشنكير



منارة وقبة مسجد بهيرس الجاشنكير

الخانقاه . وأدخل في عمارتها كثيرا من الرخام الذى
كان مودعا في أحد سراييب الفاطميين .
واستمرت الأعمال جارية بها الى أن كملت في
شهر رمضان عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، وقرر بها
أربعمائة صوفى ، وبالرباط مائة من الجند ، وبعض
الأفراد الذين أخنى عليهم الدهر . وأوقف عدة
ضياع بمصر والشام لعمارتها والصرف عليها .
وعقب الفراغ منها واقتناحها قبض عليه الناصر
محمد بن قلاوون وقتله ، وأمر باغلاقها ، وأخذ
ما كان موقوفا عليها . وظلت عشرين عاما معطلة
الى أن صدر الأمر بفتحها ثانية في أول عام ٧٢٦ هـ
(١٣٢٦ م) ، فأعاد اليها ما كان موقوفا عليها .

وقد غطيت الشبايك بالواجهة بمقرنصات متنوعة ، وبها طراز مكتوب عليه ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » الى قوله تعالى « بغير حساب » . أمر بإنشاء هذه الخانقاه السعيدة ، وقفا مؤبدا على جماعة الصوفية ، من فيض فضل الله تعالى وجزيل احسانه ، راجيا بذلك عفوه وغفرانه : العبد الفقير الى الله تعالى (.....) ركن الدين يبرس المنصوري عبيد الله ، والفقير اليه الراجي رحمته يوم القدوم عليه ... ضاعف الله ثوابه ، وزكى أعماله ، ويسر له أسباب ما نشط اليه من المعروف آماله بمنه وكرمه وأفضاله ، وصلى الله على سيدنا محمد

ويلاحظ في كتابة هذا الطراز أن القسم الواقع بين كلمتي تعالى وركن الدين وطوله نحو متر محيت كتابته . وأرجح أن الكلمات التي محيت هي « السلطان الملك المظفر » .

والمعروف أن الأمر بمحوها هو الملك الناصر محمد . ذلك أنه لم يعترف له بصفة الملك فمحاها من البناء . ولكنه ، وفاء منه ، ترك اسمه على الخانقاه لتظل منسوبة الى منشئها .

ويتوسط هذه الواجهة شباك كبير من النحاس . وهنا تتساءل : هل هذا الشباك هو الذي حدثنا عنه المقرئ بأنّه نقل من دار الخلافة في بغداد ، ثم دار الوزارة بمصر الى هذه الخانقاه ؟ الجواب عن ذلك أن ذلك الشباك كان من الحديد ، وهذا من النحاس ، وتبدو عليه الجدة كما تبدو على ما يجاوره من الشبايك ، كما انه مطابق لها في الصناعة ... فأين ذهب شباك دار الخلافة ؟ العلم عند الله . وكل ما وصل إلينا أن الشيخ محمد الأبراشي ناظر الخانقاه ، أزال ثلاثة شبائيك كانت يواجهنها ، وحولها الى دكاكين .

وتعلو المدخل منارة قاعدتها مربعة ضخمة حليت بالمقرنصات ، وبدن دورتها الثانية مستدير ، وكسيت قمتها المضلعة بالقاشاني الأزرق . وهي أول تكسية عثرت عليها برءوس المنارات ، ولم تكن معروفة من قبل ، تلبها منارتا مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة .

وعلى الباب مصراعان من النحاس المفرغ الدقيق بهما تكفيت بسيط بالفضة ، ومكتوب عليهما اسم المنشئ . وقد حلى ظهراهما بزخارف جميلة مدقوقة « أويمة » .

نجتاز الباب العظيم الى دركاة مربعة على يسارها باب القبة ، وهي من القباب الكبيرة ، فرشت أرضيتها بالرخام الأسود والأبيض على هيئة محاريب⁽¹⁾ وبوسطها قبر المنشئ . وبها وزرات من الرخام الدقيق ارتفاعها ثلاثة أمتار وستون سنتيمترا ، كتب بها بالخط الكوفي المربع « محمد » مكررة ، وبها تقاسيم هندسية ملونة ، ومجموعة من الشبايك الجصية الدقيقة زجاجها ملون . ولها محراب شاهق مكسو بالرخام الدقيق ، خلفه ممر مسحور للتهوية ، يتوصل اليه من مدخلين على يمين ويسار المحراب على هيئة دوايب .

وقد أقيم على وجه العقد الغربي لقاعدة القبة سياج من الخشب الخرط ، مكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . ان المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون » الى قوله تعالى « فارتقب انهم مرتقبون . وافق الفراغ من هذه القبة والخانقاه في شهر رمضان المعظم سنة تسع وسبعمائة » .

يجاور باب القبة باب آخر يوصل الى طرقة

(1) الأوضيات المحاريب والأبسطه المحاريب شاعت في هذا العصر ، فقد كانت أرضيات المدارس الطبرسية وأبسطتها على هيئة محاريب . وكان الفاطميون اسبق ، فقد استعملوا الحصر المحاريب البتونة . والأرضية الرخامية حول الكعبة على هيئة محاريب .

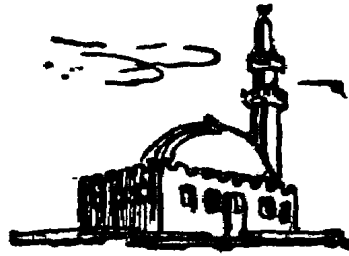
مستطيلة ، فرشت بالرخام الملون ، توصل الى
صحن الخانقاه . وتصميمها ايوانان كبيران معقودان
شرقى وغربى . أما الجانبان البحرى والقبلى فقد
أنشئ بهما خلاو للصوفية بعضها فوق بعض حليت
أعتابها بمقرنصات وعقود متنوعة ، وانقردت بنوع
غريب من العقود . ويتوسط كلا منها ايوان
صغير معقود غطيت فتحتة بباب معتب تعلوه شبك
مغطى بمقرنصات لطيفة كى ينسجم مع باقى
الواجهة .

والايوان الشرقى أكبرها ، وقد قسم أقساما
ثلاثة ، يتوسطه محراب حجرى تسوده البساطة ،

عار من الزخرف . ولا غرابة فى ذلك فهى خانقاه
أعدت للمتصوفين .

وعلى ذكر الخانقاه أذكر أن الخانقاه ،
أو الخانكاه ، كلمة فارسية معناها ديار الصوفية .
والرباط هو المكان المخصص للأعمال الصالحة ،
والعبادة وإقامة المنقطعين من الأهل . ويجوز
للفقراء الإقامة فى الأربطة وتناول مرتباتها ،
ولا يجوز للمتصوف الإقامة فى المدارس وأخذ
جراتها ... لأن المعنى الذى يطلق على المتصوف
موجود فى الفقيه ، ولا عكس .

حسن بيد الوهايب



مدرسة السلطان حسين

السلطان حسن

به فلم يوفق ، فهاجمه يلبغا في القلعة . وهرب السلطان حسن ، ثم قبض عليه وعلى من معه جهة المطرية ، وذلك في عام ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) . ويقول أغلب المؤرخين : كان هذا آخر العهد به . وقيل انه خنق وألقي به في البحر ، ولم يعرف له قبر .

ويقول المقرئى : انه دفن في مصطة كان يركب عليها من داره بقلعة الكيش . كما قيل أنه دفن بكيمان مصر ، وأخفى قبره .

كان رحمه الله ملكا حازما شجاعا منزها عن كثير من تقائص المالئك . وكان ينفر منهم ، ويقرب منه أولاد الناس ، ويعينهم في حاشيته .

مدرسة السلطان حسن

ان حق لمصر الفرعونية أن تفخر بأهرامها ، فان لمصر الاسلامية أن تتيه عجبا بمدرسة السلطان حسن التي لا يعادلها بناء آخر في الشرق بأجمعه ، فقد جمعت شتى الفنون فيها .

ويعرف موقعها قديما بسوق الخيل ، وكان به قصران من أجمل القصور أمر بانشائها الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) لسكنى الأميرين يلبغا البجياوى والطنبغا الماردانى .

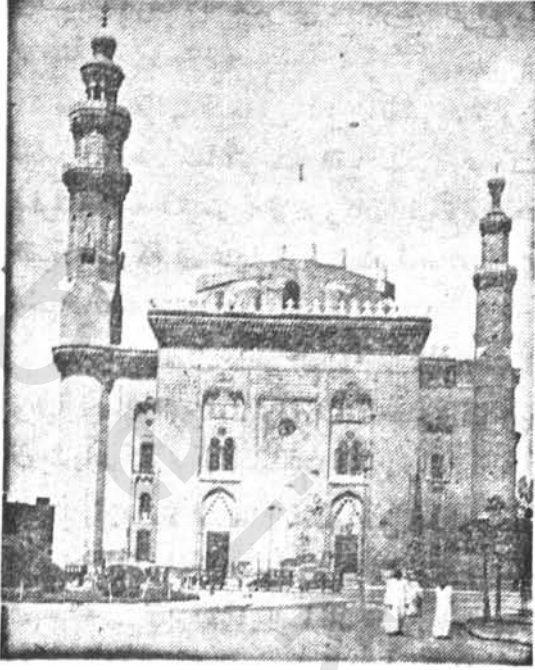
وقد بقى هذان القصران حتى هدمهما الملك الناصر حسن ليعنى محلها هذه المدرسة . ففى عام ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) بدأ هذا السلطان في بنائها ، وعنى بها عناية شديدة . واستمرت

السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون . ولد في عام ٧٥٣ هـ (١٣٣٤ م) ، وسمى أولا قمارى . ولما ولى ملك مصر اختار اسم حسن فعرف به ... ولى الملك في ١٤ من رمضان عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) وعمره ثلاث عشرة سنة . ولصغره ناب عنه في ادارة شؤون الدولة الأمير بيفاروس نائب السلطنة ، وأنعم على الأمير منجك اليوسفى ، وعين في الوزارة والاستدارية .

وفى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) أثبت القضاة أنه بلغ سن الرشد . وقبض على الأميرين منجك وبيفاروس ، مما دعا الأمراء الى التآمر عليه واقصائه عن الملك في ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) ، واعتقاله في الدور السلطانية ، وتعيين أخيه الصالح صالح .

وفى شهر شوال عام ١٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) ، أعيد الناصر حسن الى ملك مصر ، فاستبد بالملكة . وصفت له الدنيا ، ولم يشاركه أحد في الحكم ... فبالغ في أسباب الطمع الى عام ٧٦٢ هـ (١٣٦٤ م) ، وتزايد سلطانه ، وكثرت ممالئكه . وأهدى اليه بعض ملوك اليمن خيمة غريبة الهيئة تتكون من قاعة وحمام محلاة بنقوش غريبة .

ومن أجل تغير الجو في مصر وقتئذ ، خرج مع حاشيته الى ضواحي الجيزة ، فأقام ثلاثة أشهر . وفى هذه الفترة اشتدت الفتنة بينه وبين الأمير يلبغا الخاصكى ، وحاول السلطان حسن الفتك



مدرسة السلطان حسن

قتل السلطان حسن ، وكانت المدرسة كاملة ، عدا أعمال تكميلية أتمها من بعده الطواشي بشير الجمدار .

لقد قام الطواشي بشير بأعمال تكميلية كثيرة لهذه المدرسة دون أن يتمها أيضا ، منها أعمال الرخام بالوزرات والأرضيات . ولذلك يقرأ على ركن منها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر حسن بن مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك في شهور سنة أربع وستين وسبع مائة » ... مع ذكر المذهب المخصصة له « مدرسة للشافعية أو الحنفية » .

كما أتم قبة الفسقية بالصحن عام ٧٦٤ هـ . وهي قبة خشبية أقيمت على ثمانية أعمدة رخامية ،

العمارة جارية فيها وكان يصرف عليها بسطاء عظيم .

ونسب الطواشي مقبل الشامى الى السلطان حسن أنه قال : « لولا أن يقال ان ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناءه ، لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرفت عليه » . وليس بمستبعد أن يقول هذا ... فالبناء شامخ يدل على العظمة والجبروت وعلى المقدرة الفنية ، كما ينم عن كثرة النفقات . وقد ابتكر مهندس في هذا البناء الضخم زخارف دقيقة وكتابات ونقوشا ونحاسا مكفنا آية في الحسن والبهاء .

ويصفه المقرئى المؤرخ بقوله : « فلا يعرف في بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع وقبته التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثله » .

وقد أجمع على هذا رأى جميع المؤرخين والرحالة الذين زاروها . فيقول عنها ابن تفرى بردى : « ان هذه المدرسة ومنذنتها وقبتها من عجائب الدنيا ، وهى أحسن بناء مبنى فى الاسلام » .

وقد وضع تصميمها على طريقة التعامد التى تشمل على أربعة ايوانات ، يتوسطها صحن مكشوف .

وكان المقرر فى مشروع بنائها أربع منارات فرغ من بناء ثلاث منها : اثنتان تكتنفان القبة بالواجهة الشرقية ، والثالثة كانت على الكتف الأيمن للباب العمومى ، وقد سقطت يوم السبت ٦ من ربيع الآخر عام ٧٦٢ هـ - (١٣٦٠ م) ، فأبطل السلطان حسن بناء المنارة الرابعة التى كان مقررا لها الكتف الأيسر للباب المذكور ، واكتفى بالمنارتين . وقيل ان المنارة الرابعة كانت موجودة . وفى شهر جمادى الأولى عام ٧٦٢ هـ (١٣٦٠ م)

وكتب بدائرها آية الكرسي ، وتاريخ الفراغ منها « سنة أربع وستين وسبع مائة » .

وعمل الباب النحاسي الكبير الموجود الآن في جامع المؤيد . كما أتم بناء القبة الكبيرة ، وكتب بطرازها آية الكرسي ، ثم « وكان الفراغ من هذه القبة المباركة في شهر سنة أربع وستين وسبع مائة » .

هذه هي أعمال بشير الجمدار . أما الزخارف وبقية أعمال الرخام بالواجهات ، فقد تركها دون أن يتسها ، كما تركها السلطان حسن .

غير أن وفاة السلطان حسن قبل إجراء بقية الأعمال التكميلية ليس معناه أن المدرسة لم تفتح في حياته ... فقد احتفل السلطان حسن بافتتاحها ، وصلى بها الجمعة ، وأنعم على البنائين والمهندسين ، وأقيمت بها الدروس في حياته أيضا .

كما حرر لها وقفية مؤرخة شهر رجب عام ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) رسد عليها وعلى غيرها عقارات وأراضى تعل للصرف عليها ، وعين بها الموظفين والقراء ، وفرشها وعلق بها المشكاوات الجميلة ، وعين لها اماما .

وصف المدرسة

ان المطلع على رسم هذه المدرسة يرى في وضعها ازورارا قليلا ، بل يصعب عليه تحديد شكلها . وغاية ما ينتهي اليه الوصف أنه شكل كثير الأضلاع . وتبلغ مساحتها ٧٩٠٦ أمتار ، وامتداد أكبر أطوالها ١٥٠ مترا وأطول عرضها ٦٨ مترا .

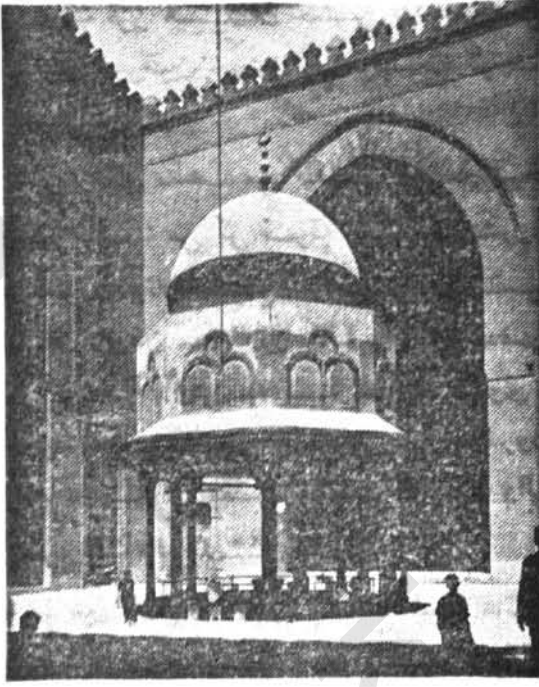
وللمدرسة أربع واجهات : واجهة شرقية ، وبها القبة ومنارتان : أقدمهما المنارة القبلىة ، ويبلغ ارتفاعها عن صحن المسجد ٨١٦٠ مترا . أما المنارة البحرية فقد سقطت عام ١٠٧٠ للهجرة

(١٦٥٩ م) ، وجددت في عمارة ابراهيم باشا عام ١٠٨٢ هـ (١٦٧١ م) .

وقد حليت أعتاب شبايك القبة بمقرنصات وعقود غربية ، كما طعمت بأشرطة من القاشانى . وحليت نواصيها بعمد من الحجر ظريفة ، بها كتابات كوفية . ويتجلى منظرها من ميدان صلاح الدين ومن أعلى القلعة .

وواجهة قبلىة ، وبها شبايك مدرستى الحنابلة والحنفية . وغربية ، وتحتها دورة المياه ، وأمامها الساقية التى كانت توصل المياه الى المدارس والى المسجد بوساطة مجراة على كوابيل بالواجهة القبلىة . وبحرية — وهى الواجهة العمومية — يبلغ ارتفاعها ٣٧٧٠ مترا ، وبطرفها الغربى الباب العمومى . وهذا الباب طرفة أثرية ، فقد حلى جانباه بزخارف متنوعة ممتدة الى أعلى ، وأكثرها لم ينم الى الآن ، كما أن أجزاء كثيرة منه كان مزمعا تلييسها بالرخام ولم يتم . ويكتنف هذا المدخل خيتان لبستا بالرخام الأخضر فى أشكال هندسية ، وكتب أعلاهما بالخط الكوفى المزهر قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله » . وتعلوها تريعتان كتب باحداهما بالكوفى المربع : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، وبالأخرى : « أبو بكر ، عمر ، عثمان ، على » .

وهذا الباب يؤدى الى مدخل مربع ، مكون من ثلاثة ايوانات مغطاة بمقرنصات تتوسطها قبة . وبصدر هذا المدخل صفة حلى صدرها بالرخام الملون الملبس فى الحجر الأبيض ، وشباك من الجص ودوائر ومستطيلات زخرفية دقت فى الحجر لا تقل دقة عن الأويمة فى الخشب أو الجص . ومن هذا المدخل يتوصل الى سلم ذى خمس درجات ، يؤدى الى دهليز ينثنى دفعة



منظر بداخل مدونة السلطان حسن

١٠٧١ للهجرية (١٦٦٠ م) ، وكانت أعظم ارتفاعا ، وباطنها حافلا بالنقوش ، وجدها ابراهيم باشا عام ١٠٨٢ هـ (١٦٧١ م) . وهى محاطة من الخارج بدعامات أسطوانية .

وتتوسط القبة تركيبة من الرخام ، كتب عليها أنها أُنشئت سنة ٧٨٦ هـ برسم تربة السلطان السعيد الشهيد الملك الناصر حسن وذريته . ولكن السلطان حسن لم يدفن فيها) كما ذكرنا فى ترجمته ، بل دفن فيها أولاده . وقد أودع هذه القبة كرمى للمصحف مكون من حشوات سن وأبنوس وخشب دقت بالأويمة الدقيقة .

ويحيط بالصحن أربع مدارس للمذاهب الأربعة تعد فى تصميمها مساجد صغيرة محدقة بصحن الجامع الكبير : أكبرها المدرسة الحنفية اذ تبلغ مساحتها ٨٩٨ مترا . ويتكون كل منها من ايوان وصحن تتوسطه فسقية ، ثم طبقات بعضها فوق بعض تشرف على صحن المدرسة وعلى الواجهات .

واحدة الى اليسار ، وينتهى الى صحن كبير مفروش بالرخام الملون مساحته ٣٤٦٠ مترا فى ٣٢ مترا ، تتوسطه فسقية تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة ، مكتوب بدائرها آية الكرسي وتاريخ الفراغ منها ، وبها تاريخ عمارة أجريت بها عام ١٠٨٨ هـ (١٦٧٧ م) .

وحول الصحن أربعة ايوانات : أكبرها ايوان القبيلة ، وهو ايوان كبير لا نظير له فى سعته وارتفاعه اذ تبلغ فتحته ١٩٢٠ مترا ، يحيط به افريز نادر من الجص مكتوب به بالخط الكوفي المزهر ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . انا فتحنا لك فتحا مبينا » الى قوله تعالى : « فوزا عظيما » . وتتخلل الكتابة زخارف دقيقة ، وتتوسطه دكة رخامية يلفت النظر فيها تليس عمد الرخام الملون فى نواصيها ، وبصدره المحراب المغشى بالرخام الملون ، والمطلى بزخارف مورقة تتخللها عناقيد العنب . ويجاور المحراب منبر رخامى له باب نحاسى مخرم ، ويكتنف المحراب بابان يوصلان الى القبة خلف المحراب : أحدهما قبلى مغشى بالنحاس المكثف بالذهب وعليه اسم السلطان حسن ، والآخر فقدت كسوته .

والقبة مربعة ، طول كل ضلع من أضلاعها ٢١ مترا ، وارتفاعها ٤٨ مترا . وبها محراب رخامى مزخرف زخرفة دقيقة ، ووزرة مرتفعة نحو ثمانية أمتار ، يعلوها افريز فوقه مقرنصات خشبية محلاة بزخارف ملونة ومذهبة وغطاء القبة الحالى ليس هو غطاءها القديم ، فقد كانت القبة خشبية مكسوة بالرصاص .

وقد زار السائح « بترودى لافاليه » مصر ، وكتب رحلته عام ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) . ومن وصفه للقبة يعتبر طرازها كطراز القباب السمرقندية . كذلك ذكر « بريس دافين » أن القبة سقطت عام

ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة ، وكذا في سائر الأعياد .

المدرسة كقلعة

لوقوع هذه المدرسة أمام قلعة الجبل اتخذها المماليك حصنا لهم يدافعون منه عن أنفسهم أمام القلعة فحينما تقع فتنة بينهم يصعد الأمراء وغيرهم أعلى مدرسة السلطان حسن ويضربون القلعة ... ففى عام ٧٧١ هـ (١٢٦٩ م) نصبت مكحلة أعلى المدرسة ، رمى بها على باب السلسلة فهرب المماليك . ولذلك أمر السلطان الظاهر بقرق في ٨ من صفر عام ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) بهدم السلم الموصل الى السطح ، وسد ما وراء الباب النحاسى الكبير ، ثم فتح شباك من شبايك المدرسة ليتوصل منه الى داخلها .

وفى شهر رمضان عام ٨٣٥ هـ (١٤٢١ م) صرح بالأذان فى المنارتين ، وأعيد بناء المدرج والبسطة ، وركب باب جديد .

وفى ٢٩ من ذى الحجة سنة ٨٥٨ هـ عهد السلطان أبو النصر ابنال الى المهندسين بفحص المنارة القبلى للمدرسة خوفا من حدوث خلل بها . وبفحصها تبين لهم أن رصاص القبة به ثغرات من كثرة الرمى عليها بالمكاحل فى أيام الحروب ، واعوج هلالها فرفع وبقيت القبة بدونه .

وقد قىض الله لهذه المدرسة لجنة حفظ الآثار العربية ، فبذلت فى اصلاحها مجهودا جبارا : فأكملت بناء منارتها ، وأصلحت جدرانها ورخامها ونجارتها وأرضيتها حتى أعادت اليها رونقها بعد أن صرفت عليها ٤٠ ألف جنيه .

وانتهت هذه الأعمال فى منتصف عام ١٩١٥ .

حسن عبد الوهاب

وقد قرر السلطان حسن لهذه المدارس مدرسين ومراقبين ، وعين لهم مرتبات نثيتها فيما يلى :

قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب : من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون ، وثلاثة معيدون . وعين مدرسا لتفسير القرآن ، وعين معه ثلاثين طالبا عهد الى بعضهم عمل الملاحظة . وعين مدرسا للحديث النبوى ، ومقرئا لقراءة الحديث ، وثلاثين طالبا يحضرون يوميا ، عهد الى بعضهم وظيفة النقيب ، والى الآخر وظيفة داع للسلطان عقب الدروس .

ثم عين بالايوان القبلى بالجامع شيخا عالما مفتيا ، ورتب معه مقرئا مجيدا للقراءة على أن يحضر أربعة أيام من كل أسبوع — منها يوم الجمعة — فيقرأ ما تيسر من القرآن وما تيسر من الحديث الشريف . وعين مدرسا حافظا لكتاب الله ، عليهما بالقراءات السبع ، يجلس كل يوم ما بين صلاة الصبح والزوال بالايوان القبلى ، وقارئا آخر يجلس معه ليلقن القرآن لمن يحضر عنده . ثم عين اثنين لمراقبة الحضور والغياب : أحدهما بالليل ، والآخر بالنهار . وأعد مكتبة عين لها أمينا ، وألحق بالمدرسة مكتبين بمدرسيهما لتعليم الأيتام القرآن والخط ، وقرر لهم الكسوة والطعام ... فكان اذا أتم اليتيم القرآن حفظا يعطى له خمسون درهما ، ويمنح مؤدبه خمسين درهما مكافأة له .

وعين طبييين مسنين : أحدهما باطنى ، والآخر للعيون ، يحضر كل منهما كل يوم بالمسجد ليداوى من يحتاج الى علاج من الموظفين والطلبة . مستر طبيبيا ثالثا جراحا . وقد أُرصد فى وقفته بيان مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين ، وقيمة

دار الكتب المصرية

قسم المخطوطات

كتاب الشعب

١	تفسير جزء عم	٣٣	تاريخ الجبرتي (٤)
٢	للاستاذ الامام محمد عبده	٣٤	المعجم المفهرس (٤)
٣	قصة السموات والارض	٣٥	تاريخ الجبرتي (٥)
٤	للدكتور محمد جمال الغندى	٣٦	المعجم المفهرس (٥)
٥	والدكتور محمد يوسف حسن	٣٧	تاريخ الجبرتي (٦)
٦	قصة الجنس البشرى (١)	٣٨	المعجم المفهرس (٦)
٧	للدكتور هندريك فان لون	٣٩	صحيح البخارى (١)
٨	قصة الجنس البشرى (٢)	٤٠	تاريخ الجبرتي (٧)
٩	اعرف نفسك ليوستاس تشسر	٤١	المعجم المفهرس (٧)
١٠	تفسير جزء تبارك	٤٢	صحيح البخارى (٢)
١١	للاستاذ عبد القادر المغربى	٤٣	دائرة معارف الشعب (١)
١٢	الطب للشعب	٤٤	تاريخ الجبرتي (٨)
١٣	لفريق من الاخصائيين العالميين	٤٥	صحيح البخارى (٣)
١٤	جان كريستوف (١)	٤٦	دائرة معارف الشعب (٢)
١٥	رومان رولان	٤٧	تاريخ الجبرتي (٩)
١٦	اشغال الصوف (التركى)	٤٨	صحيح البخارى (٤)
١٧	للاستاذة بثينة الكفراوى	٤٩	دائرة معارف الشعب (٣)
١٨	جان كريستوف (٢)	٥٠	اساطير من الغرب
١٩	على هامش التاريخ المصرى القديم	٥١	للاستاذ سليمان مظهر
٢٠	للاستاذ عبد القادر حمزة	٥٢	صحيح البخارى (٥)
٢١	مائدة الشعب (١)	٥٣	دائرة معارف الشعب (٤)
٢٢	للاستاذة بسمة زكى ابراهيم	٥٤	خامس الراشدين (١)
٢٣	مائدة الشعب (٢)	٥٥	للاستاذ احمد الشراصى
٢٤	المصحف المفسر (١)	٥٦	صحيح البخارى (٦)
٢٥	للاستاذ محمد فريد وجدى	٥٧	دائرة معارف الشعب (٥)
٢٦	نبى البر (الغفار منسقة ابن هشام)	٥٨	خامس الراشدين (٢)
٢٧	للاستاذ ابراهيم الايبارى	٥٩	صحيح البخارى (٧)
٢٨	المصحف المفسر (٢)	٦٠	دائرة معارف الشعب (٦)
٢٩	فن الحياة لاندريه موروا	٦١	فن التفصيل والحياة (١)
٣٠	المصحف المفسر (٣)	٦٢	للاستاذة بثينة الكفراوى
٣١	اساطير من الشرق	٦٣	صحيح البخارى (٨)
٣٢	للاستاذ سليمان مظهر	٦٤	دائرة معارف الشعب (٩)
٣٣	المصحف المفسر (٤)	٦٥	دائرة معارف الشعب (٨)
٣٤	عائنا الذى نعيش فيه	٦٦	هذا هو الاسلام
٣٥	للاستاذة فاطمة محبوب	٦٧	للدكتور محمد غلاب
٣٦	المصحف المفسر (٥)	٦٨	صحيح البخارى (١٠)
٣٧	كيف نعيش اليوم	٦٩	دائرة معارف الشعب (٩)
٣٨	للاستاذة فاطمة محبوب	٧٠	هوايات مريحة
٣٩	المصحف المفسر (٦)	٧١	للاستاذ محمد سيد احمد حسن
٤٠	صلاح الدين الايوبى	٧٢	صحيح البخارى (١١)
٤١	للدكتور جمال الدين الرمادى	٧٣	دائرة معارف الشعب (١٠)
٤٢	المصحف المفسر (٧)	٧٤	تقويم الشعب
٤٣	تاريخ الجبرتي (١)	٧٥	للاستاذ احمد عطية الله
٤٤	المعجم المفهرس (١)	٧٦	صحيح البخارى (١٢)
٤٥	للاستاذ محمد نؤاد عبد الباقى	٧٧	دائرة معارف الشعب (١١)
٤٦	تاريخ الجبرتي (٢)	٧٨	صحيح البخارى (١٢)
٤٧	المعجم المفهرس (٢)	٧٩	صحيح البخارى (١٣)
٤٨	تاريخ الجبرتي (٣)	٨٠	
٤٩	المعجم المفهرس (٣)		